أَحَادِيثُ الأَخْلَاقِ

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

أحاديث الأخلاق

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع
طباعة ـ نشر ـ توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة
00966532627111
00966590960002
daremslm@gmail.com
daremslm

مركز سطور للبحث العلمي
Sutor.center@gmail.com
بحث علمي - طباعة - صفّ - تنسيق - تصميم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
أحاديث الأخلاق. / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر.
المدينة المنورة، ١٤٤١هـ

ردمك: ٤-٣٥-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨
١- الأخلاق الإسلامية ٢- التربية الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢١٢,٢ ١٠٠٤٠-١٤٤١

رقم الإيداع: ١٠٠٤٠-١٤٤١
ردمك: ٤-٣٥-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

أحاديث الأخلاق

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد: فهذه سلسلة نافعة في أحاديث الأخلاق، قدمتها في حلقات يوميَّة خلال شهر رمضان المبارك لعام ١٤٤١هـ في «**قناة السُّنَّة النَّبويَّة**»، وقد لقيت -بفضل الله- قبولًا لدى المستمعين، ورغب الكثير في طبعها ونشرها لتتنوَّع الإفادة منها.

وقد كنت شرعت في إعدادها في يوم الخميس، الثَّالث والعشرين من شهر شعبان، ووقع الفراغ منها في يوم السَّبت، الثَّالث والعشرين من شهر رمضان المبارك.

وأسأل الله الكريم أن يُعْظِم النَّفع بها، وأن يجعلها لوجهه خالصًا، وأن يتقبَّلها بقبولٍ حسن، إنَّه سميع قريب مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله، نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الرَّزاق بن عبد المحسن البدر

(١)
حُسْنُ الخُلُقِ

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمنَّ علينا بالأدب الكريم والخلق القويم الَّذِي هو هدْي قدوتنا وأسوتنا نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، الَّذِي قال عنه ربُّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وأنْ يهديَنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا هو، وأنْ يصرف عنَّا سيِّئها لا يصرف عنَّا سيِّئها إلَّا هو.

إنَّ الخُلُقَ والأدب عنوانُ فلاحِ المرء وسعادتِه في الدُّنيا والآخرة، وما استُجلِبت الخيرات بمثل الخُلُق الفاضل والأدب الكريم، والدِّينُ كلُّه خلُقٌ، فمَنْ زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدِّين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ. فَقَالَ: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

فجعله النَّبيُّ ﷺ من أسباب دخول الجنَّة، وقرنه بالتَّقوى الَّتِي هي أعظم وصيَّة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُاللَّهُ: «جمع النَّبيُّ بين تقوى الله وحُسْن الخُلُق؛ لأنَّ تقوى الله تُصْلِح ما بين العبد وبين ربِّه، وحُسْن الخُلُق يُصْلِح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله تُوجب له محبَّة الله، وحُسْن الخُلُق يدعو

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

إلى محبَّته»(١).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

فكُلَّمَا كان المرء أحسن خُلقًا؛ كان أقرب إلى رسول الله ﷺ مجلسًا يوم القيامة من غيره، وكُلَّمَا كان أسوأ خُلقًا كان أبعد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»، رواه البزَّار(٣).

أي: لا يمكنكم أن تسعوا النَّاس بأموالكم عطاءً وبذلًا مهما كثرت أموالكم وعَظُم سخاؤكم؛ لأنَّ استيعاب عامَّتهم بالإحسان بالفعل غير ممكن؛ فسعوهم بأخلاقكم الكريمة، وأدبكم الجميل؛ ببسطِ الوجه، وحُسْنِ الخُلُق، وهذا أمرٌ هيِّنٌ سهلٌ متيسِّرٌ لمن وفَّقه الله ووهبه الخُلُق الحَسَن، روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان ينشد:

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ ... وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ

وهذه الأخلاق هِباتٌ مِنَ الله، وتفضُّلٌ منه يهدي لأحسنها مَنْ شاء مِن عباده.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ**

(١) الفوائد، لابن القيِّم (ص: ٥٤).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البزَّار في مسنده (٨٥٤٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٦٦١).

الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. اللهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَقِنِي سَيِّئَ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئَ الْأَخْلَاقِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنت»، رواه النَّسائيُّ[(١)].

وعَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي**»، رواه أحمد[(٣)].

قال طَاوُسُ بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ مَنَائِحُ يَمْنَحُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا مَنَحَهُ مِنْهَا خُلُقًا صَالِحًا»[(٤)] رواه ابن أبي الدُّنيا في «مكارم الأخلاق».

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٥)].

فالَّذِي يُعطي الأرزاق هو الَّذِي يُعطي الأخلاق، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ الأخلاقَ مواهبُ يهب الله منها ما يشاء لمَنْ يشاء»[(٦)]؛ ولهذا كما أنَّه مطلوب في باب اكتساب الرِّزق **أمران لا بدَّ منهما:**

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٨٩٦،٨٩٧،٨٩٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٩١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٣٨٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٩٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (٣٢).
(٥) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٧٥)، وقال الألبانيُّ: «صحيح موقوف في حكم المرفوع».
(٦) الفروسيَّة، لابن القيِّم (٤٩٩).

الأوَّل: اللُّجوء إلى الله في تيسيره والتَّوكُّل عليه في اكتسابه.

والثَّاني: السَّعي في طلب الرِّزق من وجوهه المشروعة المباحة.

فكذلك في باب الأخلاق مطلوب اللُّجوء إلى الله بالمنِّ بالأخلاق الفاضلة والآداب الكريمة، مع السَّعي ومجاهدة النَّفس على تحقيقها.

وعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ شيءٍ أثقلُ في الميزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ**»، رواه أبو داود[(١)]، ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»[(٢)].

وهذا فيه إثبات ميزان الأعمال الَّذي يُنصب يوم القيامة، وأنَّ أعمال العباد توزن فيه، وهو يدلُّ على عظيم شأن حُسْن الخُلُق وعظيم ثوابه عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه من أثقل ما يكون في الميزان عندما توزن الأعمال؛ لأنَّه من أجلِّ الخصال وأفضل الأعمال.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[(٣)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ**»، رواهما التِّرمذيُّ[(٤)].

قال الحَليميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلَّ على أنَّ حسن الخُلُق إيمانٌ وعدمه نقصان إيمانٍ، وأنَّ المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم، فبعضهم أكمل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (١١٦٢)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦١٢).

إيمانًا من بعض، ومِن ثَمَّ كان المصطفى ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقًا لكونه أكملهم إيمانًا، «وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»؛ أي: مَن يعاملهنَّ بالصبر على أخلاقهنَّ ونقصان عقلهنَّ، وطلاقة الوجه، والإحسان»[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»، رواه أحمد[(٢)]، ورواه البزَّار بلفظ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»[(٣)].

فبعثه الله عَزَّ وَجَلَّ ليدعو النَّاس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وينذرهم سيء الأخلاق وسيء الأعمال، وقد دعاهم إليها قولًا وفعلًا.

أمَّا قولًا: فقد تكاثرت عنه الأحاديث في الحثِّ على الأخلاق الكاملة والآداب الرَّفيعة والحثِّ عليها، وبيان ما أعدَّ الله لأهلها مِنَ الثَّواب العظيم والأجر الجزيل.

وأمَّا فعلًا: فقد كان قدوة للعالمين بما وهبه الله مِنَ الخُلُق الكامل والأدب الرَّفيع، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]»، رواه أحمد[(٤)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى هذا أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ صار امتثالُ القرآن أمرًا

---

(١) فيض القدير، للمُناويِّ (٢/ ٩٧).
(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٢٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البزَّار في مسنده (٨٩٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة برقم: (٤٥).
(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٠١).

ونهيًا سجيَّةً له، وخُلُقًا تَطَبَّعَه، وتَرَكَ طبعه الجِبِلِّي، فمهما أَمَره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جَبَلَه الله عليه مِنَ الخُلُق العظيم، مِنَ الحياء والكرم والشَّجاعة، والصَّفح والحِلْم، وكُلِّ خلق جميل.

كما ثبت في «الصَّحيحين» عن أنس قال: خدمتُ رسولَ اللهِ ﷺ عشر سنين فما قال لي: أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه؟ وكان ﷺ أحسن النَّاس خُلُقًا، ولا مَسسْتُ خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شَمَمْتُ مِسكًا ولا عطرًا كان أطيب مَنْ عَرَق رسول الله ﷺ.

وروى البخاريُّ عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن النَّاس وجهًا، وأحسن النَّاس خُلُقًا، ليس بالطَّويل البائن، ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى التِّرمذيِّ في هذا كتاب «الشَّمائل».

وروى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قطُّ، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قطُّ، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّر بين شيئين قطُّ إلَّا كان أحبّهما إليه أيسرهما حَتَّى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد النَّاس مِنَ الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يُؤتى إليه إلَّا أنْ تُنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، قال العوفيُّ: عن ابن عبَّاس: أي: وإنَّك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسُّدِّيُّ، والرَّبيع بن أنس، والضَّحَّاك، وابن زيد»(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمَّى الدِّين خُلقًا؛ لأنَّ الخُلُق هيئة مركبة

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠٦-٢٠٨).

من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحقِّ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النَّفس بها أخلاقًا هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلًا له وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبَّته لما أحبَّه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه، والجهاد في إقامته، فترجمت أُمُّ المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرَّسول ﷺ وحسن تعبيرها؛ عن هذا كُلِّه بقولها: كان خُلُقه القرآن»[(١)].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»، رواه أبو داود[(٢)].

فيه بيان فضيلة حُسن الخُلق، وأنَّه يوصل صاحبه إلى الدَّرجات العالية في الجنَّة، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكر **ثلاثة أصنافٍ مِنَ النَّاس:**

فمنهم مَن يكون في ربض في الجنَّة، وهو أدناها.

ومنهم مَن يكون في وسطها.

ومنهم مَن يكون في أعلاها.

---

(١) التِّبيان في أقسام القرآن، لابن القيِّم (ص: ٢١٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

فالجنَّة درجات، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث أنَّ مَن يُحَسِّن خُلُقَه يكون له بيت في أعلى الجنَّة، وقوله: «**أَنَا زَعِيمٌ**» أي: ضامن وكفيل.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل البيت العلويَّ جزاءً لأعلى المقامات الثَّلاثة؛ وهي حُسن الخُلُق، والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها، وهو ترك المماراة وإن كان معه حقٌّ، ولا ريب أنَّ حسنَ الخُلق مشتمل على هذا كُلِّه»(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُقَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

يتكون هذا الحديث من جملٍ ثلاث، هي من جوامع كلم نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد جمع فيها أصول المعاملة؛ المعاملة مع الله، والمعاملة مع النَّفس، والمعاملة مع الخلق.

وكُلُّ جملة من جمل هذا الحديث فيها بيان لأحد هذه الأصول الثَّلاثة:

الأصل الأوَّل: قال: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»؛ فالأصل الَّذي تُبنى عليه المعاملة مع الله هي تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، وتقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي وصيَّته جَلَّ وَعَلَا للأوَّلين والآخرين من خلقه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النِّساء:١٣١]، وفي القرآن الكريم مِن ذِكر التَّقوى وبيان مكانتها وعظيم ثوابها وآثارها على المتَّقين في الدُّنيا والآخرة؛ آياتٌ كثيرة تدُلُّ على مكانة التَّقوى وعظيم شأنها.

(١) مدارج السَّالكين، لابن القيِّم (٢/ ٣٠٧).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الأصل الثَّاني: قال: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»؛ هذا في معاملتك مع نفسك في هذه الحياة بتربيتها على الفضائل، وتأديبها على الكمالات، وزمِّها بزمام الخير والفضيلة، بأن تقبل بنفسكَ على الحسنات والطَّاعات، وتستكثر منها كلَّما تهيَّأت فرصة، ورُبَّما كانت الحسنة صغيرة في عينك فتكون سببًا في دخولك الجنَّة، قد تفعلها ولا تلقي لها بالًا وتكون سببًا لغفران ذنوبك.

والأصل الثَّالث: قال: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»؛ والخُلُق الحسنُ: هو الخُلُق الَّذِي كان عليه سيِّد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فمَنْ أراد أن يعرف كوامل الآداب وجوامع الأخلاق وحُسْن المعاملات؛ فلينظر إلى هديه وسيرته وسنته -صلوات الله وسلامه عليه-.

فأدبه أكمل الأدب، وخلقه أكمل الخلق في كُلِّ الأبواب، والمسلم مطلوب منه أن يخالق النَّاس جميعًا بخُلُق حسن؛ وهذا فيه أنَّ التَّعامل بالخُلُق الحسن مطلوب مع الأبوين، والأهل، والأولاد، والقرابة، والجيران، وعموم المسلمين، بل ومع الكفَّار؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عامل الكفار معاملة حسنة كانت سببًا لهداية كثير منهم ودخولهم في هذا الدِّين، وكان ﷺ يأتيه الرَّجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه منه، فما أن يَرى خُلُقَه الكريم وأدبه الرَّفيع إلَّا ويتحوَّل من ساعته وليس على وجه الأرض أحد أحبَّ إليه منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والأخلاق الإسلامية تقوم على أربعة أركان مَنِ اعتنى بها كان

بـإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من أهل الأخلاق، ومَن ضيَّعها أو ضيَّع منها شيئًا ضاع منه الخُلُق بحسب ما أضاع من هذه الأركان، وقَدِ اجتمعت هذه الأركان للأخلاق في أربعة أحاديث، كُلُّ حديثٍ منها دلَّ على ركن من أركان الأخلاق.

نقل الحافظ ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» عن أبي محمَّد بن أبي زيد القيروانيِّ -إمام المالكيَّة في زمانه- أنَّه قال: «جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث: قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١)، وقوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٢)، وقوله للَّذِي اختصر له في الوصيَّة: «**لَا تَغْضَبْ**»(٣)، وقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»»(٤).

فهذه الأحاديث الأربعة -وكُلُّها من أحاديث «الأربعين» للنَّوويِّ رحمه الله تعالى- جمعت الأخلاق والآداب، وجميع أحاديث الأخلاق المرويَّة عَنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأخلاق راجعة إلى هذه الأحاديث الأربعة، وهذا يفيدنا أنَّ مَن وُفِّق لفهم هذه الأحاديث وتطبيقها فإنَّه يكون قَدِ اجتمعت فيه أركان الأخلاق وأعمدتها.

لأنَّ الأخلاق تقوم على أركان أربعة:

الرُّكن الأوَّل: صيانة اللِّسان. قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»، ومَن لم يصُن لسانَه لن يكون من أهل

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١٣٥)، ومسلم (٤٨).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١١٦).
(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٨٨).

الأخلاق؛ إذ مِنَ الأسس العظيمة والدَّعائم المتينة الَّتِي تقوم عليها الأخلاق؛ صيانةُ اللِّسان.

ومعنى صيانة اللِّسان: أي ضبْطُه وحبْسُه عَنِ الكلام إِلَّا ما كان فيه فائدة، فقول النَّبيِّ ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» فيه دعوة للتَّفكر في الكلام قبل النَّطق به؛ لأنَّ الكلمة قبل أن تخرج يملكها المرء، فإذا خرجت ملكته، ولهذا من الجميل بالمسلم أن يتفكَّر في كلامه قبل أن يتكلَّم، وإذا تفكَّر **فيه وجده لا يخرج عن ثلاثةِ أحوالٍ:**

١- **إمَّا أن يتبيَّن له** أنَّه خيرٌ بيِّن واضحٌ؛ فيتكلَّم به ولا حرج.

٢- **وإمَّا أن يتبيَّن له** أنَّه شرٌّ بيِّن؛ إمَّا غيبة، أو كذب، أو سخرية، أو نميمة، أو غير ذلك مِنَ الشَّرِّ البيِّن؛ فيمنع نفسه منه ويصون لسانه عنه.

٣- **وإمَّا أن يكون مشتبها عليه:** لا يدري هل هو خير أم شرٌّ؟ ففي هذه الحالة أيضًا يمنع نفسه مِنَ التَّكلُّم به لقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»(١)، ولقوله عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٢).

فهذا أساسٌ لا بدَّ منه في باب الأخلاق؛ أن يصونَ المرء لسانه، وأن يحفظ كلامه، فلا يتكلَّم إِلَّا بخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠]، وفي الحديث قال عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٨)، والنَّسائيُّ (٥٧١١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[١].

والحاصل: أنَّ من أسس الأخلاق وأركانها الَّتِي عليها تقوم؛ صيانة اللِّسان وحفظَه، ومَن لا يصون لسانه لا يكون من أهل الأدب والخُلُق.

الرُّكن الثَّاني -من أركان الأخلاق-: البُعد عَنِ الفضول وما لا يعنِي، قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

والإنسان الفضوليُّ لن يكونَ ذا أدب وخُلُق؛ لأَنَّ فضولَه وإقحامَه لنفسه فيما لا يعنيه يُخرجه عن حيِّز الأدب، بخلاف مَنْ كان بعيدًا عَنِ الفضول بعيدًا عَنِ الدُّخول فيما لا يعنيه فهذا من سمات الأدب، بل من أعمدته.

ومعنى قوله ﷺ: «**تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» أي: بضابط الشَّرع لا بضابط الهوى، وهذا أمر قد يُغفل عنه؛ لأنَّ بعض النَّاس قد يوظِّف هذا الحديث في غير بابه، مثل أن يُؤمر بخير أو يُنهى عن منكرٍ فيقول للآمر النَّاهي: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»؛ وهذا من سوء الفهم للحديث، لأنَّ هذا مِمَّا يعني المسلم بضابط الشَّرع بالحكمة واللِّين والأسلوب الحسن.

الرُّكن الثَّالث -من أركان الأخلاق-: عدم الانسياق مع انفعالات النَّفس -خاصَّة- الغضب؛ قال ﷺ: «**لَا تَغْضَبْ**»، فعندما ينفعل الإنسان ويغضب عليه أَلَّا يباشر وقت غضبه أيَّ قولٍ، أو أيَّ فعلٍ، لأنَّ أيَّ قولٍ وأيَّ فعلٍ يُباشره وقت غضبه؛ سيخرج به في الغالب عن نطاق الخُلق والأدب.

وقد قيل في ذمِّ الغضب وتقبيحه: «**الْغَضَبُ أَوَّلُهُ جُنُونٌ وَآخِرُهُ نَدَمٌ**»؛ لأنَّ الَّذِي يتصرَّف وقت غضبه بقولٍ أو فعلٍ يتصرَّف بغير انضباط، ولهذا على الإنسان أَلَّا ينساق مع انفعالات النَّفس، فإذا كان منفعلًا

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فليجلس، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»[(١)].

وليمنع نفسه من الكلام، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[(٢)]؛ فقوله: «**فَلْيَسْكُتْ**» امتناع عَنِ الكلام وقت الغضب، وقوله: «**فَلْيَجْلِسْ**» امتناع عَنِ الفعل وقت الغضب.

فهذان الأمران -الكلام والفعل- وقت الغضب مطلوبٌ مِنَ المسلم أن يكفَّ نفسه عنهما إلى أن يسكن غضبه؛ لأنَّه وقت انفعاله قد يباشر أقوالًا وأعمالًا تتنافى مع الأدب والخُلق؛ فيحتاجُ مَن أراد لنفسه أن يكون خَلوقًا ألَّا ينساق مع انفعالات النَّفس، ولا سيِّما وقت غضبه.

وقد جاء في بعض روايات الحديث: أَنَّ الصَّحابيَّ قال: «فتأمَّلْتُ ذلك فوجدْتُ أَنَّ الغضبَ جماعُ الشَّرِّ»؛ لأنَّه إذا كان ينساق مع انفعالاته ومع غضبه؛ سيفضي به ذلك إلى الوقوع في شرورٍ عظيمة لا تحمد عاقبتها.

الرُّكن الرَّابع -من أركان الأخلاق-: سلامة الصَّدر. قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٣)]، فهذا الحديث يُعدُّ عمدة في باب الأخلاق بأن يكون صدر المرء سليمًا لا يكون فيه غلٌّ، أو حقدٌ، أو سخائمُ، أو ضغائنُ، أو نحو ذلك من أسقام القلوب وأمراضها ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

فسلامة الصَّدر ركيزة عظيمة يقوم عليها الخُلُق، والَّذِي في صدره دواخل سيِّئة وبواطن فاسدة لا يمكن أن يكون من أهل الأخلاق؛ لأنَّ فسادَ

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٦)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٢٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

الباطن وانحرافه ينعكس على ظاهره «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

فإذا صلح قلب المرء وطابت سريرته مِنَ الدَّواخل السَّيِّئة والبواطن الفاسدة؛ فإنَّه بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سيتحقَّق فيه الخُلُق بأبهى صُوَره وأجمل حُلَله.

إنَّ الأدب في الشَّريعة له مكانته العليَّة ومنزلته الرَّفيعة، فإذا وُفِّق المسلم إلى معرفة آداب الإسلام وأخلاقه العظيمة، واستعان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على تحقيقها؛ نال خيرًا عظيمًا وفضلًا عميمًا في الدُّنيا والآخرة.

فما أحوج المسلم إلى دراسة أخلاق الإسلام الرَّفيعة وآدابه الكاملة، مع تصحيح النية في هذا المقام، إذِ النِّيَّة قد يشوبها ما يشوبها من أغراض وأمور تُخِلُّ بها، فإذا صُحِّحَتِ النِّيَّة بُورك في العمل.

وتصحيح النِّيَّة -هنا- أن ينوي بدراسته آداب الشَّريعة وأخلاق الإسلام أن يرفع عن نفسه جهل ما جهله منها، ثُمَّ يُجاهد نفسه على تحقيق هذه الآداب وعلى القيام بها ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، قال ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»[(٢)].

مستعينًا في ذلك بالله، طالبًا مدده وعونه وتوفيقه، ولذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحبِّه معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**» -فَقَالَ مُعَاذٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٢٦٦٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، قَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١)، وجاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**أَتُحِبُّونَ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟**» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قُولُوا: اللهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

فهذه الدَّعوة كما أنَّها يُؤتى بها أدبار الصَّلوات فهي -أيضًا- دعوةٌ مطلقةٌ يُؤتى بها في كُلِّ وقت، يَطلب العبدُ عون الله جَلَّ وَعَلَا في كُلِّ أحواله. ثُمَّ يعمل على نشر هذه الآداب بين النَّاس بأن يكون قدوةً لهم فيها، ثُمَّ بدعوتهم إليها.

حاصل ذلك: أن يحقِّق في هذا المقام خمسة أنواع مِنَ المجاهدة لنفسه:

أولًا: مجاهدتها على صلاح النِّيَّة وسلامتها. قال سفيان الثَّوريُّ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي، إِنَّهَا تَقَلَّبُ عَلَيَّ»(٣).

ثانيًا: مجاهدتها على تعلُّم هذه الأخلاق والآداب والإفادة من مصنَّفات أهل العلم في هذا الباب.

ثالثًا: مجاهدتها على تطبيق هذه الآداب والتَّحلِّي بهذه الأخلاق، فإنَّ المجاهد كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»(٤).

رابعًا: مجاهدتها على الدَّعوة إليها وبيانها ونشرها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصِّلت:٣٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ (١٣٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٧٩٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٨٤٤).
(٣) أخرجه الخطيب البغداديُّ في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (٦٩٢).
(٤) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٨)، والتِّرمذيُّ (١٦٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

خامسًا: مجاهدتها في ذلك كُلِّه على الاستعانة بالله، فإنَّ مَنِ استعان بالله أعانَه، ومَنْ توكَّل عليه كفاه.

ويَجمع هذا كلَّه قولُ نبيِّنا ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»[1]..

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢)

بِرُّ الْوَالِدَينِ

يأتي في صدارةِ الأخلاق ومقدَّمِها برُّ الوالدين؛ لأنَّهما أحقُّ النَّاس بالأدب وبحسن المعاملة وكريم الأخلاق والآداب، كيف لا؟ وقد قرن الله حقَّهما بحقِّه في أكثر من آية من كتابه عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولذا صدَّر الإمام البخاريُّ كتابه «الأدب المفرد» بأبواب عديدة في برِّ الوالدين؛ وهذه لفتة عظيمة منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّ الوالدين هما أحقُّ النَّاس بالأدب وحسن المعاملة، وكريم الأخلاق والآداب؛ وكأنّه يقول: يا مَنْ تقرأ آداب الشَّريعة العظيمة وأخلاق الإسلام الفاضلة، اعْلَمْ أنَّ أحقَّ النَّاس بهذه الآداب، وأولاهم بهذه الأخلاق هما الوالدان؛ لأنَّهُمَا

أحقُّ النَّاس بحُسْن الصُّحبة، وأولى النَّاس بالتَّعامل بالأدب الكريم والخُلُق الفاضل، والمسلم مطلوب منه أن يُعامل جميع عباد الله بذلك لكنِ الوالدان أحقُّ وأولى.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**». قُلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**». قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**». قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي، متَّفق عليه[(١)].

هذا فيه حرص الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على معرفة تفاضل الأعمال والمقدَّم منها، وحرصهم على معرفة ما تُنال به محبَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وأيُّ العمل أحبُّ إليه، وهو نابع عن شدَّة رغبتهم في الخير ومعرفة الأحبِّ والأفضل ليفعلوه ولينالوا بذلك محبَّة الله لهم. وقد كان من دعاء نبيِّنا ﷺ -فيما صحَّ عنه-: «**وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ**»[(٢)].

ويدلُّ الحديث على أنَّ شُعب الإيمان وخِصالَ الدِّين متفاوتة في الأفضلية، وليست على رتبة واحدة، كما قال ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[(٣)].

فالإيمان ذو شُعَب، منها ما هو أعلى، ومنها ما هو أدنى، والشُّعب الأعلى أحبُّ إلى الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ الشُّعب الأدنى، وكُلُّها حبيبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والتِّرمذيُّ (٣٢٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥) واللَّفظ له.

وقد قرن النَّبيُّ ﷺ في صدر الأعمال الأحَبِّ إلى الله بين الصَّلاة الَّتِي هي حقُّ الله على عباده، وبِرِّ الوالدين، نظير الآيات الَّتِي سبقت الإشارة إليها والَّتِي قرن الله عَزَّوَجَلَّ فيها حقَّ الوالدين بحَقِّه.

وقد قدَّم حقَّ الوالدين على الجهاد، وهذا فيه تنبيه إلى اشتراط رضاهُما وإِذْنِهِمَا في الجهاد، كما قال ﷺ: «**لَكَ أَبَوَانِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»(١)، فحَقُّ الوالدين حقٌّ عظيم، وبِرُّهُما أمرٌ متأكِّدٌ.

والـبِـرُّ: كلمة جامعة تتناول جميع صنوف الإحسان، وكريم المعاملات، وطيِّب الأخلاق، وأن يُحسن إليهما بالمعاملة، وبالقول، وباستعمال الأدب، والخلُق، وبالطَّاعة، وبالبعد عَنِ العقوق.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

هذا الحديث نظير الحديث الَّذِي قبله، ففيه الجمع بين حقِّ الله سبحانه وحَقِّ الوالدين، وأنَّ رضا الله تَبَارَكَوَتَعَالَى في رضا الوالدين وسخطه تَبَارَكَوَتَعَالَى في سخط الوالدين، بمعنى أنَّ مَنْ أرضى والديه فقد أرضى الله، ومَنْ أسخطهما فقد أسخط الله.

فالوالد يُطلب رضاه ويُبتعد عن سخطه، ولا يعني هذا أن يُطاع إذا أمر بالمعصية، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان:١٥]، لكن مع هذا الحال المسلم مطلوب منه أن يحصِّل رضا والديه بمصاحبتهما بالمعروف، وبالأخلاق الفاضلة والإحسان، والكلام الجميل، مع

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٧٢) واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٤٩).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٨٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الامتناع عن فعل المعصية الَّتِي يدعوانه إليها.

وعن بَهْزِ بن حَكِيم، عن أبيه، عن جدِّه قَالَ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ: «**أُمَّكَ**». قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أُمَّكَ**». قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمَّكَ». قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ**»، رواه أبو داود[(١)].

في هذا الحديث ترغيبٌ في برِّ الأُمِّ، وحثٌّ عليه، وبيانٌ للحقِّ الخاصِّ الَّذِي جعله الله تعالى للأُمِّ مزيدًا على الأب؛ لأنَّه جعل للأُمِّ ثلاثةَ أمثالِ ما للأب مِنَ البرِّ، وهذا يدلُّ على أنَّ للأُمِّ مزيدَ خصوصيَّةٍ في الْبِرِّ وأحقِّيَّةً به؛ لأنَّ المعاناةَ و المكابدةَ والجهدَ الَّذِي حصل للأُمِّ في وجود الولد لم يحصل للأب ولا لغيره مثله.

فهذا الصَّحابيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل عَنِ الأحقِّيَّة والأولويَّة في الْبِرِّ، مَنْ أبَرُّ؟ أي: مَنْ أولى النَّاس وأحقُّهم ببرِّي وإحساني؟ ومراعاةُ الأولويَّة في الأعمال بابٌ شريفٌ مِنَ العلم، إذا لم يوفَّق إليه العبد فرُبَّمَا ينشغل في أمور أقلّ من غيرها، ويدع أمورًا عِظَامًا مهمَّةً أجلَّ مِمَّا هو منشغلٌ به.

وقد ذكر النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برَّ الأُمِّ ثلاثَ مرَّاتٍ، والصَّحابيُّ يعيد السُّؤال: «مَنْ أبَرُّ؟»؛ طلبًا لمعرفة المزيد مِمَّن لهم الأَوْلَيَّة في الْبِرِّ، وفي كُلِّ ذلك يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أُمَّكَ**»، ثُمَّ قال في المرَّةِ الرَّابعة: «**أباك**».

وفي هذا: التَّأكيدُ على عِظم مقام الأُمِّ وأحقِّيَّتِها بالْبِرِّ؛ ولهذا فالآيات الَّتِي فيها الوصيَّة بالوالدين تُذكر فيها كُلِّها معاناةُ الأُمِّ، ولا تُذكر معاناةُ الأب؛ لأنَّ المعاناة الَّتِي حصلت للأُمِّ في وجود الولد لم يكن مثلُها ولا قريبٌ منها للأب، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٩)، والتِّرمذيُّ (١٨٩٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤].

ولو تأمَّل المرءُ في الآيتين السَّابقتين لرأى فيهما تنبيهًا لهذا المعنى؛ لأنَّ الأُمَّ حصل لها **ثلاثةُ أمور عظيمة لم تحصل للأب**:

الأمر الأوَّل: الحَمْل وثقلُه.

والأمر الثَّاني: الوَضْع وشدَّتُه.

والأمر الثَّالث: الرَّضاعة ومعاناتُها.

فهذه الأمور الكبيرة العظيمة الثَّلاثة قد حصلت للأُمِّ دون الأب؛ ولهذا كان لها ثلاثُ أمثال ما للأب مِنَ الْبِرِّ كما هو واضحٌ في هذا الحديث، وفي أحاديث أخرى عَنِ النَّبِيِّ الكريم ﷺ.

ثُمَّ في الآيتين تنبيه مهم للغاية يُعين على تحقيق الْبِرِّ، أَلَا وهو: تذكُّر الجميل السَّابق، والمعروف المتواصل الَّذِي كان مِنَ الوالدين، ومِنَ الوالدة على الوجه الأخصِّ، فتذكُّر ذلك يُعين على الْبِرِّ، والغفلةُ عن ذلك وإهمالُه يفضي إلى العقوق.

فتذكُّرُ هذه المصاعب والشَّدائد الَّتِي حصلت للأُمِّ واستحضارُها يُعينُ المرءَ على تحقيق برِّها، فإذا غفلَ الإنسانُ عن هذه المعاني وانشغلَ عنها؛ ضَعُف فيه جانب الْبِرِّ وقَرُبَ مِنَ العقوق شيئًا فشيئًا.

ولذا في النَّاس مَنْ قد يُحْسِن المعاملةَ مع رفقائه وزملائه وأقرانه ومَنْ يتعامل معهم، فيُخاطبهم بالآداب والتَّلطُّف في الحديث، لكنَّه لا يُحْسِنُ شيئًا من ذلك مع والدته مع أَنَّهَا هي الأحقُّ، بل يوجد مَن يعقُّ والديه وهما أحقُّ بحسن المعاملة، ويكون مع عقوقه لوالديه معاملًا

للآخرين بالمعاملة الطَّيِّبة، والآداب الفاضلة.

وقوله: «**ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ**»؛ فيه التَّنبيه على مراعاة حَقِّ القرابة، الأدنى فالأدنى، والأقرب فالأقرب، وإذا كانَتِ الأُمُّ أحقَّ بالبرِّ مِنَ الأب؛ ففي جانب الأقارب -أيضًا- يقول النَّبيُّ ﷺ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**»، رواه البخاريُّ(١)؛ فلها أحقِّيَّةٌ خاصَّةٌ.

ومن عجيب هذا الأمر: أَنَّ الخالةَ تجد في نفسها مِنَ الاهتمام والمتابعة والسُّؤال عن أبناء أختها شيئًا كبيرًا، وإذا كانت قريبة المسكن منها، تبادلُهَا التَّعاونَ على التَّربية والإصلاح، وتُحسُّ أَنَّهُم أبناؤها، ولهذا يقول ﷺ: «**الخَالَةُ أُمٌّ**»، رواه أبو داود(٢)، فَلَهَا أحقِّيَّةٌ بالْبِرِّ والصِّلة والإحسان خاصَّةٌ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَى رَجُلٌ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «**بِرَّ أُمَّكَ**»، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: «**بِرَّ أُمَّكَ**»، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: «**بِرَّ أُمَّكَ**»، ثُمَّ عَادَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «**بِرَّ أَبَاكَ**»(٣).

هذا نظير حديث بَهْزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه، الَّذِي فيه ذكر برِّ الأُمِّ ثلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ ذكر في المرَّةِ الرَّابعة برَّ الأَبِ، وهما يدُلَّانِ على أَنَّ الأبَ مقدَّمٌ على غيره في الْبِرِّ وحُسْنِ الصُّحْبَة، وأَنَّ منزلَتَه في الْبِرِّ تلي منزلَةَ الوالِدَةِ.

وعن عطاء بن يسار، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٢٥١،٢٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٧٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢١٨)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: تُبْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ. فذهبتُ، فسألتُ ابنَ عبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ»(١).

هذا الأثر العظيم فيه بيان أحقِّيَّة الأُمِّ بالْبِرِّ والإحسان، وعِظَمِ هذا الأمر وأهميَّته وجلالة قدره، وما يترتَّبُ عليه من تكفير السَّيِّئات ومغفرة الذُّنوب، ونيل رضا الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فهذا رجلٌ أتى ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي» أي: لم تقبل به زوجًا لها، «وَخَطَبَهَا غَيْرِي فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنكِحَهُ» أي: قبلت ورضيت به زوجًا لها.

قال: «فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا»، وهذا يدُلُّ على خُطُورة الغيرة إذا لم تكن منضبطةً بضوابط الشَّرع، ومقيَّدةً بقيود الكتاب والسُّنَّة؛ فإنَّها إذا كانت هكذا مطلقةً على عواهنها فإنَّها تفعل بالمرء الأفاعيل؛ فتارةً تُدخله في الظُّنون والشُّكوك والأوهام الكاذبة والخاطئة وتخوين الأهل، وتارةً تصل به إلى القتل بغير حَقٍّ -كما هو الحال هنا- وقد تصل به إلى أمور أخرى خطيرة، فالغيرة لا بد أن تُضبط بضوابط الشَّريعة ولا تُترك هكذا غيرُ منضبطةٍ.

قوله: «فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟» فيه دلالة على أنَّ الواجبَ على المرءِ مهما كان ذنبه ألَّا ييأس من رحمة الله، وأنَّ عليه المبادرةَ إلى سؤال أهل العلم، والله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل:٤٣]؛ لأنَّ مَنْ وقع في الذَّنب وثقلت عليه خطيئته، وأراد الخلاص منها قبل

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أن يَلقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها وسأل غيرهم ورَّطوه، ورُبَّمَا قنَّطوه، فعليه ألَّا يسأل إلَّا أهلَ العلم. فهذا الرَّجُل السَّائل قد وُفِّق في سؤال حَبْرِ الأُمَّةِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وكُلُّنَا يذكر قِصَّة الرَّجُلِ الَّذِي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثُمَّ جعل يسأل: هل له من توبة؟ فأتى راهبًا -ليس بعالمٍ ولا فقيهٍ- فسأله. فقال: ليس لك توبة، فقتله وكمَّل به المائة. ثُمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنَّه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَنْ يحول بينه وبين التَّوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنَّ بِهَا أناسًا يعبدون الله، فاعْبُدِ اللهَ معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنَّهَا أرض سوء.

فبصَّره ونصحه ودلَّه إلى طريق التَّوبة ولم يُقَنِّطْه، فماذا كان؟! انطلق ذلك الرَّجُلُ إلى تلك الأرض الَّتِي أوصاه بها ذلك العالم تائبًا إلى الله، حَتَّى إذا نصف الطَّريق أتاه الموت.

فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرَّحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنَّه لم يعمل خيرًا قَطُّ. فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدميٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيَّتِهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض الَّتِي أراد، فقبضته ملائكة الرَّحمة.

قول ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أُمُّكَ حيَّةٌ؟»؛ أي: هل أمُّكَ على قيد الحياة؟ لأَنَّهَا ثروة عظيمة في باب رفع الدَّرجات وتكفير الذُّنوب.

أثار قوله: «أُمُّكَ حَيَّةٌ؟» تساؤلًا عند عطاء بن يسار -الرَّاوي عَنِ ابن عبَّاس- لكنَّه تريَّث حَتَّى وجد الوقت مناسبًا فسأله، كما سيأتي.

قال الرَّجُل: لا، فلم يُقَنِّطْه أيضًا، بل قال له: «تُبْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ»، فهذا شأن أهل العلم والفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ: أَنَّهُم لا يُقنِّطُون النَّاس مِنَ

التَّوبة مهما كان الذَّنب ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

سأله في هذا المقام: هَلْ أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ لأَنَّ مقامَ الحسنات الَّتِي ينالها العبد في برِّه لأُمِّه ترفعه درجاتٍ عَلِيَّةً عند الله، وتُكَفِّرُ عنه ذنوبًا وسيِّئاتٍ كثيرةً.

قولُه: «تُبْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتقرَّب إليه ما استطعت»، هذا فيه بيانُ المسلك الصَّحيح للتَّوبة ونيل غفران الذُّنوب، **فَلَا بُدَّ فيه من أمرين:**

الأمر الأوَّل: التَّوبة الصَّادقة لله عَزَّوَجَلَّ مِنَ الذَّنبِ بالنَّدم عليه، والإقلاع عنه والعزم على عدم الرُّجوعِ إليه.

الأمر الثَّاني: الإكثار مِنَ الحسنات؛ ولذا قال: «وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ»؛ أي: بالحسنات؛ لأَنَّ ربَّ العالمين جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الحديث يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[(١)].

فنصحه أنْ يَصْدُق مع الله عَزَّوَجَلَّ في توبته من ذنبه الَّذِي اقترفه وفعله، وأن يُقْبِل على الحسنات؛ لأَنَّ الحسنات يُذهبْنَ السَّيِّئاتِ.

قول عطاء: «فَذَهَبْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ»؛ فيه أناة السَّلف، فلم يستعجل عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أَنَّ الموضوع أخذ مِنِ اهتمامه مَأْخذًا عَظِيمًا، وهذا بخلاف ما يحصل من بعض النَّاس حين لا يملك نفسه ويُقاطع العالِم، ورُبَّمَا أوقف حديثه ليسأل عن أَمْرٍ أَشْكَل عليه.

قال: فسألتُ ابن عبَّاس: لِمَ سألته عن حياة أُمِّهِ؟ فقال: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ». فهذا يدلُّ على ما في برِّ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الوالدة من عظيم الثَّواب، ومنزلة هذا العمل ومكانته عند الله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا واضح في القرآن، فالله عَزَّ وَجَلَّ عظَّم من شأن برِّ الوالدين في كتابه، وقرن حقَّهُمَا بحَقِّه في آيات عديدة؛ فدَلَّ هذا على المكانة العظيمة، والمنزلة الرَّفيعة الَّتِي جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ لِبرِّ الوالدين، وأَنَّ برَّ الوالدة على وجه الخصوص والإحسانَ إليها يترتَّبُ عليه من تكفير السَّيِّئات ورفع الدَّرجات شيئًا لا يكون في الأعمال الأخرى، ولهذا قال: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ».

وعَنِ ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ وَالِدَانِ مُسْلِمَانِ يُصْبِحُ إِلَيْهِمَا مُحْسِنًا، إِلَّا فَتَحَ لَهُ اللهُ بَابَيْنِ -يَعْنِي: مِنَ الْجَنَّةِ- وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَوَاحِدٌ، وَإِنْ أَغْضَبَ أَحَدَهُمَا لَمْ يَرْضَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ»، قِيلَ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ؟ قَالَ: «وَإِنْ ظَلَمَاهُ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١)، وابن الجوزيِّ في «البرِّ والصِّلة». وبوَّب له البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «بَاب بِرِّ وَالِدَيْهِ وَإِنْ ظَلَمَا»(٢).

فالواجب على الابن أن يكون بَرًّا بهما، وأن يتحاشا إغضابهما، والإساءة إليهما، ورفع الصَّوت عليهما حَتَّى وإن كانا بهذه المنزلة -أي: ظالمين-.

قوله: «يُصْبِحُ إِلَيْهِمَا مُحْسِنًا» المعنى: أَنَّهُ يصبح كُلَّ يوم محسنًا إلى والديه، وهذا فيه استقبالُ اليوم من أوَّله بالإحسان إلى الوالدين، وجعلُ بِرِّهِمَا من أولى أولوِيَّاته في أوَّل يومه وبداية نهاره، وهذا من أسباب التَّوفيق للعبد في يومه كُلِّه؛ إذا بدأ اليوم

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧).
(٢) الأدب المفرد (ص:١٦).

ببرِّ والديه، وحُسن المعاملة، وطِيب الخطاب.

وكم هو جميل أن يُربَّى الصِّغار -خاصَّة- عندما يوقَظون في الصَّباح الباكر من نومهم، فيكون الواحد منهم متعبًا أو مائلةً نفسه إلى مزيد مِنَ النَّوم، فيتمنع ويكون تمنعه بألفاظ غيرِ مناسبة، فيُعوَّدَ ألَّا يُسمِع والديه كلمةً غيرَ مناسبةٍ، وأيضًا يعينه والداه على ذلك بأن يوقظاه برحمة ورفق، ورحم الله امْرَءًا أعان وَلَدَه على بِرِّهِ.

قولُه: «قِيلَ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ؟ قَالَ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ»؛ أي: أنَّ الواجبَ على الابن حَتَّى وإن كان صدر من أبيه نحوه شيءٌ مِنَ الظُّلم أَوِ الخطأ أَوِ التَّجاوز، أو من أُمِّه كذلك؛ فعليه ألَّا يلتفت إلى خطأ الوالدين، بل يجب عليه أن يتذكَّر المعروف العظيم والإحسان الكبير الَّذِي حصل له من والديه، ومِنَ الوالدة على الوجه الأخصِّ، وألَّا ينسى هذا المعروف العظيم بسبب خطأ أَوِ اثنين أو ثلاثة من والديه، بل عليه أن يكون ذاكرًا دائمًا معروفهما السَّابق وجميلهما المتواصل.

وعن طَيْسَلَةَ بْنِ مَيَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّجَدَاتِ، فَأَصَبْتُ ذُنُوبًا لَا أَرَاهَا إِلَّا مِنَ الْكَبَائِرِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عُمَرَ قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ مِنَ الْكَبَائِرِ، هُنَّ تِسْعٌ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ نَسَمَةٍ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَإِلْحَادٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَالَّذِي يَسْتَسْخِرُ، وَبُكَاءُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْعُقُوقِ. قَالَ لِيَ ابْنُ عُمَرَ: أَتَفْرَقُ النَّارَ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قُلْتُ: إِي وَاللهِ، قَالَ: أَحَيٌّ وَالِدُكَ؟ قُلْتُ: عِنْدِي أُمِّي، قَالَ: فَوَاللهِ لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ، رواه البخاريُّ في

«الأدب المفرد»[(١)].

هذا الأثر العظيم فيه فائدةٌ جليلة في موضوع برِّ الوالدين وفي موضوعات أخرى، و«النَّجَدات»: فرقة من فرق الخوارج، يتبعون رجلًا يُقال له: نَجدَة بن عامر، أُطلق عليهم النَّجدات لانتسابهم إليه. ولها عقائد فاسدة منها: أَنَّ العبد إذا وقع في صغيرة وأصرَّ عليها كان كافرًا مشركًا، وإذا وقع في كبيرة فهو كافر مشرك، فكان عندهم شدَّة وتنطُّع في الصَّغائر والكبائر.

وبسبب ارتباط طيْسَلة بهم فقد تأثَّر بما كانوا عليه مِنَ التَّشدُّد والتَّعنُّت، وتوهَّم في بعض الأمور الَّتِي هي مِنَ الصَّغائر أَنَّها مِنَ الكبائر؛ لأَنَّه قد مضى في مَنْهَجٍ مَعَ نَفْسِهِ فيه شدَّةٌ اكتسبها من مصاحبته لهؤلاء.

قولُه: «فَأَصَبْتُ ذُنُوبًا لَا أَرَاهَا إِلَّا مِنَ الْكَبَائِرِ» وهي ليست مِنَ الكبائر -كما سيأتي التَّوضيح- وهذا فيه أنَّ الصَّاحب له تأثيرٌ على صاحبه؛ فمن صحِب متشدِّدًا متنطِّعًا في دين الله؛ أورثه الشِّدَّة، ومَن صحِب مفرطًا مضيِّعًا؛ أورثه الإهمال، ودين الله وسط، فينبغي على المرء أن يختار مِنَ الأصحاب والرُّفقاء مَنْ كان على الوسطيَّة؛ فلا شدَّة وتعنُّت ولا تهاون وتراخٍ، لا غلوَّ ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط.

قوله: «فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عُمَرَ» ذِكْرُ هذا الأمر لابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا هو من توفيق الله له؛ لأَنَّ عرض المشكلة على العالِم يُعدُّ من أبواب التَّوفيق.

وقد كان من مبدأ الخوارج في قديم الزَّمان وحديثه: الحيلولةُ بين أتباعهم وبين العلماء؛ فهم يحرصون أشدَّ الحرص على أن يبعدوا أتباعهم عن سؤال أهل العلم، وعَنِ الارتباط بهم من خلال ألقابٍ

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

شنيعة يُطلقونها على العلماء يُنَفِّرُون بها أتباعهم منهم.

قال: «فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عُمَرَ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: كَذَا وَكَذَا»؛ أي: أَنَّه سمَّى الذُّنوبَ الَّتِي كان يظُنُّهَا مِنَ الكبائر.

قال له ابن عمر: ليست هذه مِنَ الكبائر، ثُمَّ عدَّد له الكبائر وذكر منها: «بُكَاءُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْعُقُوقِ»، فعدَّ عقوقَ الوالدين من كبائر الذُّنوب.

قولُه: «قَالَ لِيَ ابْنُ عُمَرَ: أَتَفْرَقُ النَّارَ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟»؛ أي: تخاف أن يعذِّبك الله بالنَّار يوم القيامة، وتأْمَلُ وتُحِبُّ أن تدخلَ الجنَّة؟ جمع له بين التَّرغيب والتَّرهيب، وهي طريقة القرآن تُذكَر فيه الجنَّة ويليها ذكر النَّار، وتذكر المغفرة ويليها ذكر العذاب ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

قال: «قُلْتُ: إِيْ وَاللهِ»، و«إي» بمعنى: نَعَمْ والله، أريد ذلك.

«قَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟»، وهذا نظير قول ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا المتقدِّم: «أُمُّكَ حيَّةٌ؟».

«قُلْتُ: عِنْدِي أُمِّي، قَالَ: فَوَاللهِ لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ».

دعاه إلى أمرين تجاه الوالدة:

❁ أن يُلين لها الكلام. وهذا أهمُّ ما تحتاجه الأُمُّ من ولدها، وكثير من الأمَّهات تكون في غُنية عن أن يُعطيها ابْنُها مالًا، أو طعامًا، أو مسكنًا، بل رُبَّمَا تكون هي الَّتِي تنفق عليه.

❁ وأن يُطعمها الطَّعام بِنَفْسٍ طيِّبة ولطف وإحسان.

قولُه: «ما اجتنبتَ الكبائِرَ»، وهذا فيه أَنَّ الكبائر لا بُدَّ فيها مِنَ

التَّوبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»، رواه مسلم[(١)]، فهذه فرائض عظيمة، ومع ذلك فقد اشترط النَّبِيُّ ﷺ لتكفيرها الذُّنوبَ؛ اجتنابَ الكبائر والتَّوبةَ منها.

الشَّاهد من هذا الأثر هو: عظمُ شأن برِّ الوالدة، ولين الكلام لها، والإحسان إليها، وأَنَّ هذا من أعظم أسباب دخول الجنَّة. وللحديث صلة.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٣)

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ

لا يزال الحديث موصولًا عن برِّ الوالدين، والوالدة على وجه الخصوص.

فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ** -ثَلَاثًا- **إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ**»، رواه ابن ماجه[(١)].

كرَّر ﷺ الوصيَّة بالأُمَّهات ثلاث مرَّاتٍ لمزيد التَّأكيد على عِظَمِ حقِّهِنَّ لتعبهنَّ وإحسانهنَّ ومقاساةِ المشاقِّ في الحمل والوضع والرَّضاع والتَّربية، ثُمَّ قال في الرَّابعة: «**إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ**» لِمَا لهم مِنَ التَّربية والإحسان، وأَنَّ ذلك التَّأكدَ دون تأكُّدِ حَقِّ الأُمَّهات.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ يُبايعُهُ على الهجرة، وَتَرَكَ أَبَوَيْهِ يَبْكِيَانِ، فقال: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا، وَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا**»، رواه أبو داود[(٢)].

من جزاء الوالدين أن يكون الولد دائمًا مدخلًا السُّرور عليهما؛ فلا يفعل أمرًا يحزنهما، أو يكدِّر صفوهما، أو يسبب بكاءهما وتألُّمَهُمَا،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

بل يكون حريصًا دائمًا على إدخال السُّرور على قلبيهما، ويبحث عن أيِّ أمرٍ يفرحهما ليفعله.

فهذا الرَّجُل جاء إلى المدينة مهاجرًا، وطلب أن يبايع النَّبيَّ ﷺ على الهجرة إليه، والمبايعةُ أن يعقد العهدَ مع الرَّسول ﷺ على أن يبقى على هذا الأمر، ويثبت عليه، ولا يتخلَّى عنه، وقد قال ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»، متَّفق عليه[(١)].

قولُه: «وَتَرَكَ أَبَوَيْهِ يَبْكِيَانِ»؛ أي: تركهما يبكيان حزنًا على فراقه.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا، وَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا**» فمن جزاء الوالد وحَقِّه على ولده مكافئةً له على إحسانه؛ أن يكون دائمًا حريصًا على إدخال السُّرور عليه، ولهذا إذا أراد أن يرحل لطلب علمٍ مثلًا، أو لتحصيل تجارة، أو نحو ذلك؛ فلا يرحل ويترك أبويه يبكيان عليه، بل لا يكون ذلك إلَّا بعد التَّشاوُر معهما، ومراعاة حالهما، وطلب المسامحة منهما والإذن.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»، متَّفق عليه[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ: إِنْ كَانَ لَكَ أَبَوَانِ فَأَبْلِغْ جهْدَكَ فِي بِرِّهِمَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقُومُ لَكَ مَقَامَ قِتَالِ الْعَدُوِّ»[(٣)].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٤،١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).
(٣) فتح الباري، لابن حجر العسقلانيِّ (١٠/ ٤٠٣).

مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ؟**» قَالَ: أَبَوَايَ. قَالَ: «**أَذِنَا لَكَ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ، وَإِلَّا فَبِرَّهُمَا**»(١).

فيه دليل على أَنَّهُ يجب استئذان الأبوين في الجهاد، وتحريمه إذا مَنع منه الأبوان، أو أحدُهما؛ لأَنَّ برَّهما فرضُ عينٍ، والإحسانَ إليهما من أعظم الجهاد، وقد تقدَّم تسمية النَّبِيِّ ﷺ له جهادًا.

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ: أَنَّ جَاهِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا**»، رواه النَّسائيُّ(٢).

أي: مَن بَرَّ أُمَّه، وقام بحقِّها؛ دخل الجنَّة.

وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَابَ أَوِ احْفَظْهُ**»، رواه التِّرمذيُّ(٣).

أي: خير الأبواب وأعلاها، والمعنى: أنَّ أحسنَ ما يُتوسَّل به إلى دخول الجنَّة ويُتوسَّل به إلى وصول درجاتها العالية؛ طاعةُ الوالد ومراعاةُ حقِّه، وإذا كان شأن الوالد هذا فشأن الوالدة أعظم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ**»، رواه أبو داود(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٢١)، وأبو داود (٢٥٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٣١٠٤)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٠٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه أبو داود (٥١٣٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فيه عِظَمُ جزاء الوالدين، وأنَّ الولدَ مهما بذل مِنَ الإحسان والمعروف، ومدِّ يد الخدمة والمعونة لهما؛ فإِنَّهُ لا يلحق جزاء والديه في باب المكافأة لهما إلَّا في مثل هذه الحال الَّتِي ذكرها النَّبِيُّ ﷺ في الحديث.

«**لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ**» أي: لا يمكن أن يلحق مكافأته على معروفه وإحسانه «**إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا**»؛ أي: يجد والده رقيقًا «**فيشتَرِيَهُ فيعتقَهُ**»؛ أي: يشتريه بماله ويُعتقه، ففي مثل هذه الحالة وهي شراء الوالد وإعتاقه يلحق جزاءه، وما سوى ذلك فإِنَّه مهما قدَّم مِنَ المعروف لوالده لا يلحق جزاءه.

وعن سَعِيد بْن أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلْ ... إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُها لَمْ أُذعِرْ

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ، أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: لَا، وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»(١).

فهذا الرَّجل اليمانيُّ قد حمل أُمَّه على ظهره، وأخذ يطوف بها بيت الله الحرام؛ لأَنَّهَا عاجزة لا تستطيع المشي على قدميها، ويقول:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلْ ... إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُها لَمْ أُذعِرْ

أي: أَنَّهُ جعل نفسه لأُمِّهِ بمثابة البعير، ويُنشد هذه البيت الَّذِي يدُلُّ على أَرْيَحِيَّةِ نفسه، وطيبِ خاطره بهذا العمل الجليل الَّذِي يقوم به، فهو يقوم بهذا العمل بغاية مِنَ الرَّاحة والأُنْس، وقد عبَّر بهذا البيت عمَّا في قلبه مِن حرصٍ على خدمة أمِّه، وعَنِ اعتزازه وفرحه وسروره بذلك.

قال: «إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلْ»؛ البعير المذلَّل: هو السَّهل الَّذِي ليس فيه صعوبةٌ ولا حزونةٌ. والمعنى: أنا لوالدتي بمثابة البعير الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١).

ذُلِّل لراكبه، وأصبح سهلًا لينًا.

«إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُها»؛ أي: إن خافت ركابها وشردت «لم أُذعِرْ»؛ أي: لم يحصل لي شيء من ذلك، بل أنا مطمئنُّ النَّفس، طيِّب الخاطر، مرتاح الفؤاد لهذا الأمر، وهو بذلك يسعى سعيًا حثيثًا لردِّ جميلها السَّابق وإحسانها المتواصل.

قولُه: «قال: لا»؛ أي: مهما بذل الابن مِنَ الخدمة لوالديه، ومهما قدَّم لهما مِنَ المساعدة فلا يمكن أن يلحق جزاءهما ومعروفهما العظيم.

قولُه: «وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ»؛ أي: أنَّ هذا لا يُعادل زفرة واحدة من زفرات الوالدة عندما كانت تعاني شِدَّة الوضع، فقد تُشرف على الموت من معاناة الطَّلْق والوضع وشدَّتِه.

ونظير هذه القِصَّة: ما رواه ابن أبي الدُّنيا في «مكارم الأخلاق» عن معاوية بن صالح قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أُمِّي عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، أَنَا مَطِيَّتُهَا، أَجْعَلُهَا عَلَى ظَهْرِي، وَأَنْحَنِي عَلَيْهَا بِيَدِي، وَأَلِي مِنْهَا مِثْلَ مَا كَانَتْ تَلِي مِنِّي، أَوَ أَدَّيْتُ شُكْرَهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لِمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: إِنَّكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِهَا وَأَنْتَ تَدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُمِيتَهَا، وَكَانَتْ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِكَ وَهِيَ تَدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُطِيلَ عُمْرَكَ»(١).

ففرقٌ بين الخدمتين، ومهما قدّم الابن فلا يمكن أن يصل إلى ما قاسته الوالدة عنايةً بولدها، وهي تحسن إليه، وتعطف عليه، وتتمنَّى أن يعيش العمر الطَّويل، وتتعب لأجله، وتسهر لسهره، وتمرض لمرضه، وكم من مَرَّةٍ سهرت لتعب ولدها وألمه أو لجوعه، فكيف يليق به إذا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (٢٢١).

كَبِرَ أن ينسي هذا المعروف كلَّه؟!.

وعلى كلٍّ فإنَّ الولد لا يلحق جزاء والدته مهما قدَّم لها، ولا يعني هذا أن يتراخى عَنِ الْبِرِّ والإحسان، بل هذا يستلزم جِدًّا واجتهادًا وبذلًا لكُلِّ ما يستطيعه الولدُ من خدمةٍ، وإحسانٍ، ولطفٍ، ورفقٍ... إلى غير ذلك من أنواع الْبِرِّ الَّتِي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها، ودعا إليها تجاه الوالدين.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] قال: «لَا تَمْتَنِعْ مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّاهُ»(١).

هذا التَّفسير يسميه أهل العلم: تفسير الشَّيء ببعض أفراده؛ لأَنَّ قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يتناول أفرادًا كثيرة من أنواع خفض الجناح؛ ومن ذلك ألَّا يمتنَّع من شيءٍ أحبَّاه مِمَّا ليس فيه معصية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فمِنْ تحقيق قولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ألَّا يمتنَّع من شيءٍ أحبَّاه، ويدخل في ذلك لينُ الكلام، وحُسْنُ المعاملة، والسَّمعُ والطَّاعةُ في غير معصية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إلى غير ذلك من أنواع الْبِرِّ مِمَّا هو داخل في الآية.

وعَنْ أَبِي مُرَّةَ مَوْلَى عَقِيلٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَسْتَخْلِفُهُ مَرْوَانُ، وَكَانَ يَكُونُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَكَانَتْ أُمُّهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ فِي آخَرَ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ وَقَفَ عَلَى بَابِهَا فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا أُمَّتَاهُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَتَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا بُنَيَّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَيَقُولُ: رَحِمَكِ اللهُ كَمَا رَبَّيْتِنِي صَغِيرًا، فَتَقُولُ: رَحِمَكَ اللهُ كَمَا بَرَرْتَنِي كَبِيرًا،

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ثُمَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ صَنَعَ مِثْلَهُ، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

مِن بِرِّه بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كُلَّما خرج من بيته وقف على بابِها فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا أُمَّتَاهُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ» يُلقي السَّلام كاملًا، ويناديها بهذه المناداة الجميلة، والأُمُّ سُمِّيَت أُمًّا لأَنَّهَا أصل الولد، فهو فرع منها، وأُمُّ الشَّيء أصله.

وإلقاء السَّلام كاملًا مستحبٌّ في حقِّ كُلِّ مسلم، لكنَّه في حقِّ الوالدة آكد؛ لأَنَّهَا أحَقُّ بحسن الصُّحْبة.

ثُمَّ لم يكتفِ بهذا بل يدعو لها: «رَحِمَكِ اللهُ كَمَا ربَّيْتِنِي صَغِيرًا»؛ لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو بهذه الدَّعوة بلفظها كما وردت في القرآن، وذِكْر تربيتهما له صغيرًا في التَّرحُم عليهما له مقصد جليل؛ لأَنَّ ذِكر الجميل السَّابق يُثمر الصِّدق في الدُّعاء، والقوَّة في الإلحاح.

قولُه: «ثُمَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ صَنَعَ مِثْلَهُ»؛ أي: في كُلِّ دخول وخروج يُلقي السَّلام على أُمِّه كاملًا، ويدعو بهذه الدَّعوة، وهذا مِن حُسْنِ بِرِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأُمِّهِ.

وعَنْ أَبِي حَازِمٍ، أَنَّ أَبَا مُرَّةَ، مَوْلَى أُمِّ هَانِئِ ابْنَةِ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ رَكِبَ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَرْضِهِ بِالْعَقِيقِ فَإِذَا دَخَلَ أَرْضَهُ صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «عَلَيْكِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ يَا أُمَّتَاهُ»،

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢).

تَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، يَقُولُ: «رَحِمَكِ اللهُ! رَبَّيْتِنِي صَغِيرًا»، فَتَقُولُ: يَا بُنَيَّ، وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا وَرَضِيَ عَنْكَ كَمَا بَرَرْتَنِي كَبِيرًا»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

العقيقُ: وادٍ معروفٌ غرب المدينة، وكانت أرض أبي هريرة هناك، وكانت أُمُّهُ -أيضًا- هناك.

قوله: «فَإِذَا دَخَلَ أَرْضَهُ صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: عَلَيْكِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ يَا أُمَّتَاهُ»، وهذا نظير الَّذي قبله في حرصه على برِّ أُمِّهِ ووصلها.

وعن محمد بن سيرين قال: كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْلَةً، فَقَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَلِأُمِّي، وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُمَا» قَالَ لِي مُحَمَّدٌ: فَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ لَهُمَا حَتَّى نَدْخُلَ فِي دَعْوَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

هذا الدُّعاءُ من أبي هريرة لأُمِّهِ هو مِنَ الْبِرِّ والإحسانِ إليها، وفيه استنهاضٌ للهمم بتخصيصهما بدعاء زائد على ما هما مشمولان به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، ولذا قال محمد بن سيرين: «نَحْنُ نَسْتَغْفِرُ لَهُمَا؛ حَتَّى نَدْخُلَ فِي دَعْوَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ»، غفر الله لأبي هريرة، ولأُمِّهِ، وللمؤمنين والمؤمنات.

لقد كان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مضرب مثلٍ في برِّه لأُمِّهِ، وله في ذلك قصص عديدة تدلُّ على عظيم بِرِّه بها، وأعظمُ برٍّ كان منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بها:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعله سببًا لإسلامها ودخولها في هذا الدِّينِ، فقد كان حريصًا أشدَّ الحرص على إسلام أُمِّهِ، وكان يتألَّمُ لبقائها على الكفر، ويحاول مَرَّةً تِلْوَ الأخرى دعوتها للإسلام دين نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، فكانت تُسْمِعُه في النَّبِيِّ ﷺ ما يكره، فيتألَّمُ لذلك، إلا إنه واصل دعوتها إلى الإسلام إلى أن منَّ الله عليها فأسلمت.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**».

فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا، وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، ففَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبْشِرْ، قَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا** -يَعْنِي: أَبَا هُرَيْرَةَ- **وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمِ الْمُؤْمِنِينَ**» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي

وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي، رواه مسلم(١).

إنَّ مِن أعظم الْبِرِّ بالأب والأُمِّ إذا كانا -أو أحدُهما- على الكفر والشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ أن يعرض عليهما الإسلام ويحرص على هدايتهما ودخولهما في هذا الدِّين العظيم، ويجتهد في ذلك.

وقد جعل الله أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سببًا في إسلام أُمِّـهِ، وقد كان حريصًا على ذلك، وسلك في هذا السَّبيل مسلكين عظيمين:

المسلك الأوَّل: أَنَّهُ كان كثيرًا ما يعرض عليها الإسلام، يقول: «كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ» وهذا فيه: عرضُهُ الإسلامِ عليها وبيانُه لها، ودعوتُها إليه مع توضيح محاسنه في أعماله وأحكامه وعقائده.

والمسلك الثَّاني: الدُّعاء لها بالهداية؛ لأَنَّ الهداية بيد الله، فكان يسأل الله تعالى ويُلِحُّ عليه بالدُّعاء أن يهدي أُمَّهُ.

فأكرمه الله وهدى أُمَّـهُ للإسلام، فانطلق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسرعًا يُبشِّره بإسلام أُمِّهِ.

قال: «فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْت: ادْعُ اللهَ لِي وَلِأُمِّي»، وهذا أيضًا مزيد طلبِ دعاء مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في المرَّة الأولى: طلب منه الدُّعاء لها بالدُّخول في الإسلام.

وفي الثَّانية: طلب منه مزيد دعاءٍ لها.

قال: «فقال -أي: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**اللهُمَّ، عَبْدُكَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأُمُّهُ، أَحِبَّهُمَا إِلَى النَّاسِ**»(٢)؛ أي: حبِّبْهُمَا إلى النَّاس، فكان الأمر كذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١).

(٢) هذا لفظ البخاريِّ في الأدب المفرد (٣٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

بدعوة النَّبيِّ ﷺ له، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهذا الحديث من دلائل النُّبُوَّةِ، فإنَّ أبا هريرة محَبَّبٌ إلى جميع النَّاس، وقد شهر الله ذكره بما قدَّره أن يكون من روايته من إيراد هذا الخبر عنه على رؤوس النَّاس في الجوامع المتعدِّدة في سائر الأقاليم في الإنصات يوم الجمعة بين يدي الخطبة، والإمام على المنبر، وهذا من تقدير الله العزيز العليم، ومحبَّة النَّاس له رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»، رواه مسلم[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «تُرْفَعُ لِلْمَيِّتِ بَعْدَ مَوْتِهِ دَرَجَتُهُ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ؟ فَيُقَالُ: وَلَدُكَ اسْتَغْفَرَ لَكَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ أُمِّيَ افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَإِنِّي أَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، فَلِي أَجْرٌ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، متَّفق عليه[(٤)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ أَبِي مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ**

(١) البداية والنِّهاية، لابن كثير (١١/ ٣٦٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه البخاريُّ (١٣٨٨، ٢٧٦٠)، ومسلم (١٠٠٤) واللَّفظ له.

قَاضِيَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ**»(١).

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ امرَأَةً مِن جُهَينَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَت أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ؛ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا؛ أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ؛ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالوَفَاءِ**»(٢).

ففي هذه الأحاديث: أَنَّ الدُّعاء للوالدين، وكذلك الصَّدقة عنهما، وكذلك الحجُّ عنهما والاعتمار؛ ينفعهما بعد موتهما حيث قَدِ انقطع عملُهما في هذه الحياة، وهذا من عظيم الْبِرِّ المتأكَّد بعد وفاتهما.

وعن أبي عثمان النَّهدِيِّ قال: إِنَّ سعد بن أبي وَقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان:١٥]، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا بَرًّا بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ، قَالَتْ: يَا سَعْدُ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ أَحْدَثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا، أَوْ لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ، حَتَّى أَمُوتَ فَتُعَيَّرَ بِي، فَيُقَالُ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ؟.

فَقُلْتُ: يَا أُمَّه: لَا تَفْعَلِي فَإِنِّي لَا أَدَعُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَمَكَثَتْ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَا تَأْكُلُ، فَأَصْبَحَتْ قَدْ جَهِدَتْ، فَمَكَثَتْ يَوْمًا آخَرَ وَلَيْلَةً وَقَدِ اشْتَدَّ جَهْدُهَا، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ، قُلْتُ: يَا أُمَّه، تَعْلَمِينَ وَاللهِ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا؛ مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَإِنْ شِئْتِ فَكُلِي، وَإِنْ شِئْتِ فَلَا تَأْكُلِي، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ، أَكَلَتْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، رواه الطَّبرانيُّ(٣).

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٢٦٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٨٥٢).

(٣) أورده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٠١)، وعزاه للطَّبرانيِّ في كتاب العشرة من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأصله في صحيح مسلم كما سيأتي في الحديث التَّالي.

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَزَلَتْ فِيَّ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ، -قَالَ:- حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ: عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:٨] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ [لقمان:١٥] وَفِيهَا: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]... الحديث، رواه مسلم[(١)].

حلفتْ أُمُّه ألَّا تأكُلَ ولا تشربَ حَتَّى يفارق دين محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومكثت على ذلك ثلاثة أيَّام بلياليها، وبلغ منها الجَهْد مبلغًا عظيمًا وهي ممتنعة عَنِ الأكل وعَنِ الشَّراب من أجل أن تضطر ابنَها إلى أن يفعل ما تريد، وقالت: زعمتَ أَنَّ الله وصَّاك بوالديك، وأنا أُمُّكَ، وأنا آمرك بهذا.

وهذه شهادة منها -وهي مشركة- بأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ من هديه الوصيةُ بِبِرِّ الوالدين، فقال: يا أُمَّهْ؛ والله لو كان لكِ مائةُ نفس وخرجت نفسًا نفسًا ما رجعتُ عن دين محمَّدٍ ﷺ لشيءٍ، سواء لهذا الأمر الَّذِي تفعلينه أو لأيِّ أمر آخر، قال: فإن شئت كُلِي، وإن شئت فامتنعي.

قال: فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت:٨]، وهذا هو الَّذِي فعله سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فامتنع عن طاعة أُمِّه في هذا الَّذِي طلبت منه، قال سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، أي: مع بقاء المصاحبة لهما بالمعروف حَتَّى في

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨).

هذه الحال، حالِ دَعْوةِ الابن إلى الشِّرك والإصرار عليه أن يشرك.

ولم يقل: فعُقَّهما، بل قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، وإذا كان مطلوبٌ مِنَ الابن شرعًا إذا كان والده مشركًا ويدعوه إلى الشِّرك أن يصاحبه بالمعروف؛ فكيف الأمر إذا كان الوالد مؤمنًا تقيًّا صالحًا ورعًا مصلِّيًا صائمًا عابدًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟!

وعن أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: أَتَتْنِي أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة:٨]، رواه البخاريُّ(١).

كانت أُمُّها على الشِّرك بالله عَزَّ وَجَلَّ وأتتها راغبةً؛ أي: راغبة في برِّ بنتها وصلتها لها، ولم تكن راغبة في الإسلام؛ لأَنَّ الرَّاغب في الإسلام يُتألَّف ولا يُشكِل أمر عطائه من أجل تأليفه للإسلام وترغيبه فيه.

وقد جاء في بعض روايات الحديث عند البخاريِّ: جاءت راغمة: أي: راغمة عَنِ الإسلام وباقية على عدم رغبتها في الإسلام، وهذا يوضِّح لنا أَنَّ المراد «براغبة» في الرِّواية الأولى، أي: في الْبِرِّ والصِّلة.

قالت: فسألتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آصِلُهَا؟ قال: «نَعَمْ». وهذا فيه أَنَّ الأُمَّ المشركة تُوصَل وتُبَرُّ ويُحسن إليها، وتُعامل بالمعروف وتُصاحب بالحسنى، وكُلُّ ذلك لا يتنافى مع البراءة مِنَ المشركين، فتبرأ منها ومن دينها، وتصلها وتَبَرُّهَا وتحسنُ إليها طمعًا في هدايتها.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٧٨).

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

ففيها: أَنَّ الأبَ المشرك والأُمَّ المشركة -بل عمومَ المشركين- إذا لم يكونوا مقاتلين للمسلمين أن يُبَرُّوا ويُقسط إليهم، لا ينهى الله عن ذلك، ولا شكَّ أنَّ الكُفَّارَ إذا رأوا مثل هذه المعاملة والْبِرّ والإحسان والملاطفة قد تكون سببًا لدخولهم في الإسلام، بل إنَّ كثيرًا مِنَ الكُفَّار كان سببُ إسلامهم رؤيتَهم أخلاق المسلمين وآدابهم وحسن معاملتهم.

❀ ❀ ❀

(٤)

عُقوقُ الْوَالِدَيْنِ

قد تقدَّم أنَّ بِرَّ الوالدين يأتي في صدارة الأخلاق ومقدَّمِهَا؛ لأَنَّهُمَا أَحَقُّ النَّاس بالأدب وبحسن المعاملة، وكريم الأخلاق والآداب، وعليه فإِنَّ عقوقَ الوالدين يُعدُّ هدمًا للقيم والآداب، واكتساءً بشرِّ الأخلاق وأرذلها، وهو يُعدُّ في الشَّريعة ذنبًا كبيرًا وجُرْمًا عظيمًا، وعقوبته عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى شديدة، حذَّر منه النَّبِيُّ ﷺ أشدَّ التَّحذير في أحاديث عديدة، وعدَّه ﷺ من أكبر الكبائر.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ** -وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ:- **أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ، متَّفق عليه(١).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكَبَائِرَ، أَوْ سُئِلَ عَنْ الْكَبَائِرِ فَقَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ**، -أَوْ قَالَ:- **شَهَادَةُ الزُّورِ**»، متَّفق عليه(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وعقوقُ الوالدين أصله مِنَ الْعَقِّ: وهو الشَّقُّ والقطعُ، وهو قطيعتهما وإيذاؤهما بأيِّ نوعٍ كان من أنواع الأذى قَلَّ أو كَثُر، نَهَيَا عنه أو لم ينهيا، وفِعْلُ ما يُغضبهما ويسيء إليهما؛ فهي كلمة تجمع كُلَّ معاني الإساءة، كما أنَّ الْبِرَّ كلمةٌ تجمع كُلَّ معاني الإحسان.

سُئِلَ الحسن البصريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْعُقُوقِ، فَقَالَ: «الْبِرُّ أَنْ تَبْذُلَ لَهُمَا مَا مَلَكْتَ، وَأَنْ تُطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَاكَ بِهِ مَا لَمْ يَأْمُرَاكَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، وَالْعُقُوقُ أَنْ تَهْجُرَهُمَا وَتَحْرِمَهُمَا»[(٢)].

والعقوقُ يتفاوت كما أنَّ الْبِرَّ والإحسانَ -أيضًا- يتفاوت، والإتيانُ بالْبِرِّ والإحسان كُلِّه مطلوبٌ في حدود استطاعة المرء، وهو ميدان منافسة، والعقوقُ مطلوبٌ البعدُ عنه كُلِّه، والحذرُ منه كُلِّه.

والإساءة إلى الوالدين بالقول أو الفعل -وهما السَّبب الظَّاهريُّ في وجود الإنسان-؛ يُعدُّ من أعظم أنواع الجحود ونكران الجميل، ومن أشنع الفساد في الأخلاق، ومن أعظم اللُّؤم في الطِّباع؛ لأَنَّ إحسانهما وفضلهما لا يماثله أَيُّ إحسانٍ في هذا الوجود، ولهذا جعل النَّبِيُّ ﷺ عقوقَهما من أعظم الكبائر.

ويكفي برهانًا على خطورة العقوق وعِظم هذا الجُرْم؛ أنَّ اللهَ لَمَّا ذكر حقَّه ذكر تلو ذلك حَقَّ الوالدين في آيٍ عديدة مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٨٧٠،٦٦٧٥).

(٢) أخرجه الحسين بن حرب في البِرِّ والصِّلة (١٠).

ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النِّساء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، فحَقُّهما يلي حَقَّ اللهِ، وعقوقُهما يلي الشِّرك، وفي معناهما الأجدادُ والجدَّات.

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»(١).

تقدَّم: أنَّ العقوقَ أصله القطع، والعَاقُّ لأُمِّهِ قد قطع ما لها عليه من حقوق، وأَحلَّ محَلَّ ذلك الإساءة والإيذاء، وإنَّما خُصَّت الأُمُّ بالذِّكر وإن كان عقوقُ الأَبِ -أيضًا- حرامًا؛ لأَنَّ العقوقَ إليهِنَّ أسرعُ مِنَ الآباء لضعف النِّساء، وللتَّنبيه -أيضًا- على أنَّ بِرَّ الأُمِّ مقدَّمٌ على بِرِّ الأب في التَّلطُّف والْحُنُوِّ ونحوِ ذلك؛ لِما لها من أحقِّيَّة خاصَّة بحسن الصُّحبة وطيب المعاملة.

وعن عَبْدِ اللهِ بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى**»، رواه النَّسائيُّ(٢).

وهذا وعيد للعاقِّ لوالديه بعدم دخول الجنَّة، وهذا مِنَ الدَّلائل على أَنَّ هذا الجُرْم من كبائر الذُّنوب، وأهلُ الكبائرِ لا يُكفَّرُونَ بذلك، ولا يُخلَّدُونَ في النَّار، إذا لم يستحِلُّوا هذه المعاصي، بل هم تحت مشيئة الله كما دلَّت على ذلك نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٠٨، ٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).
(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٢٥٦٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

لأَنَّ الله تعالى أمر أن يُطاعَ الوالد ويُكرمَ ويُحسنَ إليه ويُبَرَّ، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومَنْ أغضبه فقد أغضب اللهَ، وهذا وعيدٌ شديدٌ يفيد أنَّ العقوقَ كبيرةٌ.

وَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ**»، رواه مسلم[(٢)].

لعْنُ الوالدين -والعياذ بالله- مِنْ أشدِّ العقوقِ وأفظعه، وأعظمِ اللُّؤم وأشنعِه، كيف وقد قدَّما له مِنَ المعروف والإحسان والرِّعاية والتَّربية شيئًا كثيرًا لا يبلغ مجازاته، ثُمَّ يكون منه اللَّعن لهما.

وفي هذا الحديث وعيدٌ شديدٌ لمن يلعن والديه بأَنَّهُ استحق بذلك اللَّعن مِنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، و اللَّعْنُ: هو الطَّرْدُ والإبعاد من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن يلعن والديه يلعنه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويطرده من رحمته جَلَّ وَعَلَا، وهذا دليل على أنَّ هذا الأمرَ من كبائر الذُّنوب وعظائم الآثام، سواءٌ كان لعنُهُ لوالديه تسببًا أَوِ ابتداءً -وهو أشنع-.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»،

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٨٩٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

رواه البخاريُّ[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مِنَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَسْتَسِبَّ الرَّجُلُ لِوَالِدِهِ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٢)]. أي: أن يكون سببًا في سبِّ والديه بأن يكون سببًا في شتم والديه على المعنى المبيَّن في الحديث.

ولعْنُ الوالدين ابتداءً يكون بمواجهتهما باللَّعن مباشرة، وأمَّا التَّسبب فهو أن يلعنَ الرَّجُلُ أبا الرَّجُلِ فيَسُبَّ أباه ويسبَّ أُمَّهُ، بمعنى أَنَّهُ يَجُرُّ اللَّعنَ إلى والديه ويتسبَّبُ فيه.

وهذا أمرٌ يكثر عند مَن لا حياء عندهم ولا خوف مِنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في مجالسهم ولقاءاتهم، يتبادلون لعن الآباء والأُمَّهَات، ويجري على لسانهم اللَّعن أكثر مِنَ السَّلام والرَّحمة، ويكون الحظُّ الأوفر من تلاعنهم للآباء والأُمَّهَات، فلا يوجه الواحد منهم الشَّتم لمن شتمه، وإِنَّمَا يوجِّه الشَّتم لوالديه، والآخر يُبادله ذلك، وهذا كُلُّه من رِقَّة الدِّين، ووهاء الإيمان، وخِسَّة الطَّبع واللُّؤْم -والعياذ بالله-.

قولهم: «وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟»؛ أي: أَنَّ هذا أمرٌ غريب ومُستبعَدٌ أن يشتم الرَّجُلُ والديه، ولعلَّهم فهموا أَنَّ المرادَ بالشَّتم شتمهما ابتداءً، وهذا يفيد أَنَّ شتم الوالدين ابتداءً أمرٌ مستغرَبٌ ولا وجود له، ولا يُتَصَوَّر أن يكون الابن بهذا المستوى وبهذه الدَّناءة بأن يواجه والديه باللَّعن والشَّتم، مع أَنَّهُ عند انحطاط الأخلاق يوجد مثل هذا في المنحطَّةِ أخلاقُهم وأكثر.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٧٣).
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ التَّسبُّب في شتم الوالدين مثل شتمهما مباشرة، فسواء شتم والديه ابتداءً، أو شتم والديه تسبُّبًا كُلُّ ذلك من كبائر الذُّنوب.

هذا وقد قال ﷺ: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(١)]، كُلُّ هذا ليس من خُلُق المؤمن ولا من صفاته، وإذا كان اللَّعْن عامَّة ليس من صفة المؤمن، فكيف بلعن أقرب أقربائه إليه، وأكثرِهم معروفًا به وإحسانًا إليه؛ أُمِّهِ وَأَبِيهِ؟!

ولك أن تعجب، بأن يكون الولدُ في البيت فتحنو عليه أُمُّهُ، وتقدِّمُ له الطَّعام، وتُعطيه اللِّباس، وتطمئنُّ على صحَّتِه وعافيته، ثُمَّ يخرجُ فيلقى صديقًا أو غيرَه فيتسبَّبُ في لَعْنِهَا، لا ريبَ أَنَّ هذا من دناءة الطَّبْع وسوء الخُلُق.

وفي الحديث: تنبيه على خطورة جلساء السُّوء وخلطاء الفساد، فمن يُجالسهم إمَّا أن يُعلِّموه أن يَلْعَنَ والديه مباشرةً، أو أن يكونَ على أيديهم لَعْنٌ للوالدين بالتَّسبُّبِ، وهم من أخطر ما يكونُ على المرءِ في دينه وعقيدته وعبادته وأدبه، فهم كما قال ﷺ: كـ«**نَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[(٢)].

وإذا كان هذا شأنُهم مع والديهم مع عِظم إحسانهم، فلا خاتمة لهم مع كُلِّ صاحب مهما أحسن، ولذا قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا تَصْحَبَنَّ عَاقًّا؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَقْبَلَكَ وَقَدْ عَقَّ وَالِدَيْهِ»[(٣)].

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).
(٣) المستطرف في كُلِّ فنٍّ مستظرف، للأبشيهي (٢/ ٢٠).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجلٍ يسفه على والديه، فما يجب عليه؟ فأجاب: «إذا شتم الرَّجُل أباه واعتدى عليه فإِنَّهُ يجب أن يعاقب عقوبةً بليغةً تردعه وأمثالَه عن مثل ذلك، بل وأبلغ من ذلك أَنَّهُ قد ثبت عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في «الصَّحيحين» أَنَّهُ قال: «**مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**» قَالُوا: وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**».

فإذا كان النَّبِيُّ ﷺ قد جعل مِنَ الكبائر أن يسبَّ الرَّجُل أبا غيره لِئَلَّا يسبَّ أباه فكيف إذا سبَّ هو أباه مباشرةً؟! فهذا يستحقُّ العقوبةَ الَّتِي تمنعه عن عقوق الوالدين الَّذِي قرن الله حقَّهُما بحَقِّه حيث قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣] فكيف بسبهما؟!»[١]. ا هـ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**»، رواه التِّرمذيُّ[٢].

هذه موقظة في هذا الباب: قد يشتدُّ أذى الولد لوالديه ويعظم عقوقه لهما؛ فيلجئهما ذلك إلى الدُّعاء على الولد دعوة تكون مستجابة، فيكون بها هلاكه في دنياه وأخراه.

والوالد لا يمكن أن يدعو على ولده إِلَّا في حال غضبه منه وانزعاجه الشَّديد من سوء معاملته، أَمَّا في حال بِرِّ ابنه به وإحسانه إليه

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيميَّة (٣/ ٤٣٧).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٠٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ولطفه معه فلا يدعو عليه.

ودعوة الوالد مستجابة لا تُردُّ، سواء دعا له، أو دعا عليه، ولهذا جاء في بعض ألفاظ الحديث: «**وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ**»(١)، فالدُّعاء له: أي بخيرٍ، والدُّعاء عليه: أي: بضرٍّ، كُلُّ ذلك مستجابٌ لا يُرَدُّ.

فيستفاد من هذا: أنَّ الواجبَ على الأبناء أن يحرصوا على كسب دعوة الوالدين لهم بالخير، وهذا فرع عن رضا الوالدين عنهم، وأن يحذروا أشدَّ الحذر من دعاء والديهم عليهم بالضَّرِّ، وهذا فرع عن عقوقهما والإساءة إليهما.

ومن عجيب القصص في هذا الباب: ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ.**

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتِ: اللهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٦٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ.

فَأَتَوْهُ، فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاؤوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي.

قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ.

قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا.

قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ. وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَى، مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ. فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللهُمَّ

اجْعَلْنِي مِثْلَهَا»(١).

فهذه القِصَّة العجيبة العظيمة الَّتِي ذكرها رسولُ الله ﷺ وهي من أخبار مَنْ قبلنا، فيها: أنَّ جريجًا -وقد كان شابًّا عابدًا منشغلًا بالصَّلاة والمحافظة عليها- لمَّا دعت عليه أُمُّهُ بتلك الدَّعوة استجاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دعوتها، فرمته بَغِيٌّ من بني إسرائيل حامل مِنَ الزِّنا بذلك، فعُذِّب وهُدِّمت صومعته، ثُمَّ نجَّاه الله بعد تلك العقوبة، ففيه أنَّ دَعوة الوالد على ولده مستجابة.

وفي مقابل هذا: فإنَّ بِرَّ الوالدين سبب لإجابة دعوتهما له، وسببٌ لإجابة دعاء البارِّ بهما لنفسه، لا سيَّما في دفع البلاء وكشف الكرب.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَانطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ.**

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِيَ صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ.

وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ.

فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

وَقَالَ الآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا. فَأَخَذَهُ، فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ»، متَّفق عليه(١).

فأحد هؤلاء الثَّلاثة كانت وسيلُته في دعائه لتفريج هذا الكرب بِرَّهُ بوالديه الشَّيخين الكبيرين.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ**» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**»، رواه مسلم(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَقَى الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «**آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ**» قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا؟ فَقَالَ: «**قَالَ لِي**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥١).

جِبْرِيلُ: رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «احْضَرُوا الْمِنْبَرَ» فَحَضَرْنَا، فَلَمَّا ارْتَقَى دَرَجَةً قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ: «آمِينَ»، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ: «آمِينَ».

فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ، قَالَ: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَرَضَ لِي فَقَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّانِيَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّالِثَةَ قَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ عِنْدَهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: آمِينَ»، رواه الحاكم(٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَقَى الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا رَقَى الدَّرَجَةَ الْأُولَى قَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَقَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَقَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ: «آمِينَ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْنَاكَ تَقُولُ: آمِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟

قَالَ: «لَمَّا رَقِيتُ الدَّرَجَةَ الْأُولَى جَاءَنِي جِبْرِيلُ ﷺ فَقَالَ: شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ رَمَضَانَ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ. ثُمَّ قَالَ: شَقِيَ عَبْدٌ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»، رواه البخاريُّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٦٤٦)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٢٥٦)، وصحَّحه لغيره الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٩٩٥).

في «الأدب المفرد»[(١)].

مَن أكرمه الله وأدرك أبويه ولا سيِّما وهما على كِبَر؛ قد وصلا إلى هذا السِّنِّ الَّذِي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان مِنَ اللُّطف والإحسان ما هو معروف؛ فقد أدرك بابًا عظيمًا من أبواب الجنَّة حفظه المرء أو ضيَّعه، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ أي: لا تُسمعهما قولًا سيِّئًا، حَتَّى التَّأفيفَ الَّذِي هو أدنى مراتب القول السَّيِّءِ، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ «أَيْ: لَا تَنْفُضْ يَدَكَ عَلَى وَالِدَيْكَ»[(٢)].

ولمَّا نهاه عَنِ القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: ليِّنًا طيِّبًا حسنًا بتأدُّب وتوقير وتعظيم.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: تواضع لهما بفعلك، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾؛ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

فمن لم يقم بحقِّهِمَا مِنَ الْبِرِّ والإحسان والطَّاعة واللُّطف وخفض الجناح وغيرِ ذلك من حقوق الوالدين -ولا سيِّما في هذا السِّنِّ-، بل فرَّط وضيَّع، أو عقَّ وأساء؛ فحظُّه الشَّقاء والحرمان والصَّغار والهوان،

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٦٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) تفسير الطَّبريِّ (١٧/ ٤١٧).

كما تقدَّم في الأحاديث: «**شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ، ورَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ وَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ**».

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا دعاء مؤكَّد على مَنْ قصَّر في بِرِّ أبويه، **ويحتمل وجهين:**

أحدهما: أن يكون معناه: صرعه الله لأنفه فأهلكه، وهذا إِنَّمَا يكون في حقِّ مَن لم يقم بما يجب عليه مِن بِرِّهما.

وثانيهما: أن يكون معناه: أَذَلَّه اللهُ؛ لأَنَّ مَنْ ألصق أنفه -الَّذِي هو أشرف أعضاء الوجه- بالتُّراب -الَّذِي هو موطئ الأقدام وأخسُّ الأشياء- فَقَدِ انْتَهَى مِنَ الذُّلِّ إلى الغاية القصوى، وهذا يصلح أن يُدعى به على مَنْ فرَّط في متأكَّدات المندوبات، ويصلح لِمَنْ فرَّط في الواجبات، وهو الظَّاهر.

وتخصيصه عند الكِبَرِ بالذِّكْر -وإن كان بِرُّهما واجبًا على كُلِّ حالٍ- إِنَّمَا كان ذلك لشِدَّةِ حاجتهما إليه؛ ولضعفهما عَنِ القيام بكثير من مصالحهما، فيبادر الولد اغتنام فرصة بِرِّهما؛ لِئَلَّا تفوته بموتهما فيندم على ذلك»(١).

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ؛ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

هذا يَدُلُّ على أنَّ قطيعةَ الرَّحِمِ والبغي لهما عقوبةٌ معجَّلةٌ ومؤجلةٌ؛ عقوبة في الدُّنيا وعقوبة في الآخرة وهو أجدر الذُّنوب بتعجيل العقوبة

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبيِّ (٦/ ٥١٨).
(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٥١١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

لصاحبه في الدُّنيا مع ما يعاقبه اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به يومَ القيامة، ويدخل الأبوان في ذلك دخولًا أوّليًا.

وعن طَيْسَلة، أَنَّهُ سمع ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يقول: «بُكَاءُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْعُقُوقِ وَالْكَبَائِرِ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

والواجبُ على الابن أن يكون دائمًا حريصًا على إدخال السُّرور على والِدَيْهِ، وأن لا يكونَ متسبِّبًا في إبكائهما وإحزانهما وإدخال الألم على قلبيهما، بل قد مرَّ معنا قولُ النَّبِيِّ ﷺ للرَّجُل الَّذِي جاء مِنَ اليمن مهاجرًا: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا**»، فَإِنَّ بكاءَ الوالدين مِنَ العُقُوقِ والكبائرِ.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ في مقدِّمة كتابه «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» متأسِّفًا لحال بعض الشَّباب في زمانه في شأن الْبِرِّ بالآباء والأُمَّهَات: «فإنِّي رأيت شبيبةً من أهل زماننا لا يلتفتون إلى بِرِّ الوالدين، ولا يرونه لازمًا لزوم الدِّين، يرفعون أصواتَهم على الآباءِ والأُمَّهَاتِ، وكأَنَّهُم لا يعتقدون طاعتهم مِنَ الواجبات، ويقطعون الأرحامَ الَّتِي أمر اللهُ سبحانه بوصلها في الذِّكْر، ونهى عن قطعها بأبلغ الزَّجْر، ورُبَّمَا قابلوها بالهُجر والجهر.

وقد أعرضوا عن مواساة الفقراء مِمَّا يرزقون، وكأَنَّهُم لا يُصَدِّقُون بثواب ما يتصدَّقُون، قَدِ التفتوا بالكُلِّيَّة عن فعل المعروف، كَأَنَّهُ في الشَّرع، والعقل ليس بمعروف. وكُلُّ هذه الأشياء تحثُّ عليها المعقولات، وتبالغ في ذكر ثوابها وعقابها المنقولات»(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) بِرُّ الوالدين، لابن الجوزيِّ (ص:١).

وهذا الَّذِي يألم لوجوده في زمانه موجود في كُلِّ الأزمنة، لكِنْ بالمناصحة وملاطفة هؤلاء الشَّباب وتذكيرهم بهذه النُّصوص العظيمة والآثار المترَتِّبَة على ذلك وكثرة الدعاء لهم بالصلاح؛ يَصلح منهم مَنْ أراد الله صلاحه.

❁ ❁ ❁

(٥)

صِلَةُ الأَرْحَامِ

إنَّ الإسلام دينُ الوفاءِ والصَّفاءِ، والمحبَّةِ والإخاءِ، والْبِرِّ والصِّلةِ والإحسانِ ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

وإِنَّ مِنَ الإحسانِ الَّذي حثَّ عليه الإسلام ورغَّبت فيه الشَّريعة؛ صلةَ الأرحامِ، وهو معدود في مكارم الأخلاق ونبيلها، وطيِّب الآداب وجميلها، والله عَزَّوَجَلَّ عظَّم من شأن الرَّحِم وأعلى من قَدْرِها، فقَرَن الوصيَّة بها بتقواه سبحانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النِّساء:١]، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تقطعوها، ولكِنْ بِرُّوها وصِلُوها وأحسِنوا إليها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَـٰرَهُمۡ﴾ [محمَّد:٢٢-٢٣]»، متَّفق عليه[١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

والرَّحِمُ: هم كُلُّ مَنْ تجمعك بهم قرابة من جهة الأب أو من جهة الأُمِّ، فكُلُّ مَنْ تجمعك بهم قرابة من هاتين الجهتين فهم من ذوي الأرحام، وهم يتفاوتون في قربهم للمرء بحسب قربهم من أُمِّهِ وأَبِيهِ، وتكون صلتهم بالسَّلَام والتَّواصل والزِّيارة والإحسان إليهم، ونحو ذلك من وجوه الْبِرِّ والصِّلة.

قولُه: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ**»؛ أي: مِن خلقهم ومِن جملتهم الرَّحم.

«**قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ**»؛ أي: إِنَّ قيامي هذا هو قيام «الْعَائِذُ مِنَ الْقَطِيعَةِ» أي: المستعيذ بك يا الله مِنَ القطيعة، أي: قمتُ مستعيذةً بك، طالبةً أن تُعيذني مِنَ القطيعة؛ لأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أمر بها أَنْ تُوصلَ؛ فتعوَّذت بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من أَنْ تُقطع.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟**»، وهذا فيه شاهد لقاعدة الشَّريعة: [الجزاءُ من جنس العمل] في الإحسان والإساءة، قال الله تعالى في الإحسان: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، وقال في الإساءة: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الرُّوم:١٠].

فالواصلُ يصله الله، والقاطعُ يقطعه الله، جزاءً وفاقًا، ومَنْ وصله الله سبحانه فقد فاز بخَيْرَيْ الدُّنْيَا والآخرة، ومَنْ قطعه اللهُ فقد خسر خسرانًا مبينًا وحُرِم مِنَ الخير.

فقالت الرَّحم: «**بلى**»؛ أي: رضيت بذلك.

فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**فَذَاكَ لَكِ**»؛ أي: إِنَّهُ عَزَّوَجَلَّ أعطاها ذلك؛ فَمَنْ وصلها وصله، ومَنْ قطعها قطعه.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ

أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمَّد: ٢٢-٢٣]».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا نهيٌ عَنِ الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال، والأفعال، وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصِّحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة، ووجوه كثيرة»[(١)]. اهـ.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»، رواه مسلم[(٢)].

وهذا يَحتمل أن يكون خبرًا، أو أن يكون دعاءً، فإمَّا أنَّ الرَّحِم تخبر بهذا، أو أَنَّهَا تدعو الله عَزَّوَجَلَّ به، وعلى كُلٍّ فهو يدُلُّ على عِظم شأن الرَّحِم وصلتها، وأَنَّهَا تحت العرش تدعو بهذا الدُّعاء، أو تخبر بهذا الخبر.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**»، رواه أبو داود[(٣)].

هذا حديثٌ قُدُسيٌّ، ومعنى «**بَتَتُّهُ**»: أي: قطعته، فالبتُّ هو القطع، وهو هنا مقابل للقطع، فمن قطع رحِمَه قطعَه اللهُ، كما أَنَّ الوَصْلَ مقابلٌ للوصل، والجزاءُ من جنس العمل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقولُه: «**أَنَا الرَّحْمَنُ**»؛ يعني: أنَّ هذا من أسمائه عَزَّوَجَلَّ الَّتِي لا يُسَمَّى بها غيرُه.

وقولُه: «**وَهِيَ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي**»؛ أي: اشْتَقَّ سبحانه اسمها مِنِ اسمه الرَّحْمَن، وهذا فيه: دليل على مكانة الرَّحِمِ العلِيَّة عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فالرَّحمن هو ذو الرَّحمة الواسعة، والرَّحِمُ هي القَرَابةُ.

وعن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «**أَرْسَلَنِي اللهُ**»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**».

قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «**حُرٌّ، وَعَبْدٌ**»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**...» إلى آخر الحديث، رواه مسلم(١).

ففيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بدأ بالحَثِّ على صِلَةِ الرَّحِمِ وبيان عظيم شأنها من أوَّل رسالته وبداية بعثته، قبل أن تُفرض الصَّلاةُ والزَّكاةُ وبقيَّةُ أركانِ الإسلامِ، وقرنها بالتَّوحيد.

وعن أبي أيوب الأنصاريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢).

وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ -أَوْ بِزِمَامِهَا- ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، -أَوْ يَا مُحَمَّدُ،- أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَقَدْ وُفِّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ**»، قَالَ: «**كَيْفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ**»، متَّفق عليه، وهذا لفظ مسلم(١).

هذا فيه حرصهم على الخير وما يُقرِّب مِنَ الجنَّة ويُباعد مِنَ النَّار، وقد طلب هذا الأعرابيُّ وصيَّةً جامعةً تقرِّبه مِنَ الجنَّة -أي: تُدنيه منها- وتُباعده مِنَ النَّار.

فذكر له ﷺ أمورًا أربعة: بدأها بأعظم الأمور وأجلِّها على الإطلاق وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والبراءةُ مِنَ الشِّرك، ثُمَّ ثنَّى بالصَّلاة الَّتِي كتبها الله على العباد خمس صلوات في اليومِ واللَّيلةِ، وهي أعظم فرائض الإسلام بعد التَّوحيد.

ثُمَّ الزَّكاة وهي قرينة الصَّلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهي فريضة عظيمة من فرائض الإسلام، ثُمَّ ذكر صِلَةِ الرَّحِم وأنَّها عمل مبارك وطاعة عظيمة تقرِّب العبد مِنَ الجنَّة وتباعده مِنَ النَّار، وقرنها النَّبيُّ ﷺ مع هذه الطَّاعات العظيمة؛ التَّوحيدِ والصَّلاة والزَّكاة، ويكفي هذا دليلًا على شرف صلة الرَّحِم وعظيم مكانتها مِنَ الدِّين.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ**»، رواه البخاريُّ(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٩٦،٥٩٨٣)، ومسلم (١٣) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٨).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الرَّحِمُ شِجْنَةٌ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وعَنْ أَبِي الْعَنْبَسِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي الْوَهْطِ -يَعْنِي: أَرْضًا لَهُ بِالطَّائِفِ- فَقَالَ: عَطَفَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَهُ فَقَالَ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ يَصِلْهَا يَصِلْهُ، وَمَنْ يَقْطَعْهَا يَقْطَعْهُ، لَهَا لِسَانٌ طَلْقٌ ذَلْقٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٢)].

قوله: «**شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ**» -بضمِّ أوَّله وبكسره- أصله اشتباك العروق والأغصان، أي: أُخذ اسمها من هذا الاسم كما تقدَّم: «**أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمُ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي**»

والمعنى: أَنَّهَا أثرٌ من آثار الرَّحمة مشتبكة بها، فالقاطع لها قطع عن نفسه بابًا عظيمًا من أبواب نيل رحمة الله تعالى.

قوله: «**لَهَا لِسَانٌ طَلْقٌ ذَلْقٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ أي: تقوم الرَّحِمُ يوم القيامة لها لسان فصيح بليغ، تطلب حَقَّهَا الَّذِي وعدها به سبحانه عندما قَامَتِ بين يديه وقالت: «**هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ**»، فقَالَ لها سبحانه: «**نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكَ لَكِ**».

يوضِّحُه ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرَّحِمَ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، تَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنِّي قُطِعْتُ، يَا رَبِّ، إِنِّي أُسِيءَ إِلَيَّ، يَا رَبِّ، إِنِّي ظُلِمْتُ، يَا رَبِّ**» قَالَ: «**فَيُجِيبُهَا، أَمَا**

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَنْ أَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ»، رواه أحمد[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»، متَّفق عليه[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»، رواه البخاريُّ[٣].

وهذا فيه أنَّ لصِلَةِ الرَّحِم ثمارًا كثيرة؛ منها ثمارٌ معجَّلة للواصل في الدُّنْيَا، ومنها ثمارٌ مؤجَّلَةٌ يفوز بها يومَ القيامةِ، ومِنَ الثِّمَار المعجَّلَةِ: بسط الرِّزق له في الدُّنْيَا، وطول العمر.

«**يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ**»؛ أي: يوسَّع له فيه، ويُبارك له في ماله.

«**وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**»؛ النَّسِيئة: هي التَّأخير، ومعنى «**يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**»؛ أي: يُؤَخَّر، والأثر: المراد به الأَجَل، والمعنى: أَنَّه يُزاد في عمره حقيقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقدْ قالَ بعضُ النَّاسِ: إنَّ المرادَ به البركة في العمر بأَنْ يعملَ في الزَّمن القصير ما لا يعمله غيرُه إلَّا في الكثير، قالوا: لأَنَّ الرِّزقَ والأَجَلَ مُقَدَّرَان مكتوبان. فيقال لهؤلاء: تِلْكَ البركةُ -وهي الزِّيادةُ في العمل والنَّفع- هي أيضًا مُقَدَّرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء.

والجواب المحقَّقُ: أَنَّ الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة، فإذا وَصَلَ رحِمَه زادَ في ذلك المكتوبِ. وَإِنْ عَمِلَ ما يوجب النَّقص نقص من ذلك المكتوبِ. ونظير هذا ما في التِّرمذيِّ وغيرِه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٧٥)، وابن حِبَّان في صحَّيحه (٤٤٢)، وصحَّحه لغيره الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٥).

آدَمَ لَمَّا طَلَبَ مِنَ اللهِ أَنْ يُرِيَهُ صُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فَأَرَاهُ إِيَّاهُمْ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ بَصِيصٌ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ فَقَالَ: ابْنُكَ دَاوُد. قَالَ: فَكَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً. قَالَ: وَكَمْ عُمْرِي؟ قَالَ: أَلْفُ سَنَةٍ. قَالَ: فَقَدْ وَهَبْت لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً. فَكُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابٌ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي سِتُّونَ سَنَةً. قَالُوا: وَهَبْتَهَا لِابْنِك دَاوُد. فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، فَأَخْرَجُوا الْكِتَابَ». قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ**»(١). ورُوي أَنَّه كمَّل لآدمَ عمْرُهُ ولداودَ عمْرُهُ. فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنةً، ثُمَّ جَعله ستين، وهذا معنى ما رُوي عن عمر أَنَّهُ قال: اللهُمَّ إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنَّك تمحو ما تشاء وتثبت. والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إِيَّاهُ بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إِلَّا ما علَّمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها، وبعد كونها»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأجل أجلان: أجلٌ مطلقٌ يعلمه الله، وأجلٌ مقيَّدٌ، وبهذا يتبيَّن معنى قوله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»، فإِنَّ الله أمر المَلَكَ أن يكتب له أجلًا وقال: إنْ وَصَلَ رحمه زدته كذا وكذا، والمَلَكُ لا يعلم أيزداد أم لا؛ لكِنَّ الله يعلم ما يستقِرُّ عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ»(٣).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٠٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيميَّة (١٤/ ٤٩٠، ٤٩١).
(٣) السَّابق (٨/ ٥١٧).

وَحُسْنُ الْجِوَارِ؛ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ»، رواه أحمد[(١)].

فصلة الرَّحم لها مِنَ الآثار الحميدة والعوائد المباركة والخيرات العميمة في الدُّنْيَا والآخرة ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى؛ فهي سببٌ لسعة الرِّزق وكثرته، وراحة القلب وطمأنينته، وزيادة العمر وبركته.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ، وَوَصَلَ رَحِمَهُ؛ نُسِّئَ فِي أَجَلِهِ، وَثَرَى مَالُهُ، وَأَحَبَّهُ أَهْلُهُ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

فيه أَنَّ الواصل محبوب في عشيرته وقرابته، وهو محلُّ ثناءٍ وتقدير واحترام، إضافة إلى ما تقدَّم من طول العمر، وثراء المال.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**»[(٤)].

أي: أنَّ الواصلَ حقيقةً ليس بالمكافئ؛ لأَنَّ المكافئ هو الَّذي يجزي غيرَه بمثل ما جزاه به، فإذا وصله ذو رحمه وصلهم على سبيل المكافأة لهم والمجازاة بالمثل، فهذا لا يُعدُّ واصلًا، إِنَّمَا هو مكافئٌ، وإِنَّمَا الواصل حقيقة الَّذي إذا قُطعت رحمه وصلها؛ لأَنَّهُ يعدَّ الصِّلة لرحمه قربة يتقرب بها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يطلب بها ثوابه ويتقي بها عقابه؛ لأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد أمره

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٥١٩).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٧٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩١).

بذلك وأعدَّ للواصل ثوابًا عظيمًا، وأعدَّ للقاطع عقابًا أليمًا.

والناس في هذا الباب ثلاثةُ أقسام:

الأوَّل: الواصل، وهو الَّذِي يتفضَّل على ذوي رحمه بصلتهم وإِنْ لم يصله منهم أحدٌ، بل حَتَّى وإن أساؤوا إليه.

الثَّاني: المجازي أو المكافئ، وهو الَّذِي لا يصل رحمه إِلَّا إذا وصلوه.

الثَّالث: القاطع، وهو مَنْ يقطع رحمه، وصلوه أو قطعوه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»، رواه مسلم[(١)].

«أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي»؛ أي: يقابلون مِنِّي الصِّلة بالقطيعة، ولا يقابلون إحساني إليهم بإحسان، ثُمَّ ذكر أنواعًا مِنَ الصِّلة الَّتِي كان يُقدِّمها إليهم، وأنواعًا مِنَ الإساءة الَّتِي كانوا يعاملونه بها.

فقال: «وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ»؛ أي: أعاملهم بالإحسان، والإحسان: كلمة جامعة تجمع معاني الخير، «ويسيئون إليَّ»؛ أي: يقابلونني بالإساءة، «وأحلم عنهم»؛ أي: وأنا أقابل جهلهم عليَّ بأنِّي أحلم عنهم وهم «يجهلون عليَّ»؛ أي: يعاملونني معاملة الجهلاء من فظاظة، وغلظة، وسبٍّ، ونحو ذلك.

فهذه حاله ومعاناته مع ذوي رحمه يسترشد النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدُلَّه إلى ماذا يصنع؟ فقال له النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ**».

«المَلَّ»: الرَّماد الحارُّ الَّذِي يُحْمَى ليُدفن فيه الخبز لينضج، أي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٨).

تجعله لهم سفوفًا يسفونه.

وهذا فيه بيان فضيلته عليهم، وما يجنيه هؤلاء من ملاقاتهم لهذا الوصل بالقطيعة، فحالهم كحال من يَسفُّ رمادًا حارًّا، أَمَّا الواصل فلا يضره شيء من قطيعتهم، بل له الفضيلةُ، وثوابُ الله وتأييده تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهذا قال: «**وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»؛ أي: لا يزال لك مِنَ الله معونةٌ وتسديدٌ وتأييد وحفظ، وفيه: دليل على حُبِّ الله عَزَّوَجَلَّ للواصل ومكانته عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ، لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ**»، رواه أحمد(١).

هذا باب رفيع من أبواب الخير، ومنزلةٌ عليَّة من منازل صلة الرَّحِم؛ بأن يكون الإنسان من شدَّة عنايته بصلة الرَّحِم أن يصل ذا الرَّحِم الظَّالم، أي: من عُرف بالظَّلم سواء له أو للآخرين؛ لأَنَّ صلته قد تكون سببًا في امتناعه عن ظلمه، أو خِفَّة حِدَّة ظلمه، وإطفاء جمرة شَرِّه وأذاه، بخلاف ما إذا قُطع رُبَّمَا زاد الشُّرُّ شرًّا، والأذى أذًى، وصلة ذي الرَّحِم الظَّالم هو عملٌ بقول الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصِّلت: ٣٤].

وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»، متَّفق عليه[1].

وهـذا فيه بيانُ عِظَمِ إثـمِ القاطع، وتحذيرٌ شديد مِنَ القطيعة، وأَنَّهَا شُؤْمٌ كُلُّهَا، ومَضَرةٌ كُلُّهَا، وعواقبها على القاطع وخيمة في الدُّنْيَا والآخرة؛ فهي موجبةٌ للخسران، ومعقِبةٌ للحرمان في الدَّارين.

والنَّفي في قوله: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**» للتَّأبيد إن كان مستحلًّا، وللدُّخـول ابتداءً إن كان متهاونًا بهذا الأمر مفرِّطًا في هذا الواجب، مضيِّعًا لهذه الطَّاعة الَّتِي أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها، وإِنَّمَا يدخلها دخولًا مُتَأَخِّرًا بعد غيره من أهل المنافسة في الخيرات والمحافظة على الطَّاعات والبعد عَنِ المعاصي والآثام.

ورُبَّمَا مرَّ بمرحلة تعذيب قبل الدُّخول؛ لأَنَّ أصحاب المعاصي -الَّتِي هي دون الشِّرْك والكفر بالله تعالى- أمرهم يومَ القيامةِ وشأنهم أَنَّهُم تحت مشيئة الله؛ فإِنْ شاء عذَّبهم وإِنْ شاءَ غفرَ لهم، وإِنْ عذَّبَهم فَإِنَّهُم لا يُخلَّدون في النَّار؛ لأَنَّ الخلودَ في النَّار للكُفَّارِ والمشركين.

وعن أبي أَيُّوبَ سُلَيْمَان مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ: جَاءَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: أُحَرِّجُ عَلَى كُلِّ قَاطِعِ رَحِمٍ لَمَا قَامَ مِنْ عِنْدِنَا، فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ حَتَّى قَالَ ثَلَاثًا، فَأَتَى فَتًى عَمَّةً لَهُ قَدْ صَرَمَهَا مُنْذُ سَنَتَيْنِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا.

قَالَتِ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَسَلْهُ: لِمَ قَالَ ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللَّفظ له.

«**إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **عَشِيَّةَ كُلِّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يَقْبَلُ عَمَلَ قَاطِعِ رَحِمٍ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

لم يُحِبَّ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الوقت الَّذِي تُعرض فيه الأعمال على الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون بينهم قاطع، وأراد بذلك أن يُنبِّه الحاضرين إن كان فيهم قاطع أن يترك القطيعة، ولهذا قام أحدهم تائبًا ووصل عمَّته الَّتِي كان قد صرمها لمُدَّة سنتين.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[(٢)]، فإذا كان هذا بين عموم المسلمين، فكيف إذا كانَتِ الشَّحناء بين ذوي الأرحام؟! لا شَكَّ أَنَّ الأمرَ أعظمُ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «احْفَظُوا أَنْسَابَكُمْ، تَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّهُ لَا بُعْدَ بِالرَّحِمِ إِذَا قَرُبَتْ، وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةً، وَلَا قُرْبَ بِهَا إِذَا بَعُدَتْ، وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبَةً، وَكُلُّ رَحِمٍ آتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ صَاحِبِهَا، تَشْهَدُ لَهُ بِصِلَةٍ إِنْ كَانَ وَصَلَهَا، وَعَلَيْهِ بِقَطِيعَةٍ إِنْ كَانَ قَطَعَهَا»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

صلةُ الرَّحِم واجبةٌ ولا تَتِمُّ إِلَّا بمعرفة المرء لِنَسَبِهِ، وما لا يَتِمُّ الواجبُ إِلَّا به فهو واجبٌ؛ فإذا كان لا يعرف قرابته وذوي رحمه

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧٣)، وقال الألبانيُّ: صحيح الإسناد، وصحَّ مرفوعًا.

فكيف يصلهم وهو لا يعرفهم؟! فيجب على الآباء العناية بتعريف أبنائهم بذوي قراباتهم؛ لأَنَّ صلةَ الرَّحم واجبةٌ وهذا الواجب لا يَتِمُّ إِلَّا بمعرفة الإنسان لِنَسَبِهِ؛ فإذا كان لا يعرف قرابته وذوي رحمه فكيف يصلهم وهو لا يعرفهم؟!

قولُه: «فَإِنَّهُ لَا بُعْدَ بِالرَّحِمِ إِذَا قَرُبَتْ، وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةً، وَلَا قُرْبَ بِهَا إِذَا بَعُدَتْ، وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبَةً»؛ أي: لا بُعد بالرَّحم إذا قُرِّبت ووصلت وإن كانت بعيدة؛ لأنَّ البعدَ -كما يقال- في القلوبِ؛ فإذا كانَتِ القُلُوبُ قريبةً ومتآلفةً فليس هناك بُعْدٌ.

ولهذا إذا كان بين المرء وبين بعض ذوي رحمه الَّذِين تجمعه بهم قرابة بعيدة تواصل فإنَّه يحسُّ بقربٍ شديد منهم، وإذا كانوا من ذوي رحمه القريبين ولكِنْ ليس بينه وبينهم تواصل يشعر أَنَّهُم بعيدون عنه.

قولُه: «وَكُلُّ رَحِمٍ آتِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ صَاحِبِهَا، تَشْهَدُ لَهُ بِصِلَةٍ إِنْ كَانَ وَصَلَهَا، وَعَلَيْهِ بِقَطِيعَةٍ إِنْ كَانَ قَطَعَهَا». فالرَّحِم يومَ القيامةِ إِمَّا شاهدة لصاحبها أو شاهدة عليه؛ إن كان واصلًا شهدت له بالصِّلة وقد رضيت أن يصلَ ربُّ العالمين مَنْ وصلها، وإن كان قاطعًا شهدت عليه بالقطيعة وقد رضيت بأن يقطعَ ربُّ العالمين مَنْ قطعها، وقد أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ ذلك كما تقدَّم.

❀ ❀ ❀

(٦)

رحمة العيال

إنَّ الإسلامَ دِينُ الرَّحمةِ، ونبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وفي «صحيح مسلم» قال ﷺ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(١)، وفي التِّرمذيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(٢).

وفي «الصَّحيحين»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(٣)، وفي «الصَّحيحين» قال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»(٤)، ورحمة الإسلام رحمة عامَّة شاملة للعالمين.

وحديثنا عن نوعٍ مهمٍّ عظيمٍ في باب الرَّحمة؛ أَلَا وهو رحمة الوالد لولده، فإِنَّهَا أساسُ الأُبُوَّة وأصلُها، ومرتكزُ التَّربية وقاعدتُها، فإذا وُجدت الرَّحمة في قلوب الآباء والأُمَّهاتِ حلَّتِ الخيراتُ، وتوالَتِ البركاتُ، وتحقَّقَتِ المصالحُ الكبيراتُ، والمنافعُ العظيماتُ؛

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٢٨٤، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

بِـرًّا، ووفـاءً، وإحسـانًا، واستقامةً على طاعة الله بـإذن ربِّ الأرض والسَّماوات.

فإنْ نُزعَتِ الرَّحمةُ من قلب الوالد حلَّ الشَّقاءُ، وتوالى العناءُ، وتفرَّق الأبناءُ، وكثُرَتِ الشِّدَّة واللأواءُ، وفي الحديث: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ**»[(١)]؛ وهذا فيه إلماحةٌ إلى أَنَّ انتزاعَ الرَّحمةِ موجبٌ للشَّقاء، وسببٌ لحلوله، ولهذا فإِنَّ أعظمَ ما يكون في باب التَّأديب والتَّربية للأبناء؛ أن تقام على الرَّحمة والرَّأفة بهم، والتَّودُّد والتَّلطُّف والإحسان إليهم؛ فإِنَّهَا ركيزةٌ عظيمةٌ، وأصلٌ متينٌ لا بُدَّ منه في هذا الباب.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**»[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِس أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**»، متَّفق عليه[(٣)].

إِنَّ قُبلةَ الصِّبيانِ ومؤانستَهم ضمًّا وحملًا ومُداعبةً؛ داخلةٌ في جملة الرَّحمة الَّتِي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القلوب نحوهم، فهي نوع مِنَ الرَّحمة لهم والعطف والحُنُوِّ عليهم، ونوعٌ من إدخال السُّرور والأُنْس على قلوبهم، فلها شأن ومكانة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٢)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) واللَّفظ له.

أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ -وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ»، رواه البخاريُّ(١).

وعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاضِعًا الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ**»، متَّفق عليه(٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا، فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ. قَالَ عَمْرٌو: فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ**»، رواه مسلم(٣)، «وظئرين»: أي: مرضعتين.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا**»، رواه البخاريُّ(٤)، أي: الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقولُ الأعرابيِّ: «تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ» قاله مستغربًا متعجِّبًا لمَّا رأى النَّاس يُقبِّلون صبيانهم، فسأل هذا السؤال؛ فهو حسب فهمه أمر عجيب غريب لا يُفعل، ثُمَّ أخبر عن نفسه وعن ذويه فقال: «فما نُقَبِّلُهُم»؛ أي: أَنَّنَا اعتدنا ألَّا نُقبِّل الصِّبيان، يفعلون ذلك أنفةً، كَأَنَّهُم يرون أن تقبيلَ الصِّبيان لا يليق بمقامهم، وأَنَّ فيه انتقاصًا لقَدْرِهم.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَأَمْلِكُ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**»؛ أي:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢٢) واللَّفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٧٥٣، ٥٩٩٤).

لا أملك دفع ذلك عنك، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قدَّر أنَّ الرَّحمة منزوعةٌ من قلبك فلا أملك دفع ذلك، فالأمر لله مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ.

وهذا فيه بيان شناعة هذا الأمر الَّذِي أخبر به هذا الرَّجل عن نفسه وعن قومه، وأَنَّه يتنافى مع الرَّحمة الَّتِي ينبغي أن تكون في القلوب تجاه الصِّغار.

وفيه تنبيه إلى الارتباط بين الباطن والظَّاهر؛ الرَّحمةِ والقُبلةِ، فلَمَّا قال الرَّجُل: «فَمَا نُقَبِّلُهُم» هذا الظَّاهر من عملهم، وهو دليل على وجود خلل في الباطن، وهو انتزاع الرَّحْمة مِنَ القلب؛ لأَنَّ القُبلة للصَّغير نابعة عَنِ الرَّحمة له الَّتِي في القلب. ومَنْ كان يصف نفسه بأَنَّهُ لا يُقبِّل صبيانه أنفةً؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الرَّحمةَ منزوعةٌ من قلبه؛ لأَنَّهَا لو وُجدت في قلبه وُجدت آثارها.

وفي الحديث إشارة إلى ما دَلَّ عليه قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»، متَّفق عليه[(١)]؛ فالباطن إذا صلح بالرَّحمة والشَّفقة والحنان والعطف وُجدت آثاره، ومن هذه الآثار: تقبيل المرء لصبيانه.

ومثلُ هذا قصة الأقرع بن حابس عندما رأى النَّبِيَّ ﷺ يقبِّل الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال بالمناسبة: «إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ»، فقال ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**»؛ أي: إذا لم يكن في قلب المرء رحمةٌ بصبيانه فالجزاءُ من جنس العمل.

ولنتأمَّلْ في هذا المقام لندركَ عِظمَ شأن الرَّحْمَة في مقام التَّربية والتَّأديب قولَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، مع قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ**»(١)؛ أي: أنَّ الأصلَ في الوالد مع ولده أَنْ يكون رحيمًا بهم.

ولهذا فإنَّ جماعةً مِنَ المفسرين أوردوا هذا الحديث تحت هذه الآية في سياق بيان معناها وإيضاح مدلولها؛ تنبيهًا بذلك إلى عظم شأن الرَّحمة في مقام التَّأديب والتَّربية، وأنَّ انتزاعَ الرَّحمة مِنَ القُلُوب وأنْ يَحُلَّ محلَّها العُنْفُ والشِّدَّةُ موجبٌ للتَّفكُّك والشَّقاء كما سبق، وهذا فيه بيان أنَّ مَن يوفِّقه الله عَزَّوَجَلَّ لرحمة أبنائه فإنَّ ذلك موجبٌ لرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له؛ فإنَّ مَنْ يرحم يرحمه الله، ومَنْ لا يَرحم لا يُرحم.

وهذه الرَّحمة بالعيال والَّتِي منها تقبيل المرء لصبيانه لها آثارها التَّربويَّة والنَّفسيَّة على الطِّفل وعلى نشأته وبعده عَنِ النَّزعةِ العُدْوانيَّة والشَّرِّ، ولهذا جاء في السُّنَّة الصَّحيحة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الوصيَّةُ بالعدل بين الصِّبيان حَتَّى في القُبَل ونحوها من ضمٍّ، وإجلاسٍ في الحجر، وحمل على العاتق، ونحو ذلك.

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رجلًا كان عند رسول الله ﷺ فجاء ابن له فقبله وأقعده علي فخذه، وجاءته بنيَّةٌ له فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمَا**»، رواه البزَّار(٢).

ورواه ابن الأعرابيِّ في «معجمه»، ولفظه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ، فَجَاءَ ابْنُ الرَّجُلِ فَأَقْعَدَهُ الرَّجُلُ فِي حِجْرِهِ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣١٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البزَّار في مسنده (٦٣٦١)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢٨٨٣).

وَجَاءَتِ ابْنَتُهُ فَأَقْعَدَهَا إِلَى لَزْقِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا**»[١].

لأَنَّهُ إن لم يعدل بينهما رُبَّمَا أوجد بينهم حسدًا أو غِلًّا أو نزعات عُدْوانيَّة.

فمِنَ الرَّحْمَة بالأبناء العَدْلُ بينهم، والبُعد عَنِ الجور والحيف والظُّلم؛ لأَنَّ الأب إذا لم يعدل بين أبنائه أَوْجَدَ بينهم العداوةَ والتَّحاسُدَ والتَّباغُض، وإنْ عدل بينهم كان ذلك من أعظم أسباب تَوَادِّهِم وتراحمهم وبرِّهم به.

روى البخاريُّ في «صحيحه» عَنِ النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أباه نَحَلَهُ أرضًا، وأنَّ والدَته طلبت من أبيهِ أَنْ يُشهِدَ رسولَ الله ﷺ على ذلك، فلمَّا أتى رسولَ الله ﷺ قال له: «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا**»، فقالَ: لا، فقالَ ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**»[٢]، وفي روايةٍ: «**لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ**»[٣].

وفي روايةٍ عند مسلم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «**أَيسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي البِرِّ سَوَاءً؟**» قال: بلى، قال: «**فَلَا إِذًا**»[٤].

فهذا تحذيرٌ مِنَ الحَيفِ والظُّلم بين الأولاد، وبيانٌ لِمَا يُوَرِّثُهُ مِنَ العقوقِ وعدم الْبِرِّ والتَّقاطُعِ والتَّهاجُرِ بين الإخوان، وانتفاء التَّراحم بينهم.

وعن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبْطَأَ القَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا**

---

(١) أخرجه ابن الأعرابيِّ في معجمه (١٨٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢٨٨٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٦٢٣).

وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»، رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

في هذين الحديثين تحذيرٌ وترهيبٌ من مثل هذا العمل؛ أَلَا وهو عدمُ الرَّحمة بالصِّغار، ووصفُ مَنْ كان كذلك بـ«لَيْسَ مِنَّا»، وهذا يدُلُّ على خطورة هذا الأمر، وأَنَّهُ فعلٌ شنيعٌ شديدُ الخطورةِ.

ومن لطيف الأمثلة وجميلها في الرَّحمة بالصِّغار وملاطفتهم: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَ أُذُنَايَ هَاتَانِ، وَبَصُرَ عَيْنَايَ هَاتَانِ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا بِكَفَّيِ الْحَسَنِ، أَوِ الْحُسَيْنِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا- وَقَدَمَيْهِ عَلَى قَدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ارْقَهْ»، قَالَ: فَرَقِيَ الْغُلَامُ حَتَّى وَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْتَحْ فَاكَ»، ثُمَّ قَبَّلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ أَحِبَّهُ، فَإِنِّي أُحِبُّهُ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

فهذا الانبساط إلى الصِّغار بمداعبتهم ومؤانستهم وإدخال السُّرور على قلوبهم يثمرُ فيهم حبًّا للكبير وتوقيرًا واحترامًا وقبولًا، وشتَّان بين هذا وبين مَن يقول: «إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ»[(٤)].

وقد كان ﷺ يأخذ الصَّبيَّ في حجره ويتلطَّف به، حتَّى إِنَّ منهم مَنْ يبول على ثوبه، فلا يؤثِّر فيه ذلك، ولا يتغيَّر، ولا يغضب.

عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِابْنٍ

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٤٩).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

لَهَا لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ، فَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ، فَبَالَ. قَالَ: فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ نَضَحَ بِالْمَاءِ»، رواه مسلم[(١)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَبِيٍّ يَرْضَعُ فَبَالَ فِي حِجْرِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ»، رواه مسلم[(٢)].

وكان ﷺ يخفِّف الصَّلاة عند سماعه بكاءَ الصَّبيِّ وأُمُّه وراءه؛ رحمةً به وبأُمِّه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي، مِمَّا أَعْلَمُ لِوَجْدِ أُمِّهِ بِبُكَائِهِ**»، متفق عليه[(٣)].

يا أَيُّهَا الأبُ، ويا أَيَّتُهَا الأُمُّ، إنَّ رحمتَك بالصَّغير باب من أبواب الفوز برحمة الله لك، ولا تحْقِرَنَّ في هذا الباب شيئًا وإن قلَّ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَعْطَتْهَا عَائِشَةُ ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا تَمْرَةً، وَأَمْسَكَتْ لِنَفْسِهَا تَمْرَةً، فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ التَّمْرَتَيْنِ وَنَظَرَا إِلَى أُمِّهِمَا، فَعَمَدَتْ إِلَى التَّمْرَةِ فَشَقَّتْهَا، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ نِصْفَ تَمْرَةٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «**وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٤)].

فهذه امرأةٌ فقيرةٌ ليس لديها ما تَطعَمُه، فأتت عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأعطتها ثلاث تمراتٍ، فأعطت كلَّ طفلٍ من طفليها تمرةً، وأبقت

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٧١٠)، ومسلم (٤٧٠).
(٤) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

واحدة لنفسها؛ وهي جائعةٌ، وبحاجة للغذاء «فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ التَّمْرَتَيْنِ وَنَظَرَا إِلَى أُمِّهِمَا، فَعَمَدَتْ إِلَى التَّمْرَةِ فَشَقَّتْهَا، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ نِصْفَ تَمْرَةٍ» وبقيت هي على جوعها، مؤْثِرة طفليها على نفسها، وهذا مثال مِنَ الرَّحْمَة الَّتِي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأُمَّهات.

ولـمَّا أخبرت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبِيَّ ﷺ بنبأ هذه المرأة قال: «**وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا**»؛ أي: أنَّ هذه الرَّحمةَ العظيمة الَّتِي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأُمَّهَات هي سببٌ عظيم لرحمة الله تعالى بِهِنَّ.

فينبغي على المرأة أن تحتسب رحمتها لأولادها، وعطفها عليهم، وعنايتها بهم، وتربيتها لهم عند الله، ولا يضيع عند الله شيء، فإِنْ يسَّرَ اللهُ وصلح هؤلاء الأبناء وبرُّوها ورحموها وأحسنوا إليها؛ فهذا خير على خير؛ وإن كانوا بخلاف ذلك، فما عند الله لها مِنَ الخلف خيرٌ وأبقى.

ودعوة الوالد لأولاده مستجابةٌ، لا تُرَدُّ، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ**»(١)، وفي روايةٍ: «**وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**»(٢).

فمِنَ الرَّحمة بالأولاد كثرة الدُّعاء لهم بالخير، والحذر مِنَ الدُّعاء عليهم بالشَّرِّ، لاسيَّما في حالِ الغَضب، فلا يتعجَّلِ الوالدُ بالدُّعاء عليهم، فتُستَجاب الدَّعوة، ثُمَّ يندَم بعد ذلك النَّدامةَ الشَّديدةَ.

فقد حذَّرَنا رسولُنا الكريمُ ﷺ من ذلك فقال: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٧٥١٠)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.

مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»، رواه مسلم[(١)].

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَدْعُو عَلَى مَالِهِ؛ فَيَلْعَنُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَلَوِ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ لَأَهْلَكَهُ»[(٢)].

قال الشَّيخ عبدُ الرَّحمنِ السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من جهلِ الإنسان وعَجَلتِهِ حيث يدعو على نفسِهِ وأولادِه ومالِهِ بالشَّرِّ عند الغضب، ويُبَادر بذلك الدُّعَاء، كما يُبَادر بالدُّعاء في الخير»[(٣)].

الأولادُ نعمة عظيمة وهم زينة الحياة الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف:٤٦]، وقرَّة عَيْنِ الوالدين إنْ أطاعوا الله، ومن دعاء عباد الرَّحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤].

سُئِلَ الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية، فقال: «أَنْ يُرِيَ اللهُ العبدَ الْمُسْلِمَ مَنْ زَوْجَتِهِ، وَمِنْ أَخِيهِ، وَمِنْ حَمِيمِهِ طَاعَةَ اللهِ. لَا وَاللهِ مَا شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَنْ يَرَى وَلَدًا، أَوْ وَلَدَ وَلَدٍ، أَوْ أَخًا، أَوْ حَمِيمًا مُطِيعًا للهِ عَزَّوَجَلَّ»[(٤)].

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]، قال: «يَعْبُدُونَكَ وَيُحْسِنُونَ عِبَادَتَكَ، وَلَا يَجُرُّونَ عَلَيْنَا الْجَرَائِرَ»[(٥)].

وهم أمانةٌ عظيمة ومسؤوليَّة كبيرة أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برعايتهم

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).
(٢) أخرجه الطَّبريُّ في التَّفسير (١٧/ ٣٩٤).
(٣) تفسير السِّعديِّ (١/ ٤٥٤).
(٤) ذكره ابن كثير في التَّفسير (٦/ ١٣٢).
(٥) ذكره ابن كثير في التَّفسير (٦/ ١٣٢).

وتربيتهم وتنشئتهم على خصال الخير، وإبعادهم عن كُلِّ ما يؤدِّي إلى فسادهم وضياعهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [الفرقان:٧٤].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، متَّفق عليه[(١)].

فقولُه: «**مَسْؤُولٌ**»؛ تذكيرٌ بسؤال الله جَلَّجَلَالُهُ للعبد عن هذه الأمانات إذا وقف بين يديه يوم القيامة، بل قال بعضُ أهل العلم: «إِنَّ اللهَ يَسْأَلُ الْوَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ الْوَلَدَ عَنْ وَالِدِهِ؛ فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ لِلْأَبِ عَلَى ابْنِهِ حَقًّا فَلِلِابْنِ عَلَى أَبِيهِ حَقٌّ».

قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَدِّبِ ابْنَكَ فَإِنَّكَ مَسْؤُولٌ عَنْ وَلَدِكَ؛ مَاذَا أَدَّبْتَهُ؟ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ؟ وَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ عَنْ بِرِّكِ وَطَوَاعِيَتِهِ لَكَ»[(٢)].

فالله سبحانه كما أوصى الأبناء ببرِّ آبائهم والإحسان إليهم بقوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ [العنكبوت:٨]؛ فقد أوصى الآباء بالأبناء؛ تربيةً وتأديبًا، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النِّساء: ١١].

وقد أخبرنا نبيُّنا الكريم ﷺ أنَّ للوالدين تأثيرًا بليغًا على أبنائهم؛ في عقائدهم وأديانهم، فضلًا عن أخلاقهم وطِباعِهم، فقال: «**كُلُّ**

(١) أخرجه البخاريُّ (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩).
(٢) ذكره الواحديُّ في التَّفسير البسيط (٦/ ٢٢).

مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟»، متَّفق عليه(١).

وهذا مَثَلٌ بليغٌ محسوسٌ؛ فإِنَّ البهيمةَ تُنتَجُ في العادةِ والـمُشاهَدِ سليمة مِنَ العيوب والآفات، فليس فيها جدْعٌ أو قطعٌ في يَدِها أو أُذُنها أو رِجْلِها، وإِنَّمَا يحصُلُ ذلك من صاحِبِها أو راعيها، إِمَّا بإهمالهِ أو بفعلهِ مباشرةً.

فهكذا الابن فإِنَّهُ يُولد على الفطرة، فإذا تعلَّم الكذبَ، أَوِ الغِشَّ، أَوِ الفسادَ والانحرافَ، أو غيرَه مِنَ المنكرات؛ فإِنَّه لأمرٍ خارجٍ عَنِ الفطرة؛ إِمَّا أن يكون بسبب سوء التَّربية، أَوِ الإهمال فيها، أو بمُؤَثِّرٍ خارجيٍّ من أصحابِ السُّوء أو غيرهم مِنَ الخُلَطَاءِ.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَنْ أَهْمَلَ تَعْلِيمَ وَلَدِهِ مَا يَنْفَعُهُ وَتَرَكَهُ سُدًى فَقَدْ أَسَاءَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِسَاءَةِ، وَأَكْثَرُ الْأَوْلَادِ إِنَّمَا جَاءَ فَسَادُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْآبَاءِ وَإِهْمَالِهِمْ لَهُمْ، وَتَرْكِ تَعْلِيمِهِمْ فَرَائِضَ الدِّينِ وَسُنَنِهِ»(٢).

هذا، وإِنَّ الأولادَ ذكورًا كانوا أو إناثًا هبةُ الله وقسمتُه بين عباده، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورى: ٤٩-٥٠].

وفي حال كون هذه الهبة بنتًا فإِنَّ الإسلام يدعو إلى الإحسان إليها، والاهتمام بتربيتها، ورعايتها، وحسن تأديبها، لتنشأ امرأة صالحة صيِّنةً عفيفةً، ونعى على أهل الجاهليَّة وَأْدَهُمْ لها، وكراهيَّتهم لمجيئها، يقول

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٨٥) واللَّفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) تحفة المودود بأحكام المولود (١/ ٢٢٩).

تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النَّحل:٥٨-٥٩].

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا، قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»، متفق عليه(١).

وحضَّ على العناية بهنَّ تأديبًا وتربيةً وتعليمًا، وجعل ذلك من موجبات دخول الجنة والنجاة من النار.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**»، رواه أبو داود(٢).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ، رواه مسلم(٣).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ، أَوِ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَى اللهَ فِيهِنَّ؛ فَلَهُ الجَنَّةُ**»، رواه التِّرمذيُّ(٤).

وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه أبو داود (٥١٤٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣١).
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩١٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.

مِنْ جِدَتِهِ؛ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه ابن ماجه[(١)].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، يُؤْوِيهِنَّ، وَيَكْفِيهِنَّ، وَيَرْحَمُهُنَّ؛ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ: وَثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَثِنْتَيْنِ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٢)].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وعلى كُلٍّ فرعاية البنات وتربيتهنَّ فيه فضل عظيم وثواب جزيل، وفي هذه الوصيَّة بالبنات إبطالٌ لِمَا كان عليه أهل الجاهليَّة مع الأنثى، فحالهم معها شنيعة، وأخبارهم معها فظيعة، فإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى لم يطقْ ذلك واسْوَدَّ وجْهُهُ، وتَوَارَى مِنَ النَّاس من سوء الخبر عنده وعندهم، وبلغ الحال بكثير منهم إلى أن يَئِدَ الأنثى، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التَّكوير: ٨-٩].

فجاءت هذه الأحاديث النَّبويَّة العظيمة مدحضةً لهذه الجاهليَّة معظِّمةً من شأن البنات، حاثَّة على العناية بهنَّ، والفرحِ بمجيئهنَّ، والإحسانِ في تربيتهنَّ، وتنشئتهنَّ النَّشأة الصَّالحة؛ لينال المسلم هذا الثَّواب العظيم والأجر الجزيل.

ومصيبة النَّاس في هذا الباب تأتي من جهتين: إمَّا مِنَ الوقوع في جاهليَّة أهل الجاهليَّة من كراهية الأنثى وبُغض وجودها، أو من جهة تضييع الأنثى وعدم تربيتها والمحافظة عليها وتركها بدون تربية، فتضيع نَهْبًا للوحوش، وكُلٌّ مِنَ الأمرين غايةٌ في الخطورة، وتأتي هذه الأحاديث لتعالج ذلك كُلَّه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وأنَّ الواجبَ على مَنْ أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأنثى أَنْ يفرحَ بهذه العطيَّة، وأن يحمدَ الله على هذه الهبةِ، وأَنْ يسألَ اللهَ المعونةَ على القيام بهذه الأمانةِ، وأَنْ يُعنى بتربيتها وتنشئتها، وإصلاحها وتأديبها، إلى أَنْ تذهبَ إلى بيت زوجها وقد رُبيَّت التَّربيَّة الصَّحيحة، ونُشِّئت التّنشئة القويمة؛ لتكونَ عتقًا له وحجابًا مِنَ النَّار.

هذا، ومَنْ وُفِّق بصلاح أبنائه وهدايتهم واستقامتهم فليحمَدِ اللهَ، فهذا محضٌ منه وفضلُه سبحانه، ولا يَلتفتُ إلى ما بذل من أسباب، أو وُجِدَ عندَه مِنْ أساليبَ، فالْمِنَّة لله وحدَه.

قال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْأَدَبُ أَدَبُ اللهِ، لَا أَدَبُ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْخَيْرُ خَيْرُ اللهِ، لَا خَيْرُ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ»[١].

وقال نُمَير بن أَوْسٍ كانوا يقولون: «الصَّلَاحُ مِنَ اللهِ، وَالْأَدَبُ مِنَ الْآبَاءِ»[٢].

وفي هذا تسلية لكُلِّ مَنْ بذل مِنَ الصَّالحين جهودًا في إصلاح ولده فلم يصلحوا؛ فأجره فيما بذل لهم من نصح وتربية ثابتٌ عند الله، ولا يضيِّع سبحانه أجْرَ المصلحين، وفيه ذكرى لمَنْ أكرمه الله بصلاح ذُرِّيَّتِهِ أَلَّا ينظر إلى جهوده في تأديبهم وتربيتهم، فإِنَّمَا ذاك الصَّلاح والأدب فيهم محضُ فضلِ الله عليه وعليهم، له الحمدُ سبحانه أولًا وآخرًا، وله الشُّكرُ ظاهرًا وباطنًا.

❁ ❁ ❁

(١) ذكره القرطبيُّ في التَّفسير (٩/ ٤٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٩٢).

(٧)

حُقُوقُ الْجَارِ

إِنَّ هذه الشَّريعةَ المباركة -شريعةَ الإسلامِ- جاءت بمكارم الأخلاق، ورفيعِ الآداب، وجميل المعاملات؛ مِمَّا يدُلُّ على كمالها وشمولها وعظمتها، وتناولها لكُلِّ الجوانب والمصالح والحقوق، فَلِلَّهِ الحمدُ على ما مَنَّ وتفضَّل، ونسأله جَلَّ في عُلَاه أَنْ يوفِّقَنا أجمعين لحُسْنِ الاستمساك بآدابها الطَّيِّبة وأخلاقها العظيمة.

ومن هذه الآداب الكريمة والأخلاق الحسنة الَّتِي دعت إليها الشَّريعة: العنايةُ بحقِّ الجار، وما أدراك ما الْجَارُ؟! ذلك الَّذِي صارت داره قريبة من دارك، ومسكنه مجاوِرًا لمسكنك، ولك به لقاءاتٌ متعدِّدَات تراه ويراك.

فقد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له حقًّا حثَّ عباده عليه، وجاء عن نبيِّنا ﷺ أحاديثُ كثيرة في بيان حَقِّه وعِظَمِ شأنه، بل إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَرَنَ حَقَّه بحَقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّساء:٣٦].

ومَنْ كان مختالًا فخورًا لَنْ يَرْعَ لجارٍ حَقَّه، بل ولا لشيءٍ مِنَ الحقوق، لِمَا قام في قلبه من خُيَلَاءٍ وكِبْرٍ، وأَمَّا مَنْ كان مؤمنًا متواضعًا

مطيعًا لمولاه؛ فإنَّ لهذه الحقوق شأنًا في نفسه، ومكانةً في قلبه، يحرص على الوفاء بها.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيُوَرِّثَنَّهُ**»، رواه مسلم[(١)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»، متَّفق عليه[(٢)].

قولُه: «**مَا زَالَ**»؛ يفيد تكرُّرَ الوصيَّةِ من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لنبيِّنا ﷺ بالجار؛ بِرًّا، وإحسانًا، وإكرامًا، وقيامًا بحُقُوقِه، ومواساةً له، وعطفًا عليه.

«**حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»؛ أي: من كثرة الوصيَّة به ظننتُ أنَّه ينزلُ عليَّ وحيٌ مِنَ اللهِ بأن يكون للجار نصيبٌ من ميراث جاره؛ تأكيدًا وبيانًا لعظم مقام الجار وما له من حقوقٍ.

وهذا الْحَقُّ الَّذِي جعله اللهُ للجار سببه تجاور البيوت وتقارب المساكن، ودوام التَّلاقي والمشاهدة بحيث تتكرُّر يوميًّا، بخلاف غيره، فجارُك تراه كُلَّ يوم، بل قد تراه في اليوم مرَّاتٍ وكرَّات، وأيضًا قد تحتاج إليه أو يحتاج إليك، ولا يخفى أن ما يكون بين متجاوري الدُّور أكبرُ وأعمق مِمَّا يكون بين المتباعدة دورهم.

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**»، رواه أحمد[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٤).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).
(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٦)، والتِّرمذيُّ (١٩٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فأفضل الجيران عند الله وأعلاهم شأنًا خيرهم لجيرانه، أي: أكثرهم نفعًا وإحسانًا وصلةً لهم وتعاهدًا وقيامًا بالحقوق، وهذا فيه: الدَّعوة إلى العناية بحقوق الجيران احتسابًا وطلبًا لثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّ العبد إذا كان محسنًا لجيرانه، قائمًا بحقوقهم، موصلًا النَّفع إليهم، غيرَ مؤذٍ لهم؛ ثُمَّ كان جيرانُه دونَه في ذلك، أو على النَّقيض من ذلك؛ فهو خيرهم عند الله، وكفاه شرفًا وفضلًا ونُبلًا أن يفوز بهذه الخيريَّة، وأن ينالَ هذه المنزلة العليَّة.

وفي هذا تسلية للجار المحسن لجيرانه حَتَّى وإِنْ أساؤوا إليه؛ لِأَنَّهُ بإحسانه إليهم وقيامه بحقوقهم يطلب ثواب ذلك مِنَ الله لا منهم، ويصِلهم لأجْلِهِ سبحانه يريد الجزاء والشُّكور منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيه التَّنبيه إلى أهميَّة تعلُّم المسلم عمومَ حقوق الجيران المبيَّنة في السُّنَّة، والمحافظةِ عليها وتطبيقها، ليكونَ بذلك خيرَ الجيران عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإِنَّهُ إذا كان يجهلها؛ كيف يقوم بها وهو لا يدري ما هي؟! ففاقد الشَّيْءِ لا يعطيه.

وإذا كان خيرُ الجيران عند الله تعالى خيرَهم لجاره؛ فمفهوم المخالفة يدُلُّ على أَنَّ شرَّ الجيران عند الله شرُّهم لجيرانه، بأن يكونَ مؤذيًا لهم مسيئًا إليهم لا يأمنون بوائقه وشرَّه.

وقولُه: «**خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**» تشمل كُلَّ أبواب الخير؛ وهي كثيرة: كالمبادرة بالسَّلَام، وطلاقةِ الوجه، وحُسْنِ المقابلة، وطيب المعاشرة، والصِّلة بالطَّعام، والهديَّة، والزِّيارة، والسُّؤال، إلى غير ذلك من معاني الخير ومجالات الْبِرِّ.

عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ،**

وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الْجَارُ السُّوءُ، وَالْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضِّيقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ»، رواه ابن حِبَّان(١).

وعَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ: الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(٢).

لا ريبَ أنَّ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وسعادةِ العبد فيها أَنْ يُكْرَم بالجار الصَّالح، أي: الجيران الصالحين؛ لأَنَّهُ يستفيد من صلاحهم، ويكونون قدوة له ولولده في الخير، وعونًا له على الطَّاعة والصَّلاح، ويأمن بوائقهم ووصولَ الأذى من جهتهم، فهم غنيمةٌ ونعمة عظيمةٌ؛ حَتَّى إنَّ بعضَ العصاة يفرح بالجار الصَّالح ويَسعد به ما لا يسعد بالجار الَّذِي هو نظيره في العصيان؛ لعلمه بأَنَّهُ مأمونُ الجانب.

وجارُ السُّوء مِنَ النَّكد العظيم في الدُّنيا والشَّقاوة، -خاصَّة- في المكان الَّذِي يستوطن فيه المرء؛ كأن يبني بيتًا ويتعب في بنائه ويبذل فيه نفيس ماله، ثُمَّ يفاجأ بجار سوء أو جيران سوء، فلا يسعد في بيته و لا يرتاح فيه ولا يطمئنُّ على ولده وأهله وماله، وهذا مِمَّا يُتعوَّذ بالله منه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ، فَإِنَّ الْجَارَ الْبَادِي مُحَوَّلٌ عَنْكَ**»، رواه النَّسائيُّ(٣).

فجار السُّوء في دار المُقامة شرُّه دائم، ونكده مستمرٌّ، وأَمَّا جارُ

---

(١) أخرجه ابن حِبَّان في صحيحه (٤٠٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٦)، وقال الألبانيُّ: «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (٧٨٨٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٩٦٣).

السُّوء في السَّفر أَوِ المنازل المؤقتة، سُوؤه لا يتعدَّى ساعاتٍ، أو أيَّام، ثُمَّ يتحوَّل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**»، متَّفق عليه[١].

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**»، متَّفق عليه[٢]، وفي روايةٍ: «**فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»[٣].

ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الإيمانَ بالله الَّذِي هو المقصودُ المعبود الملتجَأ إليه سبحانه، وذَكَرَ الإيمان باليوم الآخر الَّذي هو دار الجزاء والحساب وملاقاة ثواب الأعمال ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧-٨].

وفي هذا تذكير بأَنَّ القلب إذا عُمر بهذين الأصلين صلَحَت الجوارحُ واستقامت على طاعة الله سبحانه.

وَيَجْمَعُ مَا يَنْبَغِي لِلْجَارِ مِنْ حُقُوقٍ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ:

الأَوَّل: أَنْ يُعْنَى بإكرام الجار والإحسان إليه، بما تعنيه هاتان الكلمتان من دلالةٍ، وهما مطلبان جليلان ينبغي أَنْ يُعنى بهما المسلم تجاه جاره، ولم يُحَدَّدْ نوعٌ معيَّنٌ مِنَ الإكرام والإحسان ليشمل كُلَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨) واللَّفظ له.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

إكرام وإحسانٍ مستطاع؛ ليكونَ ذلك بابَ تنافس بين الجيران، كُلٌّ بما تيسَّر له، وكُلَّمَا زاد الإحسان والإكرام عظُم الثَّواب والأجر.

الثَّاني: أَنْ يحرصَ على أَلَّا يصِل إلى جاره منه أيُّ أذًى، لا أذًى قوليٍّ، ولا أذًى فعليٍّ؛ لأَنَّ هذا يُعَدُّ تضييعًا لحقِّ الجار، وإساءةً إليه، وتعريضًا للنَّفس لعقوبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وإذا أراد العبد لنفسه ضابطًا في هذا الباب فلينظر إلى ما يُحِبُّ أَنْ يعامِلَه به جيرانُه، فليعامِلْهُم به، قال ﷺ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»، رواه مسلم[(١)]، وقال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، متَّفق عليه[(٢)]، وفي لفظ عند مسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ** -أَوْ قَالَ: **لِأَخِيهِ**- **مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»، رواه مسلم[(٤)].

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»، رواه البخاريُّ[(٥)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ،**

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (٤٥).
(٤) أخرجه مسلم (٤٦).
(٥) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٦).

وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْجَارُ، جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: «**شَرُّهُ**»، رواه أحمد(١).

فقد نفى ﷺ الإيمان عمَّن لم يأمن جاره بوائقه وتوعده بعدم دخول الجنَّة إعظامًا لحَقِّ الجار، وأنَّ إضراره من كبائر الذُّنوب، وإذا كان هذا بمجرَّد الخوف من بوائقه، فكيف بمَنْ فعل البوائق مع عدم أمن جاره منه؟!

وعن عَبْد اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**» فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]، متَّفق عليه(٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا بَائِقَةَ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَى بِامْرَأَتِهِ، فَالزِّنَى بِمِائَةِ امْرَأَةٍ لَا زَوْجَ لَهَا أَيْسَرُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الزِّنَى بِامْرَأَةِ الْجَارِ، فَإِنْ كَانَ الْجَارُ أَخًا لَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْ أَقَارِبِهِ انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ، فَيَتَضَاعَفُ الْإِثْمُ»(٣).

عن الْمِقْدَادِ بن الأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟**» قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ**». قَالَ: فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٨٧٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦).

(٣) الجواب الكافي (١/ ١١٢).

السَّرِقَةِ؟» قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «**لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ**»، رواه أحمد(١).

سألَهم ﷺ عَنِ الزِّنا مع إدراكهم لحرمته وخطورته لينبِّه على أمر غاية في السُّوء والخطورة، قَالُوا: حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ**»؛ لأَنَّ الجار له مِنَ الحرمة والحَقِّ والذِّمَام ما جعله الله له في كتابه ووصَّى به جِبْرِيلُ رَسُولَ الله ﷺ غايةَ الوصيَّةِ.

وعلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ الإيمانَ بالله واليوم الآخر بإكرامه والإحسان إليه، وأَنْ تُحفظَ حرمته، وأَنْ يدفعَ عنه، بل لو حاول أحدٌ أن يعتدي على حرمة جاره فهو أوَّل مَنْ يقوم مقامه في الذَّبِّ عنه والدِّفاع عنه، أَمَّا أَنْ يصل به الانحطاط واللُّؤْم والإساءة إلى أن يكون منه هذا الأذى والسُّوء؛ فهذا غايةُ الدَّنَاءة والخِسَّة، كما قال ﷺ: «**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ**».

فالأصلُ في الجار المسلم أن يأمنَه جارُه و يكونَ مطمئنًا من جهته على عرضه وماله، والأصل في الجار أن يكون ذا أمان مع جاره، فهو على معرفة بأحوال جاره في دخوله وخروجه فالاعتداء من مثله أيسر؛ لأَنَّهُ على اطِّلاع بخبايا البيت، بخلاف البعيد الَّذِي إن أراد سرقة الدَّار أَوِ الاعتداء على عرض فإِنَّهُ يحتاج إلى وقت لسبر أحوال تلك الدَّار.

وإذا كانت حليلةُ الجار من ذوي الرَّحِم فَقَدِ اجتمعت أمورٌ ثلاثة: الجِوَارُ، والإسلامُ، والقَرَابةُ، فيكون الجُرْمُ أكبرَ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٥٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (١٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ولهذا جاء في حديث يُروى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -وفي سنده مقال لكنَّ معناه صحيحٌ- أَنَّهُ قال: «**الْجِيرَانِ ثَلَاثَةٌ: فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ الْقَرِيبُ، لَهُ حَقُّ الْجَارِ، وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ: فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ: فَالْجَارُ الْكَافِرُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ**»(١)، فإذا اجتمعت جيرة وقرابة وإسلام، ثُمَّ تنتهك هذه الحقوق لا شكَّ أَنَّ الجُرْمَ مضاعف.

فالشَّريعةُ جاءت بالوصيَّة بالجار الأجنبي ولو كان كافرًا، فكيف بالمسلم القريب؟!

عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

وهذا مِنَ العمل بقول الله سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، فمعاملتهم بالحسنى وتقديمُ الهدية لهم وملاطفتهم مِنَ التَّأليف لهم، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يهديَهم بسبب ذلك إلى الإسلامِ.

وقد كان حقُّ الجارِ وحفْظُ عورتِه معروفًا لدى بعض أهل الجاهليَّة، يقول عنترة -وهو شاعر جاهليٌّ-:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

(١) أخرجه الطبرانيُّ في مسند الشَّاميِّين (٢٤٣٠).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٤٣).

وتجد في بعض ضعاف الدِّين مَنْ قد يختلس النَّظر إلى عورة جاره مستغلًا نافذته أو نحوها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مطَّلع عليه وعليم به، وإن خفي أمره على جاره.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلَانَةً تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**». قَالُوا: وَفُلَانَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصَّدَّقُ بِأَثْوَارٍ، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

فهذه المرأة تقومُ اللَّيلَ وتصومُ النَّهارَ ولها أعمال صالحة وتكثر مِنَ الصَّدقة إِلَّا أنَّها تؤذي جيرانَها بلسانها سبًّا لهم -مثلًا- واغتيابًا، ونحو ذلك من أنواع أذى اللِّسان.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فهذا وعيدٌ شديدٌ لمن كان بهذا الوصف يؤذي جيرانه بلسانه، وإذا اجتمع مع أذيَّته لهم بلسانه أذيَّتُه لهم بيده فهذا سوءٌ على سوءٍ، وشرٌّ على شرٍّ.

وإذا كان هذا وعيد لتلك المرأة مع ما عندها من عمل صالح ولم تؤذ جيرانها إِلَّا بلسانها، فكيف بمَنْ قلَّت أعماله الصَّالحة، فلم يكن من أهل قيام ليلٍ، ولا صيام نهارٍ، ومع ذلك يؤذي جيرانه بلسانه وبأعماله؟!

وقالوا عَنِ الثَّانية: «وَفُلَانَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ» فهي ليست معروفة بقيام اللَّيل «وتصَّدَّقُ بأثوارٍ»، ولفظه عند أحمد: «بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ»(٢)؛ أي: قِطعٌ قليلة مِنَ الأقط، لكِنَّهَا لا تؤذي أحدًا؟ كافَّةً نَفْسَها، حافظةً

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٩٦٧٥).

لِسَانَها ويدها، فقال رسول الله ﷺ: «**هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

وهذا فيه: عِظَمُ ثواب مَن صان لسانه وكفَّ يده، وقد ضمن النَّبِيُّ ﷺ لمن كان بهذه الصِّفة دخولَ الجنَّة، فعن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**»(١)، أي: عن إيذاء النَّاس، والجارُ من باب أولى.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ**»، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَقْتُلُ الْآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ**».

فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا، تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لَا عُقُولَ لَهُمْ**»، رواه ابن ماجه(٢).

هذا حديث ثابت عن نبيِّنا ﷺ فيه: بيان أنَّ السَّاعة لا تقوم إلَّا على الشِّرار، ولا تقوم إلَّا على مثل هذه الحال، فيبلغ المبلغ بالجار السُّوء إلى أن يقتل جاره، وأن يقتل أخاه وقريبه.

وهذا إضافة إلى ما فيه مِنَ العُدْوان على الدَّمِ المحرَّم بغير حَقٍّ؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن حِبَّان في صحيحه (٢٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فيه انتهاك لحرمة الجِوَار والقَرَابة، فهو عقوق وقطيعة، وشرٌّ وسوءٌ، ولا يصل إلى هذا إِلَّا مَنْ نُزعت عقولُهم وأُشربوا الفتن من سفهاءِ الأحلام أمثالِ الأنعام، الَّذِين يمرقون مِنَ الدِّين كما يمرق السَّهم مِنَ الرَّمية، حَتَّى يخرجَ آخرُهم مع المسيح الدَّجال في آخر الزَّمان.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي، فَقَالَ: «**انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ**»، فَانْطَلَقَ فَأَخْرِجَ مَتَاعَهُ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: لِي جَارٌ يُؤْذِينِي، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ**»، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: اللهُمَّ الْعَنْهُ، اللهُمَّ أَخْزِهِ. فَبَلَغَهُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ، فَوَاللهِ لَا أُؤْذِيكَ، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

قد يبلغ الأذى مِنَ الجار مبلغًا لا يُحتمل، فيُضطرُّ جارُهُ إلى شكايته إلى ولي الأمر حَتَّى يكفَّ أذاه، فهذا رجل قال للنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ لي جارًا يؤذيني، يسأل: ماذا يصنع؟

فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «**انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ**»، فانطلق فأخرج متاعه، أي: من أجل إظهار شناعة عمله ومبلغ أذاه، فأخذ النَّاس يدعون عليه، فأتاه جاره، وقال: ارجع إلى منزلك، فوالله لا أؤذيك.

فأرشده النَّبِيُّ ﷺ إلى أمر يستطيع أَنْ يتخلَّص به من أذية جاره بأن يفتضح أمره عند النَّاس فيكفَّ أذاه، ومَنْ يشتدُّ أذاه لجاره حَتَّى يضطرَّه إلى الخروج من داره مِنَ الأمورِ المؤذنة بهلاك المرء.

عن أبي عَامِرٍ الْحِمْصِيِّ قَالَ: كَانَ ثَوْبَانُ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلَيْنِ يَتَصَارَمَانِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَيَهْلِكُ أَحَدُهُمَا، فَمَاتَا وَهُمَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٤)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

الْمُصَارَمَةِ، إِلَّا هَلَكَا جَمِيعًا، وَمَا مِنْ جَارٍ يَظْلِمُ جَارَهُ وَيَقْهَرُهُ، حَتَّى يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ، إِلَّا هَلَكَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

أي: أنَّ مِن أسباب هلاك المرء وخسرانه: أن يؤذي جاره، ويقهره بحيث يخرج الجار من بيته مقهورًا بسبب أذيَّة جاره له؛ فيبحث عن مسكن آخر يَؤْوِي إليه لا يكون فيه أحد يؤذيه.

فالشَّريعة جاءت بالتَّأكيد على حفظ حَقَّ الجار وتجريم الإساءة له، أَوِ الاعتداء عليه، وأوصت به خيرًا إحسانًا وإكرامًا، وكُلَّما قربت دار الجار عظم حقُّه وتأكَّد.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «**إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا**»، رواه البخاريُّ[(٢)].

أي: إذا كانت الهدية لا تكفي إلَّا لجار واحد، أَمَّا إذا كانت تكفي لأكثر من جارٍ فإِنَّه يُعطِي منها مَنْ تيسَّر له من جيرانه.

وعن علقمةَ بنِ بَجَالَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَلَا يَبْدَأُ بِجَارِهِ الْأَقْصَى قَبْلَ الْأَدْنَى، وَلَكِنْ يَبْدَأُ بِالْأَدْنَى قَبْلَ الْأَقْصَى»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

فإذا كان عنده هدية واحدة لا يرسلها إلى جاره البعيد و يترك جاره القريب، بل يبدأ بالأدنى فالأدنى، ويبدأ بالأقرب بابًا.

وعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَارِ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٢٥٩، ٦٠٢٠).
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٠).

«أَرْبَعِينَ دَارًا أَمَامَهُ، وَأَرْبَعِينَ خَلْفَهُ، وَأَرْبَعِينَ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَرْبَعِينَ عَنْ يَسَارِهِ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

أي: أربعين دارًا مِنَ الجهات الأربع؛ مِنَ الأمام، والخلف، واليمين، واليسار، وإذا كان هؤلاء كُلُّهم في عداد الجيران فرُبَّما لا يستطيع أن يصلَ نفعه إلى كُلِّ هؤلاء، لذا فإِنَّهُ يبدأ بالأدنى فالأدنى.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٌ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي، فَمَنَعَ مَعْرُوفَهُ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(٢).

والمراد بغلق الباب دونه: أي: في حال احتياجه إليه ووجود فضل مِنَ الزَّاد عنده، فيمنع جاره منه، ويغلق بابه دونه، فيشتكيه إلى الله لمنعه معروفه، مع احتياجه إليه واستغناء جاره عنه.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُسَاوِرِ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُخْبِرُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(٣).

فلا يجوز للجار أَنْ ينامَ شبعان وعنده فضل زاد ثُمَّ يترك جاره ينام جائعًا، وهو يعلم به يتضوَّر جوعًا ولا يبالي به.

والنَّفي هنا لكمال الإيمان الواجب، فلا يُنفى الإيمان إِلَّا لترك واجب، ففيه أَنَّ مِنَ المحرمات أَنْ ينامَ المرء وعنده فضل زاد ويترك جاره يبيت جائعًا، أَمَّا إذا لم يكن عنده مِنَ الزَّاد إِلَّا ما يكفيه ويشبعه

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٠٩)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١١)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره».
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٢)، وقال الألبانيُّ: «إسناده حسن».

ويشبع ولده فلا يلحقه إثم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**»، متَّفق عليه[(١)].

أي: لا تستقلَّ شيئًا مِمَّا تقدِّمه لجاراتها من طعام، أو هدية، أو نحو ذلك، حَتَّى لو كان قليلًا، أو يسيرًا فعليها ألَّا تحقرَه؛ وفِرْسَن الشَّاة: هو ظِلْفُهَا، أي: ولو كان أمرًا يسيرًا ليس له اعتبار عند كثير مِنَ النَّاس.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

(٨)

كَفَالَةُ الْيَتِيمِ

إِنَّ من محاسن الشَّريعة وكمال الأخلاق الَّتِي دعت إليها: العنايةَ باليتيم، وهو مَن فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا يُتْمَ بعدَ البلوغ، ويَلحق به مجهول النَّسب فإِنَّهُ في حكم اليتيم لفقده لوالديه، بل هو أشدُّ حاجة من معروف النَّسب لعدم معرفة قريبٍ يلجأ إليه عند الضَّرورة، فمن يكفل طفلًا مجهولَ النَّسبِ فإِنَّهُ داخلٌ في الأجر المترتِّب على كفالة اليتيم.

وقد ذكر الله سبحانه اليتيم في كتابه في أكثر من عشرين موضعًا؛ يدعو فيها إلى الإحسان إليه ويحذِّر من ظلمه والاعتداء على أمواله، أو أكل شيءٍ من حقوقه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣]، فأكَّد على الإحسان إلى اليتيم كما هو متأكِّد للوالدين ولذي القربى.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحى:٩]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ: كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللهُ فَلَا تَقْهَرِ الْيَتِيمَ، أَيْ: لَا تُذِلَّهُ وَتَنْهَرْهُ

وَتُهِنْهُ، وَلَكِنْ أَحْسِنْ إِلَيْهِ، وَتَلَطَّفْ بِهِ»[١].

ولقد كان ﷺ كذلك فهو أرحم النَّاس باليتيم وأرأفُهم به، حَتَّى قال من عظيم شفقته على اليتيم ورحمته له: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ**».

عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، رواه البخاريُّ[٢].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ، أَوْ لِغَيْرِهِ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، رواه مسلم[٣].

وفي هذا إشارة إلى أَنَّهُ يكون مع النَّبِيِّ ﷺ في الجنَّة، ولا يعني ذلك أن يكون في درجته؛ لأَنَّ أعلى درجة في الجنَّة لا يَنَالُها إِلَّا رجلٌ واحدٌ وهي له ﷺ وحدَه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَيْنَ دَرَجَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَافِلِ الْيَتِيمِ قَدْرَ تَفَاوُتِ مَا بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى... وَيَكْفِي فِي إِثْبَاتِ قُرْبِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْوُسْطَى وَالسَّبَابَةِ إِصْبعٌ أُخْرَى»[٤]. اهـ.

فلو لم يأتِ في هذا البابِ إِلَّا هذا لكفى بيانًا لفضل كفالة الأيتام ورعايتهم والإحسان إليهم.

قال الحافظ أبو عمر بن عبد الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذِهِ فضيلةٌ عظيمةٌ إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٨١/ ٤٢٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٠٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٣).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٣٦).

كُلِّ مَنْ ضَمَّ يتيمًا إلى مائِدَتِهِ وأنْفَقَ عَلَيهِ مِنْ طَولِهِ، فَإذَا كانَ مع ذَلكَ مِنَ الَّذينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ، ثُمَّ استقامُوا؛ نالَ ذلك، وحَسْبُكَ بِهَا فضيلةً وقربةً مِنْ منزلِ النَّبيِّ ﷺ في الجنَّة، ولَيْسَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى فِي الطُّولِ وَلا فِي اللُّصُوقِ كَثِيرٌ، وَإِنْ كَانَ نِسْبَةُ ذَلِكَ مِنْ سعة الجنَّة كثيرًا»(١).

قال ابن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقٌّ على كُلِّ مُؤمنٍ يسمعُ هذَا الحديثَ أَنْ يرغبَ فِي العملِ به ليكونَ في الجنَّة رفيقًا للنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولِجَمَاعَةِ النَّبِيِّينَ والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- ولا منزلةَ عندَ اللهِ في الآخرة أفضلُ من مرافقةِ الأنبياءِ»(٢).

وكفالةُ اليتيم تكون بـ: الإنفاق عليه وكسوتِه، وأيضًا بتربيته وتأديبه وتنشئته على الصَّلاح والاستقامة، فليست الكفالة بإطعامه الطَّعام وتغذيته بدنيا وتوفير اللِّباس له فقط، بل وأيضًا بتغذيته الغذاء الرُّوحيَّ القلبيَّ بالتَّربية على الإسلام والتَّأدُّب بآداب الشَّريعة وأخلاق هذا الدِّين وتنشئته النَّشأة الصَّالحة، والأخذ بيديه ليسلك طريق الاستقامة والمحافظة على طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ** -وَأَحْسِبُهُ قَالَ:- **وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**»، متَّفق عليه(٣).

والأرملة: هي المرأة الَّتِي لا زوجَ لها؛ إمَّا لكونها لم تتزوَّج، أو لكونه مات عنها أو فارقها، وقيل: إنَّ الأرملةَ هي مَن مات عنها زوجها، وقد تكون أرملة ومعها منه أولاد.

(١) الاستذكار (٨/ ٤٣٤).
(٢) شرح صحيح البخاريِّ (٩/ ٢١٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

وسُمِّيت أرملةً: مِنَ الإرمال وهو الفقر، وذهاب مَنْ يُنفق عليها ويقوم على حاجتها وهو بَعْلُهَا، وإذا كان لها منه أولاد وترمَّلت فإِنَّ الحاجةَ عندها أشدُّ وأعظم؛ لأَنَّ الحاجة أصبحت لها ولأولادها، ولهذا بُوِّب لهذا الحديث عند غير واحد من أهل العلم: بباب السَّاعِي عَلَى الأرملةِ واليتيم.

قولُه: «**كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، فيه بيان أَنَّ هذا بابٌ من أبواب الجهاد العظيمة.

«**وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**» فيه: فضيلة مَنْ يسعى على الأرملة واليتيم، وأنَّ درجةَ مَنْ قام بذلك كدرجة الَّذِى يصوم النَّهار ويقوم اللَّيل.

قال ابن بَطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ عَجَزَ عَنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وعَنْ قيامِ اللَّيلِ، وصيامِ النَّهارِ؛ فَلْيَعْمَلْ بِهَذَا الحديثِ، ولْيَسْعَ عَلَى الأراملِ والمساكينِ، لِيُحشَرَ يومَ القيامةِ في جملة المجاهدين في سبيلِ اللهِ دون أن يخطوَ في ذلك خطوة، أو ينفق درهمًا، أو يلقى عدوًا يرتاع بلقائه.

أو ليحشرَ في زمرة الصَّائمين والقائمين، وينال درجتهم وهو طاعمٌ نهاره نائمٌ ليله أيَّام حياته، فينبغي لكُلِّ مؤمن أَنْ يحرصَ على هذه التِّجارة الَّتِي لا تبور، ويسعى على أرملة أو مسكين لوجه الله تعالى، فيربح في تجارته درجاتِ المجاهدين والصَّائمين والقائمين من غير تعبٍ ولا نصب، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ قسوةَ قلبِهِ،

(١) شرح صحيح البخاريِّ (٩/ ٢١٨).

فقال: «**امسح رأس اليَتِيمَ، وَأَطْعِمِ المِسكين**»، رواه أحمد[١].

يمسح رأسه تلطُّفًا وإيناسًا له، ويطعمه من طعامه فلا يؤْثر نفسه عليه بنفيس الطَّعام، فهو من الأسباب المخلصة من قسوة القلب.

وفيه أنَّ مَنِ ابْتُلي بداءٍ مِنَ الأخلاق الذَّميمة يكون تداركه بما يضادُّه مِنَ الدَّواء، فالتَّكبُّر يُداوَى بالتَّواضُع، والبخل بالسَّخاء، وقسوة القلب بالعطف والرَّأفة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ**»، رواه ابن ماجه[٢] وفي سنده مقال، لكنَّ معناه صحيحٌ، فلا شكَّ أنَّ مِن خيرِ البيوت البيت الَّذِي يُحسِن أهلُه فيه لليتيم ويقومون فيه على كفالته ورعايته والإحسان إليه، ويجعلونه مع ولدهم يرعونه كما يرعون ولدهم، فَإنَّ هذا خير عظيم ينال عليه صاحبه ثوابًا معجَّلًا في الدُّنيا، وثوابًا مؤجَّلًا يومَ القيامةِ.

فإذا قام الشَّخص بكفالة اليتيم في بيته محتسبًا للأجر، طالبًا ثواب الله عَزَّ وَجَلَّ وجعله مع أولاده وبينهم، ويرعاه رعايته لأولاده، ولا يميِّزه عليهم، ولا يُميِّز أولاده عليه، بل يُحسن إليه إحسانه لأولاده؛ فإنَّ هذا سببُ خير وبركة -بلا شكٍّ ولا ريبَ- لهذا البيت؛ لأَنَّ البركة مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا محسنٌ إلى هذا اليتيم محتسبٌ في ذلك ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأجرَه، فتكون كفالته هذه لليتيم عنده في بيته سببًا للبركة في البيت.

---

(١) رواه أحمد (٩٠٠٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٤٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٩)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٤٧٨٥).

ومِنَ الوقائع الَّتِي يُتَحدَّث بها وتُذكر قديمًا وحديثًا: أن مِمَنْ كفل يتيمًا في بيته ورعاه رعايته لأولاده كان له هذا اليتيم في كِبَره أفضل من ولده؛ عناية به، وإحسانًا إليه، ردًّا للجميل والإحسان، وهذه بركة وثواب معجَّل لكافل اليتيم في الدُّنْيَا، أمَّا ثوابه المؤجَّل في الآخرة فهو مرافقة النَّبِيِّ ﷺ في الجنَّة.

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كُنْ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ، وَرُدَّ الْمِسْكِينَ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ»، رواه ابن أبي الدُّنْيا في كتابه «النَّفقة على العيال»[١].

من شأن الأب الرَّحيم بأبنائه أنَّه رفيق بهم، عطوف عليهم، معاملٌ لهم بالحسنى، وإذا اضُطرَّ إلى تأديب أحد منهم فإِنَّهُ يؤدِّبُه وهو يستصحب رحمةً في قلبه له، ومَنْ كفل يتيمًا فإِنَّ عليه أن يصنع به كما يصنع بولده.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضُّحى:٩]. قال الشَّيخ عبدُ الرَّحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسَّر، واصنع به كما تحبُّ أن يُصنع بولدك من بعدك»[٢].

وإذا أردت أن تعرف ما هي أحسن معاملة تعامل بها اليتيم الَّذِي تكفله؛ فهي تلك المعاملة الَّتِي ترتضيها لولدك من بعدك، فما تحِبُّه لولدك أحبَّه لهذا اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النِّساء:٩]، بأن يعاملوهم بما يُحِبُّون أَنْ يُعَامَلَ به مِنْ بعدهم ذُرِّيَّتُهم الضِّعاف.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في كتاب النَّفقة على العيال (٦١٠).
(٢) تفسير السِّعديِّ (١/ ٩٢٨).

فقولُه: «كُنْ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ» تُعَدُّ قاعدةً في هذا الباب وأصلًا جامعًا في كفالة الأيتام وتربيتهم، بأن يعامِلهم معاملة الأبناء، ويعدَّهم مثل أبنائه، وقال: «كَالْأَبِ الرَّحِيمِ»، ولم يقل: كالأب فقط؛ لأَنَّهُ قد يكون في الآباء مَنْ هو غليظ حَتَّى مع أبنائه ليس فيه رحمةٌ لهم، أو رحمته لهم ضعيفة.

وعَنِ الْحَسَنِ: «أَنَّ يَتِيمًا كَانَ يَحْضُرُ طَعَامَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فَدَعَا بِطَعَامٍ ذَاتَ يَوْمٍ، فَطَلَبَ يَتِيمَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ بَعْدَمَا فَرَغَ ابْنُ عُمَرَ، فَدَعَا لَهُ ابْنُ عُمَرَ بِطَعَامٍ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ، فَجَاءَه بِسَوِيقٍ وَعَسَلٍ، فَقَالَ: دُونَكَ هَذَا، فَوَاللهِ مَا غُبِنْتَ» يَقُولُ الْحَسَنُ: «وَابْنُ عُمَرَ وَاللهِ مَا غُبِنَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[1].

هذا يُفيد أَنَّ ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان حريصًا على دوام ملازمة هذا اليتيم لطعامه، وإذا افتقده وقتَ الطَّعام فإِنَّهُ يسأل عنه، كما يُفيده قوله: «فَطَلَبَ يَتِيمَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ»، فجاء اليتيم بعدما فرغ ابن عمر مِنَ الطَّعام «فدَعَا لَهُ ابْنُ عُمَرَ بِطَعَامٍ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُم»؛ أي: أَنَّ الطَّعام الَّذِي كان مُعَدًّا قَدِ انتهى، «فَجَاءَهُ بسويقٍ وعسل» وقدَّمه له، ولاطفه بقوله: «فَوَاللهِ ما غُبِنْتَ»، قال هذا تطييبًا لخاطره وزيادة في الإحسان إليه، أي: ما خسرت بفوات الطَّعام الَّذِي طعمناه، فهذا الطَّعام الَّذِي قُدِّم لك طعام طيِّب.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وابنُ عُمَرَ وَاللهِ مَا غُبِنَ»؛ أي: أَنَّهُ رابح ربحًا عظيمًا لإحسانه لهذا اليتيم وكونه صاحب كرم ويدٍ معطاءة، وكانت هذه عادة لابن عمر لا يأكل الطَّعام إِلَّا وقد أشرك يتيمًا معه في أكله.

---

(١) أخرجه أحمد في الزُّهد (١٠٥١)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (١٣٤)، واللَّفظ له.

فعن أَبي بَكْرِ بن حَفْصٍ: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ كَانَ لَا يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا وَعَلَى خِوَانِهِ يَتِيمٌ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)]، ورواه الخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق» عن نافع قال: «كان ابنُ عمرَ لا يَأْكُلُ طعامًا، إِلَّا وعلى خِوانِهِ أيتامٌ»[(٢)]، والخِوان: ما يوضع عليه الطَّعام.

ففيه دليل على حرصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأيتام وإشراكهم في طعامه بحيث إِنَّه لا يأكل إِلَا وهم معه.

والله تعالى يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، أي: وهم في حال يُحِبُّون فيها المال والطَّعام، لكنَّهم قدَّمُوا محبَّة الله على محبَّة نفوسهم، ويتحرَّوْن في إطعامهم أولى النَّاس وأحوجهم مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، لا يريدون منهم جزاءً ولا شكورًا.

عن حَمْزَةَ بْنِ نَجِيحٍ أَبِي عُمَارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: «لَقَدْ عَهِدْتُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُصْبِحُ فَيَقُولُ: يَا أَهْلِيَهْ، يَا أَهْلِيَهْ، يَتِيمَكُمْ يَتِيمَكُمْ، يَا أَهْلِيَهْ، يَا أَهْلِيَهْ، مِسْكِينَكُمْ مِسْكِينَكُمْ، يَا أَهْلِيَهْ، يَا أَهْلِيَهْ، جَارَكُمْ جَارَكُمْ، وَأُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْذُلُونَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)].

أي: ينادي أهله ويستحثُّهم يقول: «يتيمَكُمْ يتيمَكُمْ»؛ أي: أحسنوا إليه وأكرموه وقوموا برعايته، وأَنَّ هذا سائدٌ فيمن لقيهم، يتواصَوْن برعاية الأيتام، وإطعام المساكين، والقيام بحقوق الجار.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه الخرائطيُّ في مكارم الأخلاق (٦٥٢).
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٣٩).

فقد كان عصر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زاهرًا بهذا الإحسان عامرًا برعاية الأيتام، فقد ثبت أَنَّ عددًا مِنَ الصَّحابة والصَّحابيات كفلوا أيتامًا ويتيمات ضمُّوهم إلى بيوتهم، وقاموا على رعايتهم والإحسان إليهم، فكانوا مأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، وهكذا الشَّأن في التَّابعين ومَنْ تبعهم بإحسان.

وعن أسماء بن عُبيد قال: قلتُ لابن سيرين: عندي يتيمٌ. قال: «اصْنَعْ بِهِ مَا تَصْنَعُ بِوَلَدِكَ؛ اضْرِبْهُ مَا تَضْرِبُ وَلَدَكَ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

أي: الَّذي تُحِبُّه وترتضيه لأولادك عامل به اليتيم الَّذي كفلته، فهذه قاعدة عظيمة جدًّا يُبنى عليها هذا الباب؛ تأديب اليتيم وتربيته وكفالته، وأَنَّهَا تكون برعاية اليتيم والإحسان إليه، كما يُحسن الإنسان لأولاده ويرعاهم.

وقوله: «اضْرِبْهُ مَا تَضْرِبُ وَلَدَكَ»؛ أي: إذا احتاج المقام إلى الضَّرب، والضَّرْب هو آخر الدَّواء، ولا يصار إليه أوَّلًا، بل لا يصار إليه إِلَّا بعد محاولات قبله ومحاولات، فيُرَبَّى ويُؤَدَّب ويُوَجَّه، ويُنْصَح ويُوعظ ويُذكَّر، ويُزْجَر وتستعمل معه أنواع الأساليب.

ثُمَّ إذا لم يَرْعَوِ ولم يستفدْ فإِنَّهُ يُضْرَبُ ضربَ رفقٍ وعطف ورحمة، لا ضربَ إضرار وإيذاء وبطش، فيعامله معاملة الأَبِ الرَّحِيم لأبنائه.

وعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ**»، وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللهِ وَأَيْتَامٍ فِي حِجْرِهَا، قَالَ: فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللهِ: سَلْ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجْرِي مِنَ الصَّدَقَةِ؟ فَقَالَ: سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٌ فَقُلْنَا: سَلِ النَّبِيَّ ﷺ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي؟ وَقُلْنَا: لَا تُخْبِرْ بِنَا، فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**مَنْ هُمَا؟**» قَالَ: زَيْنَبُ، قَالَ: «**أَيُّ الزَّيَانِبِ؟**» قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «**نَعَمْ، لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ**»، رواه البخاريُّ ومسلم(١).

فالمرأة الَّتي يموت عنها زوجها ولها منه أولاد ثُمَّ تقوم على رعايتهم، وكفالتهم، والقيام بالنَّفقة عليهم، والإحسان إليهم، وتربيتهم، وتأديبهم؛ لها ثواب عظيم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لقيامها على أيتامها.

ويجتمع لها في إنفاقها عليهم أجران: أجر الصَّدقة بإنفاقها على هؤلاء الأيتام والتَّقرُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العمل الصَّالح، وأجر صلة القرابة والإحسان إليهم.

قَالَ ﷺ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»، رواه النَّسائيُّ(٢).

ومَن جمع هذين الوصفين: الْيُتْمَ والقَرَابة؛ فإنَّ الإنفاق عليه مِنِ اقتحام العقبة، إذا كان ذلك في يوم جوع وشدَّة، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٦].

(١) أخرجه البخاريُّ (١٤٦٦)، واللَّفظ له، ومسلم (١٠٠٠).
(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٢٥٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها قَالَتْ: جاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاثَ تَمَراتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُما تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَها، فَاسْتَطْعَمَتْها ابْنَتاها، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَها بَيْنَهُما، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُها، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**»، رواه مسلم(١).

ورواه البخاريُّ ولفظه: عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْج النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: جاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتانِ تَسْأَلُنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «**مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(٢).

قولُه ﷺ: «**مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا**»؛ أي: يصير واليًا قائمًا على هؤلاء البنات بالنَّفقة والإعالة والكفالة والرِّعاية، وخصَّ البنات بالذِّكر؛ لأنَّهُنَّ أحوج وأضعف، وهو بعمومه يتناول مَنْ يلي بناته بالرِّعاية والتَّربية والإحسان، ومَنْ يلي اليتيمات رعاية وكفالة وإحسانًا.

ويتناول قيام الأرملة على يتيماتها كما هو حال هذه المرأة المسكينة، ولذا بوَّب له البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الأدب المفرد» بقوله: «باب فضل مَنْ يعول يتيمًا له»(٣).

هذا، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ أموال الأيتام، وحذَّر مِنْ أكلها ظلمًا،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٠).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٥).
(٣) الأدب المفرد (ص: ٥٩).

ورتَّب على ذلك أشدَّ العقاب، قال تعالى في موضعين مِنَ القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النِّساء:١٠].

ولـمَّا نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفًا على أنفسهم مِنْ تناولها، ولو في هذه الحالة الَّتِي جرت العادة بالمشاركة فيها، حَتَّى اشتدَّ عليهم الأمر، فسألوا النَّبيَّ ﷺ عن ذلك.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَـمَّا أَنْـزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وَ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ...﴾ [النِّساء:١٠] الآيَةَ، انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٢٠]، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ»، رواه أبوداود[(١)].

فبيَّن لهم: أنَّ المقصود إصلاحُ أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها، والاتِّجار فيها، وأن خلطتهم إيَّاهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضرُّ باليتامى؛ لأنَّهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النِّيَّة والعمل.

فمَنْ علم الله من نيَّته أنَّهُ مصلحٌ لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصدٍ لم يكن عليه بأس، ومَنْ علم الله من

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

نيَّته، أَنَّ قصدَه بالمخالطة، التَّوصُّلُ إلى أكلها وتناوُلُها، فذلك الَّذِي أثم وتعرَّض للوعيد.

ولذا كان طاوس إذا سئل عن شيءٍ من أمر اليتامى قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠](١).

وكان ابن سيرين أحبَّ الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع إليه نصحاؤه وأولياؤه فينظروا الَّذِي هو خير له(٢).

وقد عدَّ النَّبِيُّ ﷺ أكلَ مال اليتيم مِنَ السَّبع الموبقات. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**»، متَّفق عليه(٣).

وقولُه: «**وَأَكْلُ الرِّبَا**»، ذكر النَّبِيُّ ﷺ الأكل؛ لأَنَّهُ أعَمُّ وجوه الانتفاع، وليس المرادُ خصوصَ الأكلِ، بل كُلُّ استعمالات مال اليتيم حرامٌ، إلَّا ما فيه مصلحة له، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [النِّساء: ١٦١]، ولم يقل: أكلهم، والأخذ أعمُّ مِنَ الأكل، فأكل الرِّبا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل، أو البناء، أو المسكن، أو غير ذلك.

والواجب الإحسان إلى اليتيم؛ لأَنَّهُ فَقَدَ أباه وعَطْفَه، فيجب على

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٦٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٧٦٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

المسلمين أن يَسُدُّوا محَلَّ والده بالإحسان إليه ورعايته، وإن كان له مال فيجب أَنْ يحافظَ عليه حَتَّى يبلغَ الرُّشْدَ، فيسلم له ماله كاملًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ...﴾ [النِّساء:٦]، إلى أن قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النِّساء:١٠].

لأَنَّ اليتيم ضعيف لا يستطيع أن يدافع عن ماله، فإذا تسلَّط عليه ظالم وأكله فهذا من أعظم الظُّلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ**»، رواه ابن ماجه(١).

ولذا نهى النَّبِيُّ ﷺ مَنْ كان ضعيفًا أن يلي مال اليتيم، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»، رواه مسلم(٢).

وإِنَّمَا نهاه عن ذلك لِمَا رأى مِن ضعفه، وهو ﷺ يُحِبُّ هذا لكُلِّ ضعيف، أَلَّا يلي مال اليتيم حَتَّى لا يعرضه للخسارة والضَّياع.

هذا، ولا ضير على الإنسان أن يُولد يتيمًا وينشأ يتيمًا، بل قد يولد يتيمًا ويكبُر عظيمًا، فيكون من أفضل عباد الله وأتقاهم وأحسنهم قيامًا بطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ويكفي شاهدًا لذلك أنَّ سيِّد ولد آدم -صلوات الله وسلامه عليه-

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٦).

وإمام المتَّقين، وقدوة عباد الله؛ وُلد يتيمًا، مات أبوه وهو حمل في بطن أُمِّه، وكفله جدُّه عبد المطَّلب إلى سِنِّ الثَّامنة، ثُمَّ مات بعد سِنِّ الثَّامنة، وكفله عمُّهُ أبو طالب فنشأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتيمًا، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضُّحى:٦].

ولَعَلَّ مِنَ الحكمة في كونه ﷺ يتيمًا أَنْ يُعرف قدْرَ اليتامى، ويُعنى بحقوقهم وإصلاح شؤونهم، وقد يُظنُّ أنَّ اليُتْمَ نقصٌ في حقِّ المرء، فلَمَّا صار محمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبيًّا ورسولًا كان ذلك تغييرًا لهذا المفهوم.

وقد وُجِد في الأمة عظماء وأكابر في العلم والصَّلاح والنَّفع العامِّ للأُمَّة نشأوا أيتامًا.

وهذا فيه تنبيه لمَنْ يقوم على رعاية يتيمٍ ويحسن تأديبَه وتربيته، فما يدريك قد يكون إمامًا مِنْ أئمَّة المسلمين، أو من خيار المتَّقين وأفاضل عِبَاد الله، فيُكتب لك أجر تربيته وإصلاحه وتأديبه.

فهذا الإمام أحمد، والإمام الشَّافعيُّ، والأوزاعيُّ، والبخاريُّ رَحِمَهُمُٱللَّهُ، وغيرُهم كثير نشأوا أيتامًا وما ضرَّهم يتمهم لا في نشأتهم ولا في عاقبة أمرهم.

ذكر ابن الجوزيِّ في «مناقب الإمام أحمد» عن أبي سراج بن خزيمة -وهو مِمَّن كان مع أحمد في الكتَّاب- أنَّ والده خزيمة كان يعجب من أدب أحمد، وحسن طريقته، ويقول: أَنَا أُنْفِقُ على ولدي وآتيهم بالمؤدِّبين على أن يتأدَّبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلامٌ يتيمٌ انظر كيف يخرج؟ وجعل يعجب(١).

قال الحميديُّ: سمعت الشَّافعيَّ رَحِمَهُٱللَّهُ يقول: كنت يتيمًا في حجر

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزيِّ (١/ ٢٣).

أُمِّي، ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضي مِنِّي أن أقومَ على الصِّبيان إِذَا غابَ، وأخفِّف عنه(١).

وقال المُزَنيُّ، سمعت الشَّافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: حفظْتُ القرآنَ وأنا ابن سبع سنين، وحفظْتُ «الموطَّأ» وأنا ابن عشرٍ(٢).

وهذا الإمام الجليل ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأ يتيمًا، وفقد بصره قبل بلوغ العشرين، وهو من هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإمامة والفضل.

❁ ❁ ❁

(١) آداب الشَّافعيِّ ومناقبه لابن أبي حاتم (١/ ٢٠).
(٢) سير أعلام النُّبلاء (١٠/ ١١).

(٩)

حُقُوقُ الْعُمَّالِ

إنَّ دينَ الإسلامِ دينُ الإحسانِ والرَّحْمةِ والكرَمِ والأخلاقِ الكريمةِ، ويَنْأى بأهلِهِ وأتباعِهِ عن كُلِّ سلوكٍ ذميمٍ وتصرُّفٍ مَشِينٍ وأخلاقٍ سَيِّئةٍ؛ وينهضُ بهم في تعاملاتِهم وآدابِهم وأخلاقِهم وجميعِ شؤونِهم إلى محاسن الأخلاق وكريم الآداب.

ويُهَذِّبُ النُّفوسَ، ويُصحِّحُ المسار، ويُحسِّنُ التَّعاملَ بين عباد اللهِ؛ ويَحفَظُ فيها لكُلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فهو دين يحفظُ الحقوقَ ولا يضيِّعها، والموفَّقُ من عباد اللهِ مَنْ أكرمَه اللهُ جَلَّ وَعَلَا بالتَّحلِّي بأخلاقِ الشَّريعة الكاملة وآدابِها الفاضلة الَّتي فيها سعادةُ النَّاسِ وفلاحُهم في الدُّنْيا الآخرةِ.

وبابُ الحقوقِ بابٌ مباركٌ، حيث جاءت الشَّريعةُ فوضعتِ الأمورَ في محَالِّها، والتَّعامُلاتِ في مواضعِها، وجاءت بإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فليس في شريعةِ الإسلامِ حقوقٌ تُضيَّعُ، أو واجباتٌ تُهدَر إلَّا مِمَنْ ضعُفَ دينُهم ورقَّ إسلامُهم وضعُفَتْ صِلتُهم بربِّهِم جَلَّ وَعَلَا، أَمَّا مَنْ كان مُحافِظًا على دينِهِ، مُشْفِقًا من رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، مُجاهِدًا نفْسَه على تحقيقِ إسلامِهِ فإنَّهُ من أعظمِ النَّاسِ حفظًا لهذه الحقوق ورعايةً لها.

والحقوقُ في الإسلامِ كثيرةٌ؛ منها حقوقُ العُمَّالِ، وهو موضوع حديثنا هنا، والخِطَابُ فيه لكُلِّ مَنْ أكرمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فأصبح تحت يدِهِ عُمَّالٌ وخَدَمٌ يستعمِلُهم في مصالحَ مُتعدِّدةٍ ويستأجرهم لشؤونٍ متنوِّعة.

فإِنَّ الشَّريعةَ قد جاء فيها في هذا البابِ العظيمِ ما يُهذِّب الخلق بين المخَدومين وخادميهم والمستأجِرين وأجرائهم وأصحابِ الأعمال وعُمَّالهم.

وأعظمُ شيء في هذا البابِ أن يكون التَّعاملُ مع هؤلاء قائمًا على رحمةِ الإسلامِ، فإنَّ مَنْ لا يَرحَم لا يُرْحَمْ، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[١]، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**»[٢]، أي: مَنْ لا يرحم عبادَ اللهِ لا ينالُ رحمةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، والجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ؛ فمَنْ رَحِمَ عبادَ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فازَ برحمةِ اللهِ، ومِنْ لم يَرْحمْهم لم يَفُزْ برحمة اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

ومن أعظم الواجبات في هذا المقام: الحذرُ الشَّديدُ مِنَ الظُّلم؛ فإِنَّ الظُّلْمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، والواجبُ على الأغنياءِ وأهلِ اليَسار أنْ يتَّقُوا دعوةَ المظلومِ فإِنَّه ليس بينها وبين اللهِ حِجابٌ.

عن عبد الله بن أُنيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** -أَوْ قَالَ: **الْعِبَادُ**- **عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةَ**» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»، رواه أحمد[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والتِّرمذيُّ (١٩٢٤) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٧) واللَّفظ له، ومسلم (٢٣١٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٦٠٤٢) واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٩٧٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ويوضِّحُ ذلك الحديثُ الآخرُ -المشهورُ عند أهلِ العلمِ بحديثِ المفلسِ-.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(١).

إنَّ العاقلَ الحصيفَ المنْصِفَ مع نفسِهِ المريدَ لسعادتِها في الدُّنْيَا والآخرةِ يُحَاذِرُ أشدَّ الحذرِ مِنْ أَنْ يكونَ مِنَ المفْلِسين يومَ القيامةِ، ولا يستغلَّ قُدْرتَه على العُمَّالِ وقوَّتَهُ وتَمَكُّنَهُ من تضييعِ حقوقِهم أَنْ يُضيِّعَ حقوقَهم؛ فإنَّ الَّذي يَضِيعُ مِنَ الحقوقِ في الدُّنْيا لا يضيعُ يومَ القيامةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»، رواه البخاريُّ(٢).

فمَنْ كان هذا شأنه فرَبُّ العالمين جَلَّ وَعَلَا هو خَصْمُه يوم القيامةِ، ومَنْ كان خصمه اللهُ فما أعظمَ خُسْرانَه وما أشدَّ هوانَه!! وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خصمٌ لجميع الظَّالمين إلَّا أَنَّهُ أراد التَّشديد على هؤلاء بالتَّعيين، وأَنَّ هذه الخصالَ جرائم كبائر وخطايا عظام يتعيَّن الحذرُ منها.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْطُوا**

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٢٢٧).

الأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»، رواه ابن ماجه[(١)].

أي: ينشف عرقه؛ لأَنَّهَا أجرةٌ لتعب جسده وكدِّ بدنه، فإذا وفَّى وعجَّلها استحقَّ التَّعجيل، ومن شأن الباعة إذا سلَّموا السِّلَع قبضوا ثمنها عند التَّسليم فهؤلاء العُمَّال أحقُّ وأولى، إذ كان أجرُه ثمنَ مُهْجَتِهِ لا ثمن سلعته.

فيحرم مَطْله حقَّه والتَّسويف به مع القدرة، فالأمر بإعطائه قبل جفاف عرقه فيه تأكيد على وجوب المبادرة عقب فراغ العمل وإكماله مباشرة.

عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»، رواه البخاريُّ[(٢)].

وهذا الحديثُ في الأَرِقَّاء والعبيد، ولكِنْ يُلْحَقُ بهم -كما ذكر أهلُ العلمِ- الأجيرُ، والخادم، والسَّائق، ونحوُهم، وفي الحديث النَّهي عن سبِّ العبيد ومَنْ في معناهم وتعييرهم بآبائهم، والحثُّ على الإحسان إليهم والرِّفق بهم، وأنَّ التَّفاضُلَ الحقيقيَّ بين المسلمين إنَّمَا هو بالتَّقْوَى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قولُه: «**وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ**»، وفي رواية: «**وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ**»، هذا نظير قول شعيب لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أراد أَنْ يعمل له

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٠).

في رعي ماشيته: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ﴾ [القصص:٢٧]، فللعامل الحَقُّ في الرَّاحة؛ فلا يجوز لصاحب العمل أَنْ يُحَمِّلَه ما يشُقُّ عليه، أو يَضُرَّ بصحَّته، أو يجعلَه عاجزًا عَنِ العملِ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ**».

قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ**: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ [الأنبياء:٤٧] الآيَةَ». فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ لِي وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ، رواه التِّرمذيُّ(١).

فلْيُراجِعِ المرءُ نفْسَه في كُلِّ ما يتعامل به مع النَّاسِ؛ فإِنْ كان يمضي فيه بالتَّجوُّز والتَّخفُّف فالأمر كَفافٌ لا له ولا عليه، وإِلَّا فلْيَكُنْ في غايةِ اليقظةِ لِئَلَّا يُحَمِّل نفسَه من مَظالِمِ العبادِ ما يكون ندامةً يومَ القيامة، وأَنْ يُذكِّر نفسَهُ دائمًا بالوقوفِ بين يدي اللهِ وبالحِسَابِ، وأَنَّ الموازين تُنصَبُ يومَ القيامةِ، وتُؤدَّى الحقوقُ لأصحابِها، فيَبعَثهُ ذلك على أخذ الحيطَةِ والحذرِ، ومع ذلك يسأل رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائمًا النَّجاةَ والمعونةَ والتَّوفيقَ والسَّداد؛ فإِنَّ الأمر بيدِه وحدَه لا شريكَ له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى**

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣١٦٥)، وقال الألبانيُّ: «صحيح الإسناد».

أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»، رواه مسلم(١).

قد نرى شاة تنطح أخرى ونظُنُّ أَنَّ الأمرَ قَدِ انْتَهَى، وليس الأمرُ كذلك، بل إِنَّ هذه البهائمَ والوحوشَ والطَّيرَ والدَّوابَّ كُلَّها تُحْشَرُ يومَ القيامةِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التَّكوير:٥]، تُحْشَرُ ويُقتصُّ لبعضها من بعضٍ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ مع النَّبِيِّ ﷺ فنظرنا لِشَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟**» قلتُ: لَا أَدْرِي، قَالَ: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا**»(٢)، أي: يوم القيامة.

وهذا القِصَاصُ بين هذه الدَّوابِّ والوحوش والطَّير يومَ القيامةِ ليس من باب التَّكليف؛ لأَنَّها ليست مكلفة، ولكنَّه من باب إقامة العدل، وإظهاره وكماله في ذلك اليوم لجميع الخلائق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»، رواه البخاريُّ(٣).

لقد نصح نبيُّنا ﷺ أُمَّتَهُ نصحًا عظيمًا، وحذَّرهم مِنَ الظُّلم، وأخبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤٣٨)، وقال الألبانيُّ في الصَّحيحة (٤/ ١١٧): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٩).

أَنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فالواجبُ على العبدِ النَّاصحِ لنفسِه أَنْ يتقي الظُّلْمَ، وأَنْ يحذرَه أشدَّ الحذر.

ومَنْ أكرَمَهُ اللهُ ومَنَّ عليه بأنْ يسَّر له خَدَمًا وعُمَّالًا وسائقين، يستعملهم في مصالحه المتنوِّعة؛ عليه أَنْ يتذكَّرَ أَنَّهُم إخوانُه، ومَنْ كان أخوه تحت يده فالواجب عليه أَنْ يعاملَه أطيبَ معاملةٍ وأحسنَها، تحقيقًا للرَّابطةِ الإيمانيَّةِ والأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»، رواه مسلم(١).

وهذه المعاني السَّامية ليست مُخْتصة بطبقةٍ مِنَ النَّاسِ بل تشملُ جميعَ طبقاتهم: الأغنياءَ والفقراءَ، الأصحَّاءَ والمرضى، الخدم والمخدومين، وإذا استمسك المؤمنون بها تحقَّقتِ المصلحةُ للجميعِ.

وبابُ حفظِ الحقوقِ بابٌ عظيمٌ تترتَّبُ عليه خيراتٌ متنوِّعةٌ، وآثارٌ مُباركةٌ، يفوزُ بها مَنْ أدَّى هذه الحقوق في دُنياهُ وأُخراهُ، ومن ذلك أنَّ أداءَ حقوقِ العُمَّالِ يترتَّبُ عليها مِنَ المصالحِ والمنافعِ والخيراتِ؛ تيسُّرُ الأرزاقِ، وانشراحُ الصُّدورِ، وتيسُّرُ الأمورِ، والعونُ والتَّوفيقُ والتَّسديدُ من ربِّ العالمينَ، ويترتَّب على ذلك إجابةُ الدُّعاءِ، وتحقيقُ الرَّجاءِ، إلى غير ذلك مِنَ المصالحِ.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ**

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١١)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ، مِنَ الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ

الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»، رواه البخاريُّ[(١)].

فهؤلاء ثلاثةُ نفرٍ أطبقَتْ عليهم صخرةٌ في غارٍ ولو بقوا فيه محبوسين لأيَّامٍ قلائل هلكوا، فتوسَّل كلُّ واحدٍ منهم بقيامِهِ بالحقوقِ ووفائه بها؛ أمَّا أحدُهم فتوسَّل إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بقيامِهِ بحقِّ والديهِ، وأمَّا الثَّاني فتوسَّل إلى اللهِ جَلَّوَعَلَا بقيامِهِ بِحقِّ حِفظِ الأعراضِ وعدمِ انتهاكِها، وأمَّا الثَّالثَ فتوسَّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالوفاء بحقوق العُمَّال بتوفيَتِهِ للأجيرِ أجرَهُ بعد أنْ نمَّاهُ فكثر كثرة تُطمع النَّفس.

«**فَانْفَرَجَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ**»؛ وانفراجُ الصَّخرةِ دليلٌ على تيسُّرِ الأمورِ وانفراجِ الخيرِ وأبوابه وانفتاحِه للمحسنين القائمين بالحقوقِ على وجهِها المتمِّمين لها، وأنَّ هذا من أعظمِ الوسائلِ المقرِّبةِ إلى الله جَلَّوَعَلَا والمُكْسِبَةِ رضاهُ.

وأرقى تعامُلٍ مع الخادم عرفه التَّاريخ وأعلاه هو تعامُلُ النَّبِيِّ ﷺ قُدْوَةِ العَالَمِينَ معهم.

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، أَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي، فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَنَسًا غُلَامٌ كَيِّسٌ فَلْيَخْدُمْكَ، قَالَ: فَخَدَمْتُهُ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَوَاللهِ مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ: لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا؟»، متَّفق عليه[(٢)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٢٧٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩١١)، ومسلم (٢٣٠٩).

فَعَلْتَ كَذَا؟»، متَّفق عليه[(١)].

وعَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ، أَوْ ضَيَّعْتُهُ، فَلَامَنِي، فَإِنْ لَامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: «**دَعُوهُ، فَلَوْ قُدِّرَ** -أَوْ قَالَ: **لَوْ قُضِيَ**- **أَنْ يَكُونَ كَانَ**»، رواه أحمد[(٢)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، رواه أحمد[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخُلُقُ رسولِ اللهِ ﷺ القرآنُ، أكمل الأخلاق، وقد كان مِنْ خُلُقه أَنَّه لا ينتقم لنفسه، وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حَتَّى ينتقمَ لله، فيعفو عن حقِّه ويستوفي حَقَّ رَبِّهِ.

والنَّاسُ في الباب أربعةُ أقسامٍ: منهم مَنْ ينتصر لنفسه ولِرَبِّهِ، وهو الَّذي يكون فيه دين وغضب. ومنهم مَنْ لا ينتصر لا لنفسه ولا لِرَبِّهِ وهو الَّذي فيه جهل وضعف دين. ومنهم مَنْ ينتقم لنفسه؛ لا لِرَبِّهِ وهم شرُّ الأقسام. وأَمَّا الكامل فهو الَّذي ينتصر لِحَقِّ اللهِ ويعفو عن حَقِّه»[(٤)]. اهـ.

وقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعامل خدمه بما أرشده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليه في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، والعفو ما عفا من أخلاق النَّاس وما تَيَسَّر، أي: خذ مِنَ النَّاس ما تيسَّر

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٣٨)، ومسلم (١٦٢٣) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه أحمد (١٣٤١٨)، واللَّفظ له، وابن أبي عاصم في السُّنَّة (٣٥٤)، وقال الألبانيُّ: «إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه».
(٣) أخرجه أحمد (٢٥٩٥٦)، وقال الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢/ ٣٤) «إسناد صحيح على شرط الشَّيخين».
(٤) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٩).

من طباعهم وأخلاقهم، ولا تطلب أن يكونوا لك ما تريد في كُلِّ شَيْءٍ.

ومَنْ أراد أن يكونَ النَّاس له على ما يريد في كُلِّ شيء فاته كُلُّ شيء، ولكِنْ يأخذ ما تيسَّر فإنْ جاءَ على ما يُحِبُّ فبها، وإِنْ جاءَ على خلافِهِ فلا يغضب، هكذا كان خُلُقه ﷺ.

وكان ﷺ لشدَّة حيائه لا يواجه أحدًا بما يكره، بل تُعرف الكراهة في وجهه، كما في «الصَّحيحين» عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»[(١)].

وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خدم رسولَ اللهِ ﷺ عشر سنوات ومع طول هذه المُدَّة ما قال ﷺ له أفٍّ قَطُّ، ولا قال لشيء فعله: لم فعلت كذا؟ حَتَّى الأشياء الَّتِي يفعلها أنس اجتهادًا منه، ما كان الرَّسول ﷺ يؤنِّبه، أو يوبِّخه، أو يقول: لم فعلت كذا؟ مع أَنَّهُ خادم، وكذلك ما قال لشيء لم يفعله: لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا؟

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ**»، رواه البخاريُّ[(٢)].

قولُه: «**فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ**» وهذا تعليل لأنَّ الخادم وَلِي معالجة الطَّعام وإحضاره؛ فليطعمه منه لأَنَّهُ وَلِيَ هذا الأمر.

وقولُه: «**فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ**»، قد يكون الامتناع أحيانًا مِنَ الخادم؛ بأن يمتنع، أو يستحي، أو لا يرغب.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١٠٢) واللَّفظ له، ومسلم (٢٣٢٠).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٥٥٧).

فإذا لم يقبل الخادم -أو لم يحب صاحبه أن يطعم معه- فلا حرج عليه في ذلك، ولا يلزمه أن يجلسه معه على مائدته، لكِنْ الَّذِي يَجِبُ عليه أن يطعمه منه؛ فإنْ كان الطَّعام قليلًا أعطاه من قليله، وإن كان كثيرًا زاده.

وعن أبي العالية قال: «كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْتِمَ عَلَى الْخَادِمِ، وَنَكِيلَ، وَنَعُدَّهَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَعَوَّدُوا خُلُقَ سُوءٍ، أَوْ يَظُنَّ أَحَدُنَا ظَنَّ سُوءٍ»(١).

ومعنى «نَخْتِمَ عَلَى الْخَادِمِ»: أي: نعُدُّ عليه الأشياء، فإذا أرسله مثلًا بثلاثين درهمًا ليوصلها إلى مكان، أو لشخص، أو يشتري بها؛ فإِنَّهُ يعُدُّها عليه ويقول: هذه ثلاثين.

وفي هذا الختم فائدتان:

إحداها تتعلَّق بالخادم.

والأخرى تتعلَّق بصاحبه:

أَمَّا المتعلِّقة بالخادم: فهي أن يصان عَنِ الذَّنب، فلا تحدِّثه نفْسُه أن يذنب؛ لأَنَّهُ إن أذنب فذنبه مكشوف؛ لأَنَّ أمور مَنْ يعمل عنده مضبوطة يعرفها دائمًا بالعدد، بخلاف شخص لا يضبط الأمور، ولا يختم، ولا ينتبه لها، فإذا كان في الخادم شيء مِنَ التَّوجه السَّيِّءِ فإِنَّ نفْسَه ستحدِّثُه بالاختلاس؛ لأَنَّ مَنْ يعمل عنده لا يضبط الأمور.

وأَمَّا الفائدة المتعلِّقة بصاحبه: فهي أن لا يُسِيءَ الظَّنَّ بمَنْ يتعامل معهم سواء الخادم أو غيره، وهذا يستفاد منه أنَّ مِنَ الخير للمرء أن يضبط ما عنده كيفًا وعددًا حَتَّى لا يسيء الظَّنَّ بمَنْ يعملون عنده، ومَنْ يعملون عنده لا تحدِّثُهم نفوسُهم بالغلط؛ لأَنَّهُ يضبط ويختم.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قولُه: «كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْتِمَ عَلَى الْخَادِمِ، وَنَكِيلَ، وَنَعُدَّهَا»، كُلُّ هذا من باب ضبط الأمور ومعرفتها؛ فإنْ كان مكيلًا يكال، وإنْ كان معدودًا يُعَدُّ فتضبط الأمور ويكون التَّعاملُ مع الخادم -دائمًا- مضبوطًا.

قولُه: «كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَعَوَّدُوا خُلُقَ سُوءٍ»؛ أي: الخَدَم، حَتَّى لا يتخلَّق بخلق سوء؛ لأَنَّهُ إنْ وَجدَ مَنْ يتعامل معه لا يضبط الأمور فلرُبَّمَا دعته نفْسُه إلى خُلُق سوءٍ؛ إمَّا سرقة، أَوِ اخْتِلاس، أو شيء من هذا.

وقولُه: «أَوْ يَظُنَّ أَحَدُنَا ظَنَّ سُوءٍ»، فقد يكون الخادم بريئًا ومَنْ يتعامل معه لا يضبط الأمور، ثُمَّ قد تحدِّثه نفْسُه يومًا فيقول: لَعَلَّه أخذ، لَعَلَّه سرق، لكونه لا يضبط الأمور.

وعن سلمان قال: «إِنِّي لَأَعُدُّ الْعُرَاقَ عَلَى خَادِمِي مَخَافَةَ الظَّنِّ»(١).

والعُرُاق: جمع عَرق، وهو العظم الَّذي أخذ منه أكثر لحمه، أي: إذا أعطيته قطعًا مِنَ اللَّحم ليوصلها فإِنِّي أَعُدُّهَا «مَخَافَةَ الظَّنِّ».

وعَنِ الْمِقْدَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ وَزَوْجَتَكَ وَخَادِمَكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ**»(٢).

أي: إذا قَصَد بالنَّفقة عليهم طلب الثَّواب، واحتسب الأجر عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فبهذه النِّيَّة تكون صدقةً، ففي الحديث يقول ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(٣).

وأَمَّا إذا لم تكن بنِيَّة احتساب الأجر والثَّواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإِنَّهُ

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٦٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٩١)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (١٩٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (١) واللَّفظ له، ومسلم (١٩٠٧).

بها يسقط الواجب وتبرأ الذِّمَّة، أَمَّا نيل الأجر والثَّواب فلا يكون إِلَّا باحتساب الأجر، ولهذا جاء التَّصريح بهذا القيد في بعض الأحاديث، قال ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»(١).

أي: يحتسبها عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أجرًا وثوابًا، فإذا أنفق على مَنْ تلزمه نفقتهم وهو يحتسب نفقته عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُتبت له صدقة وأثيب عليها ثواب المتصدِّقين.

قولُه: «**مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ وَزَوْجَتَكَ وَخَادِمَكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ**».

تأمَّل عظيم المنِّ، وواسع فضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ منَّ عليك بالطَّعام وبالمال، ثُمَّ إذا أخذت طعامًا تشتهيه وشرابًا تحتاج إليه وطعمته تحتسب أجره عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ كُتب لك صدقة تؤجر فيها أجر المتصدِّقين.

ولهذا فالنِّيَّة الصَّالحة شأنها عظيم وفيها بركة لا يعلمها إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فعندما ينوي العبد في أعماله ودخوله وخروجه وقيامه وقعوده وأكله وشرابه ونومه وتعامله مع خدمه وعماله كُلُّ ذلك يحتسبه عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ فعندئذٍ تتبدَّل العادات إلى عبادات، ويؤجر عليها العبد ويثاب.

ومِنَ المواقف الجميلة في إكرام الخادم والاهتمام بأمره: قِصَّةُ زواج ربيعة بن كعب، خادم رسول الله ﷺ.

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا رَبِيعَةُ، أَلَا تَتَزَوَّجُ؟**» قَالَ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ: «**يَا رَبِيعَةُ،**

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٥١)، ومسلم (١٠٠٢) واللَّفظ له.

أَلَا تَتَزَوَّجُ؟» قَالَ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَمَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ، فَأَعْرَضَ عَنِّي.

قَالَ: ثُمَّ رَاجَعْتُ نَفْسِي، فَقُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَئِنْ قَالَ لِي الثَّالِثَةَ لَأَقُولَنَّ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ لِيَ الثَّالِثَةَ: «**يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَتَزَوَّجُ؟**» قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ أَوْ بِمَا أَحْبَبْتَ، قَالَ: «**انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلَانٍ** -إِلَى حَيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فِيهِمْ تَرَاخِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ- **فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقْرِئُكُمُ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُوا رَبِيعَةَ فُلَانَةَ** -امْرَأَةً مِنْهُمْ-».

قَالَ: فَأَتَيْتُهُمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ ذَلِكَ، قَالُوا: مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِرَسُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَا يَرْجِعُ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا بِحَاجَتِهِ، قَالَ: فَأَكْرَمُونِي وَزَوَّجُونِي وَأَلْطَفُونِي»، رواه أحمد والحاكم(١).

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٧٧)، والحاكم في المستدرك (٢٧١٧) واللَّفظ له.

(١٠)
صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ

إِنَّ مِنَ الأخلاقِ الرَّفيعةِ الَّتِي حثَّتْ عليها الشَّريعة: صُنْعَ المعروفِ وبذلَه، والإحسانَ إلى النَّاس، وأَنْ يعتَبِرَ المسلمُ هذا وظيفة له يوميَّة تتجدَّد معه بتجدُّدِ الأيَّام، وأَنَّ هذا من جملة الصَّدقات المطلوبِ مِنَ المسلم بذلُهُا كُلَّ يوم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ سُلَامَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»، متَّفق عليه(١).

وهذا كُلُّه من شكر النِّعمة، و من صدقة البدن، بأن جعل الله لعظام العبد مفاصلَ تقدر على القبض والبسط، والقيام والقعود، والصُّعود والنزول، وهي من أعظم نِعَم الله عليه.

وحَقٌّ على المُنْعَمِ عليه أَنْ يقابل كُلَّ نعمة منها بشكر يخصُّها، فيُعطي صدقةً كما أُعْطِي منفعة، وما ذُكر من إعانة الرَّجل في دابته يحمله عليها، أو يرفعُ عليها متاعه، والكلمةِ الطَّيِّبة، ودلالةِ الضَّال، هذه أمثلة تدلُّ على غيرها، وترشد إلى ما سواه من صنائع المعروف وأبواب الإحسان.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٩١)، واللَّفظ له، ومسلم (١٠٠٩).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**»، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**»، قَالَ: قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**»، قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، أَوِ الْخَيْرِ**» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**»، متَّفق عليه(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي هذا الحديثِ أَنَّهُ أوجبَ الصَّدقةَ على كُلِّ مسلمٍ، وجعلَهَا خمسَ مراتِبَ على البدل: الأولى: الصَّدقة بماله، فإنْ لم يجد اكتسب المال فنفع وتصدَّق، وفيه دليل وجوب الكسب؛ فإنْ لم يستطع فيعين المحتاج ببدنه، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يفعل فيكفَّ عَنِ الشَّرِّ. فالأوليان تقع بمال؛ إمَّا بموجود، أو بمكسوب، والأخريان تقع ببدن؛ إمَّا بيدٍ، وإمَّا بلسان»(٢).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**»، رواه البخاريُّ، ورواه مسلم من حديث حذيفة(٣).

فيه بيانٌ لمفهوم الصَّدقة الواسع، وأَنَّ الصَّدقة ليست مقتصرةً على بذل المال وإنفاقه، بَلِ الصَّدقةُ مجالها واسع؛ فكما أَنَّ الغنيَّ يتمكَّن مِنَ الصَّدقة على الفقير بالمال، فإنَّ الفقير يتمكَّن مِنَ الصَّدقة على الغني بأنواع مِنَ الصَّدقات؛ كأَنْ يلقاه بوجهٍ طليق، ويعاملَه بمعاملة طيِّبة، ويعينَه في أمر مِنَ الأمور، ويدعوَ له... كُلُّ هذا من مجالات المعروف وهي صدقات، ولهذا ثبت عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ يَصْنَعُهُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨) واللَّفظ له.
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٧٣).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠٢١)، ورواه مسلم من حديث حذيفة (١٠٠٥).

أَحَدُكُمْ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ فَهُوَ صَدَقَةٌ»[(١)].

وهذا يدفع المرءَ إلى الجدِّ والاجتهاد في بذل الخير؛ لأَنَّ مَنْ يقرأ الآياتِ والأحاديث الَّتِي فيها حثٌّ على الصَّدقة وترغيبٌ فيها وتتَحرَّك نفْسُه لذلك، وهو قليل المال أو عديمُه قد يَظُنُّ أَنَّهُ لا نصيب له ولا حظَّ من هذه الآيات والأحاديث لأَنَّهُ لا مال عنده يتصدَّق به.

وقد جال شيء من هذا المعنى في نفوس فقراء الصَّحابة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**»، متفق عليه[(٢)].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ**

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٠٨٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٥٥٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) واللَّفظ له.

صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»، رواه مسلم[(١)].

فالصَّدقة أوسع الأبواب، فلا تتوقَّف على وفرة المال والغنى، بَلِ الفَقِير له حظٌّ كبير منها، وهي متنوَّعة لأَنَّ طرق الخيرات كثيرة، فينبغي للعبد أن يبادرَ ويسارعَ في الخير، وكُلَّمَا فُتح له بابٌ منه سارع إليه، فيأخذ من كلِّ بابٍ منها بنصيب.

وقد تَعجَّب الصَّحابةُ مِنِ اتِّساع مجالات الصَّدقة حَتَّى شملت إتيان الرَّجُلِ أهلَه فقالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟» فبيَّن لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ لو كان قد وضعها في حرام أليس يكون آثمًا؟ فكذلك مَنْ لم يجعلها إِلَّا في الحلال فهو مأجور.

بل إِنَّ الأجرَ في هذا يتَّسع بحسب النِّيَّة، فإذا نوى به قضاء حقِّ الزَّوجة، ومعاشرَتها بالمعروف الَّذِي أمر اللهُ تعالى به، و طلبَ ولدٍ صالحٍ، وإعفافَ نفسِه، وإعفافَ الزَّوجةِ، ومنعَهما جميعًا مِنَ النَّظر إلى حرام والفكرِ فيه والهمِّ به، وغيرِ ذلك مِنَ المقاصد الصَّالحة؛ فكم له في ذلك مِنَ الأجور.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا مَا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ»، رواه الترمذيُّ[(١)].

وهذا أيضًا باب عجيب فُتح لمَنْ صُنعَ إليه معروف وهو لا يجد ما يكافئ به صانعَ المعروف، فالأنصار استضافوا المهاجرين وناصفوهم في أملاكهم وبيوتهم، وطعامهم وشرابهم، وأحسنوا إليهم إحسانًا عظيمًا، فقال المهاجرون للنَّبيِّ ﷺ: «لَقَدْ كَفَوْنَا -أي: الْأَنْصَارُ- الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ»، قالوا ذلك حرصًا منهم على الأجر والثَّواب.

فقال ﷺ: «لَا مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ».

فنبَّههم ﷺ أنَّ الفقيرَ يدرك بقوله ونيَّته ما يدركه الغني بفضول ماله، فإنَّ الأنصارَ بذلوا أموالًا كثيرة للفقراء المهاجرين، بل قاسموهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

حَتَّى خاف المهاجرون أَنْ يفضلوهم، ويفوتَهم ما يُعطَى الأنصار من أجور على نفقاتهم وبذل أموالهم، وهذا معنى قولهم: خفنا أن يذهبوا بالأجر كُلِّه؛ أي: الثَّواب، والله تعالى واسع غني لا تفنى خزائنه ولا يَنقص أجرُه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لَا»؛ أي: ليس ذلك كما تظُنُّون، أي: لا يفضلونكم ولا يفوتكم، فَإِنَّ دعاءكم الله لهم، وثناءكم عليهم يقوم منكم مقام نفقاتهم وبذلِ أموالهم، فتُعطَون على الدُّعاء والثَّناء مِنَ الأجر ما يُعْطَون على النَّفقة والبذل.

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٤٨٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَلْيُجْزِئْهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يُجْزِئهُ فَلْيُثْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ، فَكَأَنَّمَا لَبِسَ ثَوْبَيْ زُورٍ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

«**فَلْيُجْزِئْهُ**»؛ أي: فليكافئ مَنْ صَنَعَ إليه المعروف؛ ملاقاةً للإحسان بالإحسان وللمعروف بالمعروف، فالله تعالى يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، وإذا كان غيرَ مستطيع على المكافأة يثني على مَنْ كافأه خيرًا ويدعو له حَتَّى يَرى أَنَّهُ قد كافأه.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ**»(٢).

فالثَّناءُ عليه يتناول الدُّعاء له بظهر الغيب، ويتناول ذِكْرَه بالخير والإحسان، وأبلغ ما يكون الثَّناء أَنْ تقولَ: «جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا»، وقول بعض النَّاس في هذا المقام: «جزاك الله ألف خير» -بقصد تكثير المكافأة-؛ تضييقٌ لواسع؛ لأَنَّ كلمةَ «خَيْرًا» في «جزاك الله خيرًا» جاءت نكرةً في هذا السِّياق فتفيد كثرة الجزاء وعِظمه فلا يحصر بألفٍ، أليس قد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ**»؟!

عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُكُمْ مَا لَهُ فِي قَوْلِهِ لِأَخِيهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، لَأَكْثَرَ مِنْهَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ»(٣).

فما أعظم هذه الكلمة وأبلغها في الثَّناء على أهل المعروف

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١٣)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٢١٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٦٥١٩).

والإحسان؛ لِمَا فيها مِنِ اعْتِرَافٍ بالتَّقصير، وعجزٍ عَنِ الجزاء، وتفويضِ الجزاء إلى الله؛ ليجزيَهم أوفى الجزاء وأتمَّه، كما قال بعضُهم: إِذَا قَصُرَتْ يَدَاكَ بِالْمُكَافَأَةِ، فَلْيَطُلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ وَالدُّعَاءِ بِالْجَزَاءِ الْأَوْفَى.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(١).

أي: مَنْ صنع إليكم معروفًا قلَّ أو كثُر فكافئوه على معروفه؛ وذلك بإعطائه مِثْلَ ما أعطى، أو أحسن منه؛ مجازاةً لإحسانه، وإذا كان المرءُ ليس عنده قدرة ولا تمكُّنٌ فعليه أَنْ يجتهدَ بالدُّعاء لِمَنْ أحسن إليه والثَّناءِ عليه خيرًا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»، رواه أبو داود(٢).

وعَنِ الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ لِلَّهِ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ**»، رواه أحمد(٣).

وهذا الشُّكر هو جَزَاءٌ عَلَى ما يسَّره اللهُ على يديهم مِنَ الْخَيْرِ، حيثُ جعلهم -سبحانه- وسائطَ وأسبابًا في حصوله، وأوجب لهم بهذا الحَقِّ الشُّكْرَ، وجعل شكرهم مِنْ شكره -سبحانه-.

ويأتي في مقدَّم هؤلاء الرُّسُلُ والأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فهم الوسائطُ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٨٤٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٠٠٥).

بين الله وبين خلقه في بيان دينه وإرشاد عباده، ودلالتِهم عليه، وأوجبَ شكر الوالدين بقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إذ جعلهما سبب الإيجاد للولد والقيام على مصالح الولد تربيةً وتنشئةً.

وهكذا شكرُ العلماء، فقد جعلهم سببًا في تعلُّمِهم دينَ اللهِ لكونهم ورَّاثَ الأنبياء وحملةَ وظيفتهم، وشكرُ ولي الأمر إذ جعله سببًا للأمن في بلاده، والحكم بين عباده.

وهكذا إذا أنعم الله تعالى على المرء نعمةً بواسطة عبد من عباده في جلب نفعٍ أو دفع ضرٍّ؛ وجب عليه شكره، والمنعِمُ الحقيقي في ذلك كُلِّه هو الله تعالى، فوجب شكره تعالى على ذلك كُلِّه، ثُمَّ شكرُ مَنْ جعلهم -سبحانه- سببًا لوجود هذه النِّعم، وشكرهم مِنْ شُكْرِ اللهِ -سبحانه-، ومَنْ لا يشكرُهم لا يشكرُ اللهَ.

فالَّذِي لا يشكرُ النَّاس على ما يلقاه منهم من معروفٍ وإحسان لم يشكرِ اللهَ؛ لأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أمره بشكرهم ودعاه إلى ذلك فلم يشكرهم، فلا يكون بذلك شاكرًا لله تعالى؛ لأَنَّهُ لم يُطِعْ الله جَلَّوَعَلَا فيما أمره به، ولأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سخَّرهم وجعل المعروف الَّذِي وصل إليه من جهتهم، وأجراه له على أيديهم، فمِنْ شُكْرِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على نعمته أَنْ يَشْكُرَ مَنْ جعلَه اللهُ -تعالى- سببًا في وصولها.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى نَاسٍ جُلُوسٍ، فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ؟**» قَالَ: فَسَكَتُوا، فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا بِخَيْرِنَا مِنْ شَرِّنَا، قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨١٢)، والتِّرمذيُّ (٢٢٦٣) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

أي: أتريدون أَنْ أخبركم بما يُميِّزُ بين الفريقين؟ قالوا: بلى، قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ**»؛ أي: مَنْ يُؤَمِّلُ النَّاسُ الخيرَ من جهته ويأمنون الشَّرَّ من جهته، «**وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**»؛ أي: وشركم مَنْ لا يُؤَمِّلُ النَّاسُ حصولَ الخير لهم من جهته ولا يأمنون من شرِّه.

وإِنَّمَا يُرْجَى خيرُ مَنْ عُرِف بفعل الخير واشتُهر به، ومَنْ غلب خيره أَمِنَتِ القُلُوبُ من شرِّه، ومتى قوي الإيمان في قلب عبد رُجِي خيره وأُمن شرُّهُ، ومتى ضعُف؛ قلَّ خيرُه وغلَبَ شرُّه.

وقد ذكر النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث علامتين؛ الأولى لخير النَّاس، والثَّانية لشرِّهم.

فقوله: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ**»، هذه علامة الخيريَّة في الإنسان، أنْ يؤمِّلَ جلساؤه وأصحابه وجيرانه ورفقاؤه منه الخيرَ ويرجونه من جهته، وأيضًا يأمنون الشَّرَّ من جهته،

وقد صحَّ في الحديث عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «**الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»، رواه التِّرمذيُّ(١)، أي: يأْمنونه ولا يخافون منه شرًّا لِمَا عهِدوه عليه من صلاح، ولِمَا رأوا فيه مِنِ استقامة ومحافظة وبُعْدٍ عَنِ الشَّرِّ والفساد، فمَنْ كان بهذه الصِّفة فهو من خيار النَّاس.

وقولُه: «**وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**»؛ أي: أَنَّ النَّاس لا يتوقَّعُون من جهته خيرًا، ولا ينتظرون من مثله نفعًا؛ لأَنَّهُ لا يُعْرَف بعمل الخير، ولا يُعْرَف ببذل الخير وتقديمه.

وأيضًا في الوقت نفْسِه يُعْرَف بالشَّرِّ والأذى والعدوان، إِمَّا بالسَّبِّ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٢٧)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

والشَّتم، أَوِ الْغِيبَة والنَّميمة، أَوِ السُّخْرِية والاستهزاء، أو غيرِ ذلك، فمَنْ كان بهذه الصِّفة -والعياذ بالله- فهو شرُّ النَّاس.

ولهذا حَرِيٌّ بالمسلم أن يكون داعيًا لإخوانه المسلمين بالخير، محِبًّا الخيرَ لهم، مبتعدًا عن لعنهم وسبِّهم والوقيعة فيهم؛ إذ ليس ذلك من شأن المسلم ولا من خُلُقِه.

روى الحاكم، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**»(١).

وثبت في «الصَّحيحين» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٢)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وهذه أَقَلُّ أحوال المسلم إنْ لَم يكن داعيًا لإخوانه المسلمين، باذلًا الخيرَ لهم، ساعيًا في حاجتهم ومصالحهم، فلا أقلَّ مِنْ أَنْ يكونَ كافًّا عن أذيَّتهم وعن إيصال الشَّرِّ لهم.

وقد تقدَّم قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**»(٣).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «**تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**»، متَّفق عليه(٤).

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٩)، والحاكم في المستدرك (١٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠)، ومسلم (٤١).
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨) واللَّفظ له.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) واللَّفظ له.

ففي هذا دليلٌ على أَنَّهُ لا أقلَّ مِنَ الإمساكِ عَنِ الشَّرِّ إِنْ لَم يحصل مِنَ المسلم فعلُ الخير لإخوانه المسلمين، وتقديمُ المساعدة لهم.

ومَنْ منعَ نفْسَه عَنْ إيذاء الآخرين فقد تصدَّق على نفسه؛ لأَنَّ إيذاء الآخرين تضييق على النَّفْسِ؛ فإذا كَفَّ نفْسَه عن إيذاء الآخرين وسَّع على نفسه ورحمها بأَنْ كَفَّهَا عن إيذاء الآخرين فأعفاها مِنْ تَبِعَةِ الأذى وعواقبه.

ولهذا كان أَبو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِلنَّاسِ: «نَحْنُ أَعْرَفُ بِكُمْ مِنَ الْبَيَاطِرَةِ بِالدَّوَابِّ، قَدْ عَرَفْنَا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ. أَمَّا خِيَارُكُمْ: الَّذِي يُرْجَى خَيْرُهُ، وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَأَمَّا شِرَارُكُمْ: فَالَّذِي لَا يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَلَا يُعْتَقُ مُحَرَّرُهُ»(١).

ومثل هذا في المعنى حديثُ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: **«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»**، رواه ابن ماجه(٢).

فالنَّاس على قسمين:

قِسْم صَاحِبِ خَيْرٍ يفتح الخيرَ على نفْسِه وعلى النَّاسِ.

وقِسْم صَاحِبِ شَرٍّ يفتح الشَّرَّ على نفْسِه وعلى النَّاسِ.

وكُلٌّ ينفق مِمَّا عنده، وكُلُّ إناء بالَّذِي فيه ينضح؛ فمَنْ كان قلبه مُنْطَوِيًا على محَبَّةِ الخير وعلى حُبِّ شيوعه وانتشاره؛ فإِنَّهُ لا يفتح على نفسه وعلى الآخرين إِلَّا خيرًا، بخلاف الَّذِي ينطوي قلبُه على شرٍّ فهو

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٥٩)، وقال الألبانيُّ: «صحيح الإسناد موقوفًا، وقد صحَّ منه مرفوعًا جملة الخيار والشِّرار دون العتق».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

يفتح الشَّرَّ على نفسه وعلى الآخرين.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: «**أَمِطِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ. فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»(٢).

فشتَّان بين مَنْ يُمِيطُ الأذى عن طريقهم رحمةً بهم، وبين مَنْ يَضَعْه في طريقهم إيذاءً لهم.

وعَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوْءِ، وَالْآفَاتِ، وَالْهَلَكَاتِ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ**»، رواه الحاكم(٣).

أي: أَنَّ العبدَ يُبعث على ما كان عليه في الدُّنْيَا؛ فإن كان صاحبَ معروفٍ وبرٍّ وفَضْلٍ وإحسانٍ فإِنَّهُ يبعث على ذلك يومَ القيامة، وإن كان على خلاف ذلك فإِنَّهُ يبعث على ما كان عليه يومَ القيامة.

وهذا يدلُّ على مكانة اصطناعِ المعروف، وبذلِ الخير، ومعاونةِ النَّاس، والإحسانِ إليهم، والسَّعي في خدمتهم ومعونتهم؛ فإِنْ مَنْ كان كذلك فإِنَّهُ -لرحمته بهم وعطفه عليهم وإحسانه إليهم- يكون أَهْلًا يوم القيامة لأَنْ يكونَ شافعًا لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكما أَنَّهُ كان في الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٧) بنحوه، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٧٩٠).

صاحبَ معروفٍ على النَّاس وإحسان إليهم؛ فإِنَّهُ يوم القيامة يكونُ كذلك.

والمراد بكونهم أهلَ المعروف في الآخرة، أي: بالشَّفاعة، فيكونون أهلًا للشَّفاعة لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكما كانوا في الدُّنْيَا أهل معروف لهم بالرَّحمة والعطف والمواساة والإحسان وبذل الخير؛ فإِنَّهُم يكونون كذلك أهلَ معروفٍ إلى النَّاس في الآخرة بالشَّفاعة لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بخلاف -والعياذ بالله- مَنْ كان مؤذيًا للنَّاس في الدُّنْيَا حيث يؤذيهم بأفعاله و أقواله، فمَنْ كانت هذه حاله مع النَّاسِ في الدُّنْيَا لا يَكُفُّ أذاه عنهم لا يكون أهلًا يومَ القيامةِ لأَنْ يكونَ شفيعًا لهم عند الله؛ لأَنَّهُم لم يسلموا من شَرِّه وأذاه في الدُّنْيَا.

ولهذا صَحَّ في الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)]؛ لأَنَّ النَّاس لم يسلموا مِنْ أذاهم في الدُّنْيَا فكيف يكونون يوم القيامة شفعاءَ لهم عند الله؟! لم يرحموهم في الدُّنْيَا ولم يعطفوا عليهم بل آذوهم بالقول والفعل فهم ليسوا أهلًا يوم القيامة لأَنْ يكونوا شفعاءَ لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأهلُ المعروفِ في الدُّنْيَا ببذل الإحسان والجاه والمعونة والمساعدة والعطف والرَّحمة والدُّعاء للنَّاس بالخير هم أهل المعروف في الآخرة.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»، رواه مسلم[(٢)].

فيبعث كُلٌّ على ما كان عليه مِنْ حَالٍ في الدُّنْيَا، إِنْ مات على خير

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

وبرٍّ ومعروف فإِنَّهُ يُبْعَث على ذلك، وإِنْ ماتَ على منكر وشَرٍّ وفساد وإيذاء فإِنَّهُ يُبْعَثُ على ذلك.

ففيه ترغيب وترهيب؛ ترغيب في المعروف والإحسان، والجِدِّ في تحصيله، وصنائع المعروف إلى النَّاس، ورحمتهم والعطف عليهم، وترهيب مِنَ الْمُنْكَرِ بجميع أنواعه، وأَنْ يحذَرَ منه المرءُ لأَنَّهُ سيبعث يوم القيامة على ما مات عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.**

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشَّرِّ، فمَنْ ستر مسلمًا ستره الله، ومَنْ يسَّر على مُعْسِرٍ يسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنْيَا والآخرةِ، ومَنْ نفَّسَ عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدُّنْيَا؛ نفَّسَ اللهُ عنه كربةً من كرب يوم القيامة.

ومَنْ أقال نادمًا أقالَ اللهُ عثرته يوم القيامة، ومَنْ تتبَّع عورةَ أخيه تتبَّع اللهُ عورته، ومَنْ ضارَّ مسلمًا ضارَّ الله به، ومَنْ شاقَّ شاقَّ الله عليه، ومَنْ خذل مسلمًا في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يجب

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

نصرته فيه، ومَنْ سمح سمح الله له، والرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، وإِنَّمَا يرحم اللهُ من عباده الرُّحماء.

ومَنْ أَنْفَقَ أُنْفِقَ عليه، ومَنْ أَوْعَى أُوعِي عليه، ومَنْ عفا عن حَقِّه عفا الله له عن حَقِّه، ومَنْ جاوز تجاوز اللهُ عنه، ومَنِ استقصى استقصى اللهُ عليه، فهذا شرع الله وقدره ووحيه، وثوابه وعقابه، كُلُّه قائم بهذا الأصلِ وهو إلحاق النَّظير بالنَّظير واعتبار المثل بالمثل»[1].

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقِّعين (١/ ١٥٠).

(١١)

حُقوقُ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّة

إِنَّ اللهَ -سبحانه- أَلَّفَ بهذا الدِّين العظيمِ بين القلوب المتنافرة والنُّفُوس المتعادية فأصبح أَهْلُهُ إِخْوَةً في اللهِ متحابِّين، متعاونين على طاعة الله، يجمعهم دينُ الله تعالى، وهذه نعمة عظمى يجب على كُلِّ مسلم أَنْ يكونَ على ذِكرٍ لها، وأَنْ لا يغفلَ عنها ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

فأهلُ الإيمانِ كالجسد الواحد غايتهم واحدة، وهمومهم مشتركة، وآمالهم واحدة؛ يجمعهم عبادة رَبٍّ واحد بالاستسلام له، والإخلاص في العبوديَّة له، والانقياد لأمره، واتِّباع شَرْعِه، والاقتداء بِرَسُولِهِ صلوات الله وسلامه عليه.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، متَّفق عليه[١].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»، متفق عليه[٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٦) واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠١١)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

فهذه الأحاديث وما جاء في معناها تَدُلُّ دلالةً ظاهرةً على وجوب التَّضامن بين المسلمين، والتَّراحم والتَّعاطف، والتَّعاون على كُلِّ خير، وفي تشبيههم بالبناء الواحد، والجسد الواحد، ما يَدُلُّ على أَنَّهُمْ بتضامنهم وتعاونهم وتراحمهم تجتمع كلمتهم، وينتظم صفهم، ويسلمون من شرِّ عَدُوِّهِم.

وهذه الأُخُوَّةُ الَّتِي تجمعهم شأنها ومكانتها أعظم مِنْ أُخُوَّةِ النَّسب؛ لأَنَّ الجامعَ فيها دينُ الله، والرَّابطةَ فيها عبادةُ الله، والغايةَ منها نيلُ رضا الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان واجبًا على كُلِّ مسلم أن يرعى لهذه الأُخُوَّةِ حَقَّها، وأَنْ يعرف لها مكانتها، وأن يحفظَ حرمتها، وأَنْ يتحاشى كُلَّ أمرٍ ينقُضها أو ينقصها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا** -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»، رواه مسلم(١).

فهي تحتاج من أهل الإيمان المتآخين في الله إلى رعاية لهذه الأُخُوَّةِ لِئَلَّا تنخرم؛ ولذا حذَّر الإسلامُ أشدَّ التَّحذير من كُلِّ أمر يخدش هذه الأُخُوَّةَ أو يُخِلُّ بها، كالتَّناجُش، والتَّحاسد، والتَّدابر، والتَّباغض، والغيبة، والنَّميمة، وغيرِها؛ لأَنَّهَا تُخِلُّ بِالأُخُوَّةِ، وتُفَرِّقُ بين المسلمين وتشتِّت شملهم وتوجد الفُرْقَة بينهم، وتفتُّ في أُخُوَّتِهم، وتُوَهِّيها.

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٤) واللَّفظ له.

فإنَّ مِنْ مقاصدِ الإسلامِ جمعَ المسلمين والتَّأليفَ بين قلوبهم، ونشرَ المودَّة بينهم، والتَّحابَّ والتَّآخي والتَّعاون وتحقيقَ ما يمتِّن هذه الأُخُوَّةَ ويقوِّيهَا، والحذر من كُلِّ سبب يضعفها ويوهيها، وكُلَّمَا أخلَّ العبد بشيء من حقوق هذه الأُخُوَّةِ ومقتضياتها نقص من إيمانه وضعف من دينه بِحَسَبِ ما أَخَلَّ به من حقوقها.

ومن جوامع ما جاء في هذا الباب -وهو نظير ما تقدَّم في الحديث- قولُ اللهِ تعالى في سورة الحجرات في التَّنويه بهذه الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ ومكانتها وذكر شيء من حقوقها وواجباتها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٠-١٤].

فالإيمان يُثمر في أهله تآخيًا وتآلفًا وتوادًّا عظيمًا وصلةً وثيقة لا يمكن أن تتحقَّقَ بين النَّاس في أيِّ رابطة أخرى أيًّا كانت، وهي رابطة مستمرة غير منقطعة في الدُّنْيَا والآخرة، أَمَّا الصِّلات الأخرى فهي منقطعة مهما كانت قُوَّتُها؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرف: ٦٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة:١٦٦]؛ أي: أسباب الأُخُوَّة والصِّلة؛ ولهذا كُلُّ علاقةٍ وتآخٍ مآلها إلى التَّصَرُّم والانقطاع إِلَّا التَّآخي في اللهِ.

وعَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أُكْلَةً، فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ كُسِيَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَكْسُوهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ فَإِنَّ اللهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[١].

الأُكلة: هي الطَّعام الَّذي يؤكل، والمعنى: أَنْ يجعلَ عرض أخيه وسيلةً لأكله، بأن يقع مثلًا في عرضه، أو يشي به، أو يصفه بصفات سوء عند عدوٍّ له لينال بذلك مالًا، أو جاهًا، أو مكانةً أو حظوةً أو رئاسةً.

وهذا فيه التَّنبيه على حرمة المسلمين في دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، كما قال ﷺ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»، رواه مسلم، فإذا كان المرء لا يبالي في طعامه وشرابه أَنْ يُحَصِّله ولو على حساب الجناية على أخيه المسلم فأين الأُخُوَّةُ الإسلاميَّةُ؟! وأين معاني الخير؟!

قال: «**فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ**»، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعاقبه على ذلك بالنَّار؛ فيُطْعَمه يوم القيامة من طعام النَّار، فتكون هذه الأُكْلَةُ الَّتِي أَكَلَهَا وبالًا عليه يومَ القيامةِ حيثُ يأكل مثلها من نار جهنَّم.

«**وَمَنْ كُسِيَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؛ فَإِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَكْسُوهُ مِنْ جَهَنَّمْ**»؛ أي: كُسِيَ ثوبًا، بحيث يكون قد نال هذا الثَّوب، أو هذه الكسوة، أو هذه الأعطية بسبب وقوعه في أخيه المسلم.

وهذا ليس للحصر، فمثاله -أيضًا-: لو أنَّ شخصًا نال رئاسة، أو

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ولاية، أو غيرَ ذلك بوقوعه في عرض أخيه المسلم انتقاصًا له، واغتيابًا له، ونميمة...، وغيرَ ذلك؛ غير مبالٍ بحرمة أخيه المسلم؛ فقد يُحَصِّل غرضه الَّذِي أراد لكنَّه يبوء يومَ القيامةِ بالخسران، فإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَكْسُوه مِن جَهنَّم.

«**وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ أي: نال من رجل مسلم من قدره ومكانته؛ كأَنْ يُقلِّل من شأنه في الولاية، أو يقلِّل من شأنه في العلم، وهو ليس في ذلك ناصحًا لله ولدينه ولعباده، أي: ليس غرضه النُّصْح، وإِنَّمَا غرضه من هذا الرِّياءُ والسُّمْعة والشُّهْرة، كَأَنْ يطعن مثلًا في عالم وقصده بذلك أن يبرزَ نفْسَه، والله عليم بنيَّته وسَيُقِيمُهُ يومَ القيامةِ مقامَ رياءٍ وسمعةٍ.

وهذا لا يظهر للنَّاس شيء منه، لكنَّ اللهَ عليمٌ بالصُّدور، فإن نال من أمير، أو من عالمٍ، أو من تاجر مسلم ناصح حَتَّى تكسد سوقُه، ويكون له هو الشَّأن؛ فغرضه ليس النَّصيحة، وإِنَّمَا غرضه الرِّياء والسُّمعة وأن يُحمد...، ونحو ذلك مِنَ المعاني، ولهذا قال ﷺ: «**وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ رِيَاءٍ وسُمْعَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قد يكون مثلًا شخص في ولايةٍ ما، ماضيًا بها على الاستقامة و السَّداد؛ فينال منه شخصٌ من أجل أن يسقطه مِنَ الولاية مع أَنَّهُ أهل لها، ولم يقم بذلك نصحًا، وإِنَّمَا قام به مقام رياء وسمعة؛ فهذا ظلم لهذا الشَّخص من جهة، ومن جهة أخرى أَنَّ مَنْ فعل هذا الأمر قد قام مقام رياء وسمعة يعاقبه الله بأن يقيمه يوم القيامة مقام رياء وسمعة، فيفضحه على رؤوس الأشهاد.

وهذا يذكرنا بما جاء في «صحيح البخاريِّ» في قِصَّة سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث كان واليًا على العراق، فاشتكاه بعضهم عند عمر، وقام أحدهم مقام رياء وسمعة، وكذَبَ على سعدٍ، ونسب إليه ما هو بريء منه، فدعا

عليه بطول العمر، وكثرة الفقر، والتَّعرض للفتن، فكان ذلك.

عن عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ جابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الْأُولَيَيْنِ، وَأُخِفُّ فِي الْأُخْرَيَيْنِ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ.

فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا، أَوْ رِجَالًا إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ، قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ.

قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ.

قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ»[(١)].

فالواجب على المسلم أَنْ يحذَر أشدَّ الحذر من أن يتَّخذَ عيب أخيه متَّكأً له، لأَنْ يقوم مقام رياءٍ وسمعةٍ، أو ينال مطامع دنيويَّة، هذا إن كان في أخيه عيب، فإن لم يكن فيه عيب فحشف وسوء كِيلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ، إِذَا رَأَى فِيهَا عَيْبًا

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٥٥) واللَّفظ له، ومسلم (٤٥٣) مختصرًا.

أَصْلَحَهُ»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[١].

مِرْآةُ أَخِيهِ: أي: هو لأخيه كالمرآة، ومِنَ المعلوم أَنَّ النَّاظر في المرآة يرى فيها عيوب نفْسِه؛ إن كان على وجهه شيء مِنَ الغبار أَوِ الْوَسَخِ؛ ولهذا فإِنَّكَ ترى الشَّخص عندما ينظر إلى المرآة فإِنَّهُ يتَّجه بيده مباشرة لموضع العيب ليُصلحه، فالمرآة أرته عيب نفْسِه، فالنَّظر فيها يفيد في إصلاح العيوب.

وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ**»[٢]. والمِرْآة تتَّصف بالصَّفاء، يرى المرء من خلالها بوضوح تامٍّ عيوب نفسه إن كان فيه عيوب، وهكذا الشَّأْن في المؤمن مع أخيه.

فهذا الحديث جاء مجيء التَّوجيه لِمَا ينبغي أن يكون عليه المسلم تجاه أخيه المسلم من نصيحة ودلالة وتعاون على الْبِرِّ والتَّقْوَى، بأن يكون ناصحًا مشفقًا، وموجِّهًا أمينًا، بعيدًا عَنِ الغشِّ والخديعة، وعَنِ المكر والكذب، وعن دواخل السُّوء وبواطن الشَّرِّ، صافيًا مع أخيه نقيًّا كصفاء المرآة.

فإذا رأى فيه عيبًا دلَّه على عيبه برفقٍ دون أذًى، بالكلمة الحسنة والقول الطَّيِّب، وهو مشفق عليه مُحِبٌّ لزوال هذا العيب عن أخيه، لا أن يكلِّمَه في عيبه ساخرًا، ولا منتقصًا، ولا متندِّرًا، وإِنَّمَا يكلِّمُه على وجه النُّصْح والشَّفقة ومحَبَّة زوال هذا العيب عنه، وإذا كان المرء بهذه الصِّفة في نصحه لإخوانه أثمرت نصيحته ونفعت.

ولهذا قال: «إِذَا رَأَى فِيهَا عَيْبًا أَصْلَحَهُ»، فمعنى كونه مِرْآةً لأخيه: أي: أَنَّهُ يسعى في إصلاح أخيه، فكما أَنَّ المرء إذا رأى في نفسه عيبًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٣٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٣٩)، وحسَّنه الألبانيُّ.

عند نظره في المرآة يُصْلحه، فكذلك أيضًا يكون المسلم لأخيه، يُريه عيوب نفْسِه برفق ولين وبالكلمة الطَّيِّبة حَتَّى يصلحها.

وأَمَّا المشتغلون بالغيبة والنَّميمة والسُّخرية، أَوِ الغشِّ والخديعة والمكر؛ فهؤلاء يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ولا يبقى بسببهم في المجتمع لُحمة، بل تتفكَّك الرَّوابط، وتتقطَّع الأواصر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**»، رواه أبو داود(١).

«**وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ**»؛ أي: يجمعه وإِيَّاهُ أخوَّةُ الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأُخُوَّةُ الإيمانِ هي الرَّابطة العظيمة الَّتِي تبقى في الدُّنْيَا والآخرة؛ لأَنَّهَا صلة لأجل الله، وإذا وجدت هذه الأُخُوَّةُ بين المسلمين على حقيقتها ظهرت ثمارها ووجدت مقتضياتها.

قال: «**يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَه، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**»

هذان الأمران من مقتضيات الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة:

قولُه: «**يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَه**»؛ أي: ضياعه، وهذا فيه أَنَّ من مقتضيات الأُخُوَّة الإيمانيَّة أن تجتهد في هداية ضالِّ المسلمين والضَّائع منهم المنحرف عَنِ الطَّريق القويم، فتَكُفَّ عليه ضيعته، وكَفُّكَ عليه ضيعته بـ: دلالته على الخير ونصيحته، وأن تكون له كالمِرْآة تُبيِّن له خطأه و عيبه حَتَّى يرجع إلى الجادَّة السَّويَّة والصَّراط المستقيم.

وقولُه: «**وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**»، هذا فيه أنَّ من مقتضيات الأُخُوَّة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الإيمانيَّة أن يسلم أخوك منك، فتحوطه من ورائه فلا تغتابه ولا يكون منك شرٌّ أو أذًى عليه؛ بل تحميه، و تنصره، و تَذُبُّ عنه، وتدافع عنه، وتحوطه من ورائه.

فإذا وُجد هذا التَّآخي والتَّناصح، والتَّراحم، والتَّعاون على الْبِرِّ والتَّقْوَى، قَلَّ الشَّرُّ في المجتمع وعَمَّ الخيرُ وكَثُر، وتحقَّقت البركةُ العظيمة بين المسلمين، وإن فرَّطوا في هذه المعاني لم يجنوا إِلَّا على أنفسهم، ولم ينالوا إِلَّا رضى الشَّيطان.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»، رواه مسلم[(١)].

أي: بالخصومات والشَّحناء والحروب والفتن، وإغراء بعضهم على بعض، والتَّحريض بالشَّرِّ بين النَّاس، وفي هذا هلاكهم وضياع دينهم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُسْلِمُوا، وَلَا تُسْلِمُوا حَتَّى تَحَابُّوا، وَأَفْشُوا السَّلَامَ تَحَابُّوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْبِغْضَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ لَكُمْ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٢)].

التَّحَابُّ: هو وجود المحبَّة والمودَّة بين أهل الإيمان، بحيث يحبُّ بعضهم بعضًا، ويحقِّقُون -أيضًا- ما تقتضيه هذه المحبَّة من نصحٍ، وبذلٍ للخير، وحسن للمعاملة... إلى غير ذلك من مقتضياتها، وقد قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا**

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٢٦٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره».

يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»(١).

فإذا أحبَّ المسلم أخاه أحبَّ له ما يُحِبُّه لنفْسِه؛ ولهذا إذا وُجِدَت المحبَّة حقيقةً ذهب عَنِ النَّاس الحسد والبغضاء والشَّحناء والعداء، وذهبت عنهم أمراض القلوب الكثيرة الَّتِي أودت بالنَّاس وأضرت بهم، فالتَّحَابُّ بين المسلمين مطلوب، وثماره عظيمة، وآثاره مباركة.

وتأمَّلْ قولَ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَلَا تُسْلِمُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»؛ أي: أنَّ الإسلامَ لا يشيع وينتشر بينكم، ولا يتحقَّق فيكم ولا يتمُّ إِلَّا إذا تحاببتم؛ لأَنَّ التَّحابَّ بين المسلمين يعينهم على نشر الإسلام بينهم وفي غيرهم، أَمَّا إذا تباغضوا ووجدت بينهم الشَّحناء والبغضاء، انشغلوا بأنفسهم عن إصلاحها بالإسلام وإقامتها عليه، فضلًا عن أن يكونوا دعاة إلى الإسلام.

ثُمَّ حذَّر ﷺ مِنَ البِغضَة بين المسلمين، فقال ﷺ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْبِغْضَةَ**»؛ أي: احذروها أن توجد بينكم، والنَّهي عنها نهيٌ عن كُلِّ سبب يُفْضِي إليها، كما تقدَّم: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ**»(٢).

فهذه وأمثالها إذا وجدت أوجدت بين النَّاس البِغضة، وإذا وجدت البِغضة بين أهل الإسلام حلقت الدِّين.

قال: «**فَإِنَّهَا هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ لَكُمْ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» فالدِّين بوجودها ينحسر ويضعف، لأَنَّ القلوب الَّتِي فيها البِغضةُ تكون منشغلةً بالعداوات والسَّخائم الَّتِي تعوقها عَنِ الاشتغال بالدِّين نفسه وغاياته ومقاصده، فيصبح أهل البِغضة مشتغلين بالعداوات

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١٤٦)، والنَّسائيُّ (٥٠١٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٤)، واللَّفظ له.

بينهم حَتَّى تستهلك أوقاتهم وحياتهم، وتضيِّع جهودهم في أمور ليس من ورائها طائل إِلَّا ضياع الدِّين، فهي كما قال ﷺ: «**تَحْلِقُ الدِّينَ**»، فكُلَّمَا كثرت وقويت بين المسلمين ضعف دينهم.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ، أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

قولُه: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ**»، هذا فيه بيان أَنَّ الخيارَ هم مَنْ كانوا بهذه الصِّفة إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله، وذلك لحسن استقامتهم، وحسن عبادتهم وإقبالهم على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، ولتواضعهم وذُلِّهم لله وانكسارهم بين يديه، ولِمَا قام فيهم من خشيةٍ لله وهيبةٍ له وتعظيمٍ، فإذا لقيهم المرء ذكر الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأَنَّ أعمالهم وأخلاقهم وخصالهم تذَكِّر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهم دعاة إلى الله بلسان حالهم، وكم من إنسانٍ استقام برؤيته أمثال هؤلاء!

قولُه: «**أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟**» قالوا: بلى، **فذكر لهم ثلاث صفات:**

الأولى: المشَّاؤون بالنَّميمة، والمشَّاء صيغة مبالغة، أي: السَّاعون بالنَّميمة بين النَّاس ويكثر فيهم ذلك، نقل الكلام بين النَّاس من شخص إلى آخر على وجه الفساد ونشر العداوات.

الثَّانية: المفسدون بين الأحِبَّة، وهذه ثمرة النَّميمة ونتيجتها، تثمر الإفساد بين الأحِبَّة وإيقاع العداوات بينهم، وقد قال يحيى اليماميُّ

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٢٣)، واللَّفظ له، وحسَّنه الألبانيُّ.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُفْسِدُ النَّمَامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُهُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ»[(١)]، فالنَّمام سريع الإفساد.

الثَّالثة: الباغون البُرَآءَ العَنَتَ، أي: الَّذِين يريدون العنت: وهو الهلكة والمشقة، والفتنة والشَّرُّ بين الأبرياء، الَّذِين ليس بهم شرٌّ ولا منهم أذًى، وهذه أيضًا من ثمار النَّميمة.

فالنَّمامُ يطلب العنت والمشقة والشَّرَّ والفساد في حقِّ الأبرياء المتآخين المتصافين المتوادِّين، وهذا كُلُّه مِمَّا يبيِّنُ لنا خطورة حال النَّمام وأَنَّهُ شرٌّ عظيم على المجتمع؛ لأَنَّ وظيفته في المجتمع نشر العداوات بين النَّاس.

لا يهدأ له بال ولا يرتاح له خاطر إِلَّا إذا رأى الإِخْوَةَ متباغضين، والمتآخين متعادين، ورأى في الأبرياء العنت والمشقة، فإذا رأى ذلك شعر أَنَّهُ أنجز مهمَّته وأدَّى وظيفته، ولكِنْ له عند الله عقوبتان، إحداهما معجَّلة في هذه الحياة الدُّنْيا بأن يفضحه الله ولو كان متواريًا في بيته، والأخرى يلقاها يوم القيامة.

عن أبي الجوزاء قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَدَبَهُمُ اللهُ إِلَى الْوَيْلِ؟ قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، قال: «هُمُ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ»[(٢)] فذكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذه الثَّلاثة تفسيرًا للمتوعَّدين في الآية بالويل.

وعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللهِ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ**

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٧٠)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (١٠٦٠١).
(٢) أخرجه هنَّاد في الزُّهد (١٢١٤).

طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ»، رواه أحمد(١).

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**»، رواه أبو داود(٢).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، كَشَفَ اللهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ**»، رواه ابن ماجه(٣).

عَن أبي وائل شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: «كَانَ مِنْ دُعَاءِ عَبْدِ اللهِ رَبَّنَا أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ الإِسْلامِ، وَأَخْرِجْنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَاصْرِفْ عَنَّا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا لأَنْعُمِكَ شَاكِرِينَ، مُثْنِينَ بِهَا قَائِلِينَ بِهَا، وَأَتْمِمْهَا عَلَيْنَا»(٤).

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٠٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٥٢٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(١٢)

لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَاللَّعَّانِ

مِنَ الأمورِ العظيمةِ الَّتِي نَدَبَتْ إليها الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ وحثَّتْ على فعلها والعناية بها؛ لزومُ الأدب وتكميلُه، وتحسينُ الخُلُق وتهذيبُه، وتجنُّبُ الأخلاقِ الذَّميمة والبعد عنها، وإنَّ مِن سَيِّءِ الأخلاق وذميمها الَّتِي لا ينبغي لمسلم أن يكون متَّصِفًا بِهَا: الطَّعْنَ، واللَّعْنَ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ**»، رواه التِّرمذيُّ(٥).

والطَّعَّانُ: هو الَّذِي يقع في أعراض النَّاس غيبةً ونميمةً وسُخريةً واستهزاء.

واللَّعَّانُ: هو الَّذِي يكثر من لعنهم، سواء بلفظ اللَّعْن صريحًا، أو بالألفاظ المؤدِّية إلى ذلك؛ كالدُّعاء عليهم بغضب الله، أو دخول النَّار، أَوِ الخِزْي في الدُّنْيَا والآخرة، ونحوِ ذلك.

وقولُه ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ**»؛ أي: ليس المؤمن الَّذِي كمَّل الإيمان الواجب طعَّانًا، ولا لعَّانًا، فليس هذا من خُلُقِه ولا من صفته، ومَنْ كان متخلِّقًا بهذا الخُلُق فهو دليل على نقص إيمانه الواجب وضعف دينه.

(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقولُه ﷺ: «**وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ**»؛ أي: ليس متخلِّقا بهذين الخلقين: الفحش والبذاء، والمراد بالفُحْش ما كان في الفِعال، والبذاء ما كان في المقال، فالمؤمن ليس في أفعاله فحش، وليس في أقواله بذاء، فأفعاله نقيَّة مِنَ الفحش -وهو القبيح والسَّيِّئُ مِنَ الأفعال-، وأيضًا أقواله نقيَّة مِنَ البذاء -وهو السَّيِّئُ والقبيح مِنَ القول- بعيد عن هذه الخِلال حَذِرٌ منها.

ودين الله عَزَّوَجَلَّ مبناه في التَّعامل بين عباد الله على النُّصح والرَّحمة، ومَنْ يُكثر مِنَ الطَّعن في النَّاس ليس ناصحًا لهم، ومَنْ يُكثر من لعنهم ليس رحيمًا بهم؛ ولهذا مَنْ كان من أهل هذين الوصفين؛ فإِنَّهُ ليس أهلًا يومَ القيامةِ أنْ يكونَ شفيعًا للنَّاس أو شهيدًا لهم.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ فَدَعَا خَادِمَهُ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَعَنَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُكَ اللَّيْلَةَ لَعَنْتَ خَادِمَكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه مسلم[1].

وذلك لأَنَّ النَّاس لم يسْلَمُوا منهم في الحياة الدُّنْيَا من لعنهم وطعنهم، فلا يكونون أهلًا يومَ القيامةِ للشَّهادة لهم بالخير، أَوِ الشَّفاعة لهم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهذا مقامٌ عليٌّ عظيمٌ ليس هؤلاء بأهلٍ له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإِنَّ الشَّهادة من باب الخبر، والشَّفاعة من باب الطَّلب، ومَنْ يكونُ كثيرَ الطَّعْنِ على النَّاس وهو الشَّهادة عليهم

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٨).

بالسُّوء، وكثيرَ اللَّعْنِ لهم وهو طلب السُّوء لهم؛ لا يكونُ شهيدًا عليهم، ولا شفيعًا لهم؛ لأَنَّ الشَّهادةَ مبناها على الصِّدق، وذلك لا يكون فيمن يكثر الطَّعن فيهم، ولا سيما فيمَنْ هو أولى بالله ورسوله منه، والشَّفاعة مبناها على الرَّحمة وطلبِ الخير، وذلك لا يكون مِمَّنْ يكثرُ اللَّعْنَ لهم ويترك الصَّلاة عليهم»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأَنَّ اللَّعْنَ إساءةٌ، بل مِنْ أبلغ الإساءة، والشَّفاعةَ إحسانٌ، فالمسيء في هذه الدَّار باللَّعْنِ يَسْلبُه الله الإحسان في الأخرى بالشَّفاعة؛ فَإِنَّ الإنسان إنَّمَا يحصد ما يزرع، والإساءة مانعة مِنَ الشَّفاعةِ الَّتِي هي إحسان. وأمَّا منع اللَّعْن مِنَ الشَّهادة، فإنَّ اللَّعنَ عداوةٌ وهي منافية للشَّهادة، ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ سيدَ الشُّفعاء، وشفيعَ الخلائق؛ لكمال إحسانه ورأفته ورحمته بهم ﷺ»(٢).

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزُّمر:٦٩]، قال: «النَّبِيُّونَ الرُّسُل، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الَّذِين يَشْهَدُونَ بِالْبَلَاغِ لَيْسَ فِيهِمْ طَعَّانٌ وَلَا لعَّانٌ»(٣).

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَبْغَضُ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ كُلُّ طَعَّانٍ لَعَّانٍ»(٤).

وروى ابن جرير الطَّبريُّ رحمه الله تعالى في كتابه «التَّفسير» عن قتادة رحمه الله تعالى أَنَّهُ قَرَأَ قولَ الله عَزَّوَجَلَّ في ذِكر دعاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٥٠٥).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٧).
(٣) الدُّرُّ المنثور، للسُّيوطيِّ (٧/ ٢٦٢).
(٤) الزُّهد والرَّقائق، لابن المبارك (٦٨٠).

[إبراهيم:٣٦]، ثُمَّ قال: «اسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ خَلِيلِ اللهِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لَا وَاللهِ مَا كَانُوا طَعَّانِينَ وَلَا لَعَّانِينَ»، ثُمَّ قالَ: «كَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنْ أَشَرِّ عِبَادِ اللهِ كُلُّ طَعَّانٍ لَعَّان»[1].

ثُمَّ تأمَّلْ في الآية كيف أنَّ خليلَ الرَّحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما ذكر العصاة لم يقل: اللهُمَّ أخزهم، أو اللهُمَّ العنهم، أو نحو ذلك، وإِنَّمَا قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أشفَق عليهم ورحِمَهم فدعا لهم بالمغفرة والرَّحمة، وهو مقام جدير -إي واللهِ- بالتَّأمُّلِ والسُّلوك فهو نهج النَّبيِّين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ، عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، قَالَ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»، متفق عليه[2]، وفي روايةٍ للبخاريِّ: فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»[3].

قال ذلك الطُّفيل وهو دوسيٌّ غضبًا لله، حيث بلغ الاستياء عنده مبلغًا عظيمًا من حال قومه «فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ»، كما ثبت في بعض روايات الحديث، وظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سيدعو عليهم؛ لأَنَّ الَّذِي طُلِبَ منه هو أن يدعو عليهم، فقال بعضهم: «هلكت دوس»؛ لأَنَّ دعاءه ﷺ مستجاب فقال: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»، فدعا الله لهم أن يهديهم، وقَدِ استجاب اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعاءه، وهدى أكثرهم إلى هذا الدِّين.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ،

(١) تفسير الطَّبريِّ (١٧/ ١٨).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٩٣٧) واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٢٤).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٣٩٧).

قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»، رواه مسلم(١).

والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ومن رحمته ﷺ للعالمين أَنَّهُ كان يدعو للكُفَّار بالهداية والدُّخولِ في الدِّين، قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»، قال ذلك في هذا المقام الَّذِي طلب فيه الدُّعاء على المشركين لاشتداد أذاهم، فهذا يُفيد أَنَّ المؤمنَ لا يكون لعَّانًا.

وإذا تأمَّلْنَا واقع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ العمليَّ وما كانوا عليه مِنْ سُرْعَةِ اسْتِجَابَةٍ لرسولِ اللهِ فيما يأمرهم به، أو يحذِّرهم عنه، نرى في ذلك عجبًا من سرعة الاستجابة وكمال الانقياد، وهذا مقامٌ يطول بذكر الأمثلة عليه، لكِنْ أشير إلى شاهدين عظيمين نفيسين جليلين:

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «مَا سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ لَاعِنًا أَحَدًا قَطُّ، لَيْسَ إِنْسَانًا -أي: إلَّا إنسانًا واحدًا- وَكَانَ سَالِمٌ يَقُولُ: قَالَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عُمَرَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**»، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»(٢).

فانظر إلى حال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ سمع هذا الحديث لم يُسمع منه لَعْنٌ قَطُّ إلَّا مرَّة واحدة، وقد جاء في بعض الرِّوايات أَنَّهُ لعن خادمًا له أغضبه، فأعتقه فورًا بعد لعنه له، وجاء في بعض الرِّوايات أَنَّهُ ما أتمَّ كلمة اللَّعنة، فلَمَّا نطق بكلمة اللَّعْنَةِ وقف قبل أن ينطقَ بالنُّونِ فلم يُتِمَّهَا وقال: «هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقُولَهَا» ثُمَّ أَعْتَقَ خادمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنِ الزُّهريِّ، عن سالم قال: «مَا لَعَنَ ابْنُ عُمَرَ قَطُّ خَادِمًا، إِلَّا وَاحِدًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٠٩)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

فَأَعْتَقَهُ» وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: «أَرَادَ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَلْعَنَ خَادِمَهُ فَقَالَ: اللهُمَّ الْعَ، فَلَمْ يُتِمَّهَا، وَقَالَ: هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقُولَهَا»، رواه عبد الرَّزاق في «مصنَّفه»[(١)].

وقول سالم بن عبد الله بن عمر: «مَا سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ لَاعِنًا أَحَدًا قَطُّ لَيْسَ إِنْسَانًا»، يوضِّح ذلك روايةٌ أخرى للحديث عند ابن أبي الدُّنْيَا، قال: «ما سمعت أبي لعن شيئًا قطُّ إِلَّا مرَّة»[(٢)].

فكم مِنَ التَّربيةِ العظيمةِ للأبناء في هذه القِصَّة؛ لم يسمع من والده كلمة اللَّعْن إِلَّا مَرَّةً واحدةً - في موقف واحد، وأيضًا لم يُتِمَّ لفظة اللَّعن، وأعتق الخادم على إثر ذلك.

بخلاف بعض الآباء قد يَسْمَعُ مِنْهُم أَبْناؤُهم في اليوم اللَّعْنَ مرَّات كثيرة، فيلعن ابنه ويلعن زوجته عند أدنى سبب؛ ويجري على لسانه اللَّعن كثيرًا، وهذه مصيبة أن ينشأ الابن بين يدي أبٍ بهذه الصِّفة، ومَنْ كان كذلك كم هي جنايته على أبنائه؟!

وقولُه ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**»، فيه أَنَّ اللَّعن ليس من خصال المؤمن؛ لأَنَّهُ دعاء بالطَّرد من رحمة الله، والمؤمن يمنعه ما قام في قلبه لإخوانه من رحمة وحبِّ الخير لهم مِنَ الدُّعاء عليهم بذلك، فجريان اللَّعن على لسان المرء وتخلُّقه به دليل على نقص إيمانه وضعفه.

عَنْ أَبِي جُرَيٍّ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ، لَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا صَدَرُوا عَنْهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللهِ، مَرَّتَيْنِ، قَالَ: «**لَا تَقُلْ:**

---

(١) أخرجه عبد الرَّزاق في المصنَّف (١٩٥٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٧)، واللَّفظ له.
(٢) الصَّمت لابن أبي الدُّنْيَا (٦٥٩).

عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ، قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ» قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ، أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ -أَوْ فَلَاةٍ- فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ، رَدَّهَا عَلَيْكَ**».

قَالَ: قُلْتُ: اعْهَدْ إِلَيَّ، قَالَ: «**لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا**» قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا بَعِيرًا، وَلَا شَاةً، قَالَ: «**وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ، فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ، فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ**»، رواه أبو داود(١).

أي: أَنَّهُ بعدَ هذا العهدِ وهذه الوصيَّة ما سبَّ إنسانًا ولا حيوانًا، وإنَّمَا حفظ لسانه، وهذا يدُلُّنَا على ما كان عليه أصحاب الرَّسولِ ﷺ ورضي الله عنهم وأرضاهم، مِنَ الانقياد لِمَا يأتي عن الله وعن رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهم أحرص النَّاس على كُلِّ خير وأسبقُهم إلى كُلِّ فضيلةٍ، وهم قدوةٌ لِمَنْ بعدَهم، أَلْحَقَنَا اللهُ جميعًا بهم وبالصَّالحين من عباده، وأعاذنا أجمعين من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»، متَّفق عليه(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٣٠) واللَّفظ له، ومسلم (٢١٦٥).

وعن أنسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَيْكَ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: «**لَا، إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

قَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكَ» بحذف اللام، والسَّام: هو الموت، فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَعَلَيْكُمْ**»، فغضبت عَائِشَةُ ولعنتهم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ**»، فنهاها ﷺ وحذَّرها في هذا المقام مِنَ العنف واللَّعن؛ فإذا كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال ذلك في مثل هذا المقام ناهيًا ومحذرًا، فكيف الشَّأن بمَنْ يُكثر اللَّعن لأبنائه وإخوانه وزملائه مِنَ المسلمين فيما هو دون هذا؟!

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صدر هذا منها لأَنَّهَا مُغْضَبَة، وحُقَّ لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تغضب، فدعت عليهم باللَّعْن، وهو: الطَّرْد والإبعاد من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأيضًا دعت عليهم بغضب الله، وهو: حلول سخطه جَلَّ وَعَلَا عليهم، وما يترتَّب على سخطه وغضبه تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ العقوبةِ الدُّنيويَّة والأُخْرَويَّة.

فنهاها النَّبِيُّ ﷺ عن ذلك، وقال: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ**»؛ أي: تمهَّلي وتأنِّي ولا تستعجلي، وهذا فيه أَنَّ الإنسان إذا تمهَّل في ألفاظه وتفكَّر فيما سيقول من كلامٍ فإِنَّهُ يحمد -بإذن الله- العاقبةَ، فعليه إذا أُغْضِبَ أن لا يستعجل في إخراج ما يجول في نفسه بسبب الغضب، بل يعمل بما أوصى به النَّبِيُّ ﷺ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قال: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ**»، فقبل أن يُخرِج الكلمة وهو مغضَبٌ عليه أَنْ يتمهَّل قليلًا، فهذا توجيه نبويٌّ مفيدٌ، ثُمَّ أكَّد ﷺ هذا الأمر بقوله: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ**»، فعلى المرء

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٩٢٦).

أن يترفَّق في مثل هذا المقام لكي يكون الكلام رفيقًا.

وسبحان الله! المقصودون في هذا المقام يهود، والكلام الَّذِي قالوه أشنع الكلام وأقبحه، فأيُّ كلامٍ أشنع وأقبح من قول هؤلاء النَّفر في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ: السَّام عليكم؟!

فاجتمع فيهم أمران:

أَنَّهُم يهود، أعداء للمسلمين ولدين الله.

والكلام الَّذِي قالوه أشنع الكلام وأقبحه، ومع ذلك يقول النَّبِيُّ ﷺ لأُمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ**»!

فهذا فيه إيقاظٌ للقلوب، وتنبيهٌ لكثير مِنَ المندفعين في باب اللَّعْن، الَّذِين يجري اللَّعْن على ألسنتهم كثيرًا عند أدنى خطأ، فيُقال لهؤلاء: مهلًا، عليكم بالرِّفق، فلماذا هذا الاندفاع والتَّسرُّع؟!

ولهذا ينبغي على المسلم وقد سمع هذه الأحاديث -ولها نظائر كثيرة- أن يتقيَ اللهَ في نفسه، وأن يصون لسانه، وأن يحذَر من مثل هذه الأوصاف، وأن يتقيَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأن يتمهلَ، وأن يترفَّقَ، وأن يبتعدَ عن مثل هذه الأوصاف بأن يربأ بنفسه عنها، وأن يصون لسانه مِنَ الوقوع فيها؛ حفظًا لإيمانه، وتحقيقًا لتقواه لرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا، وَلَا لَعَّانًا، وَلَا سَبَّابًا، كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: «**مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وقولُه: «**مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ**»، هي كلمة تقولها العرب من باب الحَثِّ على الفعل، أو ترك الفعل، ولا يراد بها حقيقة الدُّعاء عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٤٦).

أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»، رواه مسلم[(١)].

أي: مَنْ كان متخلِّقًا باللَّعنِ مُكثرًا منه، فإنَّ تخلُّقه به وإكثاره منه يهبطه عَنِ الصِّديقيَّة؛ لأَنَّ الصِّديقيَّة رتبةٌ عليَّة ومنزلة رفيعة، وقد ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن بعد رتبة النُّبُوَّة، فقال تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّساء:٦٩]، وهذا يتنافى مع هذه الرُّتبة.

فالصِّدِّيق الَّذِي بلغ هذه الرُّتبة العليَّة مِنَ الدِّين والمنزلة الرَّفيعة فيه ليس لعَّانًا، بل في قلبه رحمة للنَّاس، وحُبُّ خيرٍ لهم، ودعاءٌ بالخير لهم، وليس عنده الدُّعاء عليهم بالطَّرد من رحمة الله، وبالغضب، ونحو ذلك.

فكثرة اللَّعْن تحُطُّ المرءَ عَنِ المراتب العليَّة، والمنازل الرَّفيعة، وتؤدِّي به إلى ضعف الإيمان، ونقص الدِّين، وكُلَّمَا كان مكثرًا مِنَ اللَّعْن متخلِّقًا به نقص من دينه بحسَبِ ذلك.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَعَنَ بَعْضَ رَقِيقِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَّانِينَ؟!**» قَالَتْ: فَأَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْضَ رَقِيقِهِ يَوْمَئِذٍ وَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَعُودُ، رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»، والطَّبرانيُّ في «الدُّعاء»[(٢)].

وهذا صدر من أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه المرَّة الواحدة في أمر أغضبه ولم يكن خُلُقًا له، فسمعه النَّبِيُّ ﷺ فقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَّانِينَ؟!**»؛ أي: لا يجتمع هذا وهذا، لعَّانٌ وصِدِّيق، قال ذلك تنبيهًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣١٩)، والطَّبرانيُّ في الدعاء (٢٠٨٢) بنحوه، وصحَّحه الألبانيُّ.

له، لا ليُخْبِر أَنَّهُ واقع في هذا الخُلُق، فليس هذا خُلُق صِدِّيق هذه الأُمَّةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بل لا يُعرَف عنه ذلك.

وقولُه: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَّانِينَ؟!**»؛ أي: أَنَّ هاتين الصِّفتين لا تجتمعان، فمَنْ كان لعَّانًا لا ينبغي أن يكون صِدِّيقًا.

«فَأَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ بَعْضَ رَقِيقِهِ»، ولم يكتفِ بإعتاق ذلك الرَّجُل، بل أعتق معه عددًا من رقيقه، وأراد أن يكون ذلك كفَّارةً من تلك الكلمة الَّتِي بدرت منه مرَّة واحدة.

ثُمَّ «جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَعُودُ»، تأمَّلْ بَدَرَت منه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرَّةً واحدةً فقط، ولمَّا نبَّهَه النَّبِيُّ ﷺ أعتق بعض رقيقه، وجاء إلى النَّبِيِّ ﷺ معتذرًا وقال: مقسمًا بالله أَلَّا يعودَ، فما أجملها مِنْ سِيَرٍ عطرة مباركة!

فَلْيَتَفَكَّرِ النَّاصِحُ لنفْسِه ولْيتَّعظْ، ولْيَجعلْ هذا الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأمثالَه من خيار الرَّعيل الأوَّل قدوةً له؛ فإنَّ النَّظر في سِيَر هؤلاء الأخيار وأخبارهم العطرة هو الَّذِي يداوي القلوب ويصلح النُّفوس، كما قال القائل:

كَـرِّرْ عَلَـيَّ حَدِيثَهُـمْ يَا حَـادِي فَحَدِيثُهُـمْ يَجْلُو الْفُؤَادَ الصَّادِي

رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، وَلَا بِغَضَبِ اللهِ، وَلَا بِالنَّارِ**»، رواه أبو داود[(١)].

والتَّلاعُنُ: هو تبادل اللَّعْن، بأنْ يصبحَ شأنُ النَّاسِ وحالُهم لَعْنَ بعضهم بعضًا، أو دعاءَ بعضهم على بعض بغضبِ اللهِ، أَوِ الدُّعاء على

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.

بعضهم بالنَّار، أو بسخط الله...، أو نحو ذلك، فنهى النَّبِيُّ ﷺ عن ذلك؛ لأَنَّهُ يتنافى مع ما تقتضيه الأُخُوَّةُ الإيمانيَّة.

لأَنَّ أُخُوَّةَ الإيمانِ تقتضي الرَّحمة، والعطف، والدُّعاء بالخير، والاستغفار للمسلمين، والدُّعاء لهم بالجنَّة والنَّجاة مِنَ النَّار...، ونحوَ ذلك، وكُلَّمَا قويت هذه الرَّابطة قويت هذه المعاني.

أَمَّا التَّلَاعُنُ والدُّعاءُ بغضب الله وبسخطه، أو بالنَّار فليس هذا من مقتضيات الأُخُوَّة، بل هو دليل على ضعفها ونقصها.

ولهذا يجب على المرء أن يتقي الله جَلَّ وَعَلَا في إخوانه المسلمين، وأن يحذَر أشدَّ الحذر من ذلك، لأَنَّهُ بابٌ مِنَ الإثمِ خطيرٌ، وفيه الحرج، وفيه الهلكة.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه»، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، وغيرُهم، من حديث أسامة بن شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شَهِدْتُ الْأَعْرَابَ يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَعَلَيْنَا حَرَجٌ فِي كَذَا؟ أَعَلَيْنَا حَرَجٌ فِي كَذَا؟ -لأشياء ليس بها بأس-، فَقَالَ لَهُمْ: «**عِبَادَ اللهِ، وَضَعَ اللهُ الْحَرَجَ إِلَّا مَنِ اقْتَرَضَ مِنْ عِرْضِ أَخِيهِ شَيْئًا، فَذَاكَ الَّذِي حَرِجَ وهَلَكَ**»(١).

ومعنى «**اقْتَرَضَ مِنْ عِرْضِ أَخِيهِ**»: أي: اقتطع من عرضه بأن ينال منه سبًّا، أو وقيعةً، أو انتهاكًا لعرضه، أو شتمًا، أو غيبةً، أو نميمة، أو غيرَ ذلك مِنَ التَّعديات الآثمة.

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا،**

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِى لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا»، رواه أبو داود(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ؛ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»، رواه البخاريُّ(٢).

فعندما تصدر اللَّعنة مِنَ المرء على غير مستحِقٍّ لها مِنَ الجماد، أَوِ الحيوان، أَوِ النَّاس؛ فإِنَّهَا ترجع إلى صاحبها، فكم مِنَ اللَّعَنات سترجع على مَنْ كان مكثرًا مِنَ اللَّعْن مستديمًا له؟! فلا تزال تتوالى عليه وتَحِلُّ عليه ويكون هو المتسبِّب لنفْسِه بحلولها.

وعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ**»، متَّفق عليه(٣). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»، متَّفق عليه(٤).

إنَّ صيانةَ المرء للسانه عَنِ اللَّعْن والسَّبِّ والفحش والبذاء يُعَدُّ من كمال الخُلُق وجمال الأدب، وهو عنوانٌ على صلاح الإنسان وفلاحه، فينبغي على المسلم أَنْ يتقيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا، وأنْ يحرصَ على صيانة لسانه وإصلاح أدبه، وتهذيب خلُقه، والابتعاد عن تلك الصِّفات الذَّميمة، مستعينًا على ذلك بالله -جل في علاه-، فهو سبحانه الَّذِي يهدي لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا هو، ويصرف عن سيِّئِها لا يصرف عن سيِّئِهَا إِلَّا هو.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٤٥).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٠٥)، ومسلم (١١٠).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٨)، ومسلم (٦٤).

إِنَّ أُمَّةَ الإسلام -أهلَ هذا الدِّين الحنيف المبارك- ليسَ شأنُهم كالكُفَّار أهل النَّار الَّذِين شأنهم كما وصف الله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، فليس هذا شأن أهل الإيمان؛ بل شأنهم التَّراحُم والتَّعاطف والتَّعاون على البِرِّ والتَّقوى كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]، وقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١).

ومَنْ تخلَّق بتلك الأخلاق الذَّميمة لا يكون من أهل هذه الصِّفات الجميلة، لأَنَّ اللَّعْنَ يراد به الدُّعاءُ بالإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدُّعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الَّذِين وصفهم الله تعالى بالرَّحمة بينهم والتَّعاون على البِرِّ والتَّقوى، وجعلهم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد، وأنَّ المؤمن يحِبُّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفْسِه، فمَنْ دعا على أخيه المسلم باللَّعْنَة، وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى؛ فهو في نهاية المقاطعة والتَّدابُر.

إِنَّ شأن المسلم تجاه إخوانه: رحمتُهم، والإحسان إليهم، والدُّعاء لهم بالخير، والاستغفار لهم، لا لَعْنُهم والطَّعْن فيهم، والوقوع فيهم بالمسبَّة، يقول الله تعالى لنبيِّه الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمَّد:١٩]، ويقول الله تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠].

وقد رتَّب الله جَلَّ وَعَلَا أجورًا عظيمة وأفضالًا عميمة وخيراتٍ كبيرة

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١١)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

لمَنْ يبذل لإخوانه المؤمنين الدُّعاء والاستغفار، ولنتأمَّلْ في هذا ما رواه الطَّبرانيُّ بإسناد حسن، من حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**»(١)؛ كم هي الأجور الَّتِي يجنيها المسلم إذا قال في دعائه: اللهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات!

روى ابن أبي حاتم، عن يزيد بن الأصمِّ قال: «كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ذُو بَأْسٍ، وَكَانَ يَفِدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَفَقَدَهُ عُمَرُ فَقَالَ: مَا فَعَلَ فَلَانُ بن فلان؟ فقالوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يُتَابِعُ فِي هَذَا الشَّرَابِ. قَالَ: فَدَعَا عُمَرُ كَاتِبَهُ فَقَالَ: اكْتُبْ «مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى فُلانِ بْنِ فُلانٍ، سَلامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ».

ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «ادْعُوا اللهَ لِأَخِيكُمْ أَنْ يُقْبِلَ بِقَلْبِهِ، وَأَنْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ الرَّجُلَ كِتَابُ عُمَرَ جَعَلَ يَقْرَؤُهُ وَيُرَدِّدُهُ وَيَقُولُ: غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، قَدْ حَذَّرَنِي عُقُوبَتَهُ، وَوَعَدَنِي أَنْ يَغْفِرَ لِي»(٢).

قال: ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْعَ، فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمْرُهُ قَالَ: هَكَذَا فَاصْنَعُوا، إِذَا رَأَيْتُمْ أَخًا لَكُمْ زَلَّ زَلَّةً فَسَدِّدُوهُ، وَوَفِّقُوهُ، وَادْعُوا اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ»(٣).

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في مسند الشَّاميِّين (٢١٥٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التَّفسير (١٨٤١٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٧).

(١٣)

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ

دِينُ الْإِسْلَامِ دِينُ مَحَبَّةٍ وَأُلْفَةٍ، وَتَعَاوُنٍ وَإِخَاءٍ، وَصَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ؛ أَلَّفَ بين قلوبِ المؤمنين وأصلحَ ذاتَ بينهم، وجمعَ كلمتَهم على الحَقِّ والهدى، فاجتمعت بالإسلام القلوب المتنافرة والنُّفوس المتعادية وأصبحوا متآخين، بل أصبح مثَلُهم مثَلَ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسَّهر.

وهذه الأُخُوَّةُ الإيمانيَّة والمحَبَّةُ الدِّينيَّة جاء الإسلامُ بالتَّأكيد على توثيقها، والحَثِّ على رعايتها والعناية بها، والبُعد عن أسباب ضعفها وزوالها؛ ولهذا جاءت النُّصوص الكثيرة في الحَثِّ على التَّآلف والإخاء والمحَبَّة والتَّوادِّ، والبُعد عَنِ الشَّحناء والبغضاء، والتَّقاطع والتَّهاجر والتَّدابر، وبيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِظم خطورة البغضاء، وشدة خطورة التَّهاجر والتَّدابر، وعظم أثرها على الدِّين نفسه.

وقد يقع بين المتوادِّين المتصافين شيء مِنَ الخُصُومة، أَوِ الخلاف، أَوِ الشَّحناء، بسبب بعض المواقف الخاطئة، أَوِ الَّتِي يُتوهَّم أَنَّهَا خاطئة، فيقع على إثر ذلك تقاطع وتدابر، وتهاجر وتنافر، فيحتاج الأمر حينئذ إلى دخول المصلحين لرأب الصَّدْع ولَمِّ الشَّمل، والإصلاح بين المتخاصمين، وهذا الإصلاح بين النَّاس يُعدُّ في الشَّريعة خُلُقًا كريمًا رفيعًا، لا ينهض به إِلَّا أصحاب القلوب الرَّحيمة والنُّصحِ والإحسان.

وقد جاءت الشَّريعة في هذا المقام بحثِّ المسلمين على رعاية أمر إصلاح ذات بينهم، والحَثِّ على الإصلاح بين النَّاس، لتبقى القلوب المؤمنة صافيةً متوادَّةً متحابَّة، لا متقاطعةً متهاجرة متباغضة، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]؛ قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «هَذَا تَحْرِيجٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ، وَيُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ»(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشُّورى: ٤٠].

إنَّ أمرَ الصُّلح والإصلاح أمرٌ عظيم ومطلب جليل؛ فما أعظم أثر من يعمل في مجتمعه مُصْلِحًا بين النَّاس، والله جَلَّوَعَلَا يعلم المصلح مِنَ المفسد، ولا يُصلح سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عملَ المفسدين.

والمصلح بين النَّاس السَّاعي في ائتلاف قلوبهم، واجتماع شملهم، وزوال الإحن والعداوة والبغضاء عنهم؛ متصدِّق عليهم بصدقة هي من خير الصَّدقات وأنفعها.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٤٧٨٠)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٩٢)، وقال الألبانيُّ: «صحيح الإسناد موقوفًا، وروي نحوه مرفوعًا من حديث ابن عبَّاس».

الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»، رواه عبد بن حميد في «المنتخب مِنَ المسند»[١].

ولا شكَّ أنَّ إصلاحَ الفسادِ بين النَّاس وإزالةَ الفتنةِ الثَّائرةِ والنَّارِ المشتعلةِ من أنفع وأفضل الصَّدقة، وأعظم به من صدقة! وذلك لما فيه من عموم المنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة مِنَ التَّعاون والتَّناصر والألفة والاجتماع على الخير؛ حَتَّى أُبِيحَ فيه الكذبُ لكثرة ما يندفع به من شَرِّ الفُرْقة المُضِرَّةِ بالدُّنْيَا والدِّين بتشتُّت القلوب، ووهن الأديان، واشتعال العداوات، وتسليط الأعداء، وشماتة الحُسَّاد، فلذلك صار الإصلاح من أفضل الصَّدقات على النَّاس.

إِنَّ المصلحَ في مجتمعه له أثرٌ عظيم على المجتمع ائتلافًا بين القلوب، والتئامًا للشَّمل، ودحرًا للشَّيطان، وزوالًا للعداوة والبغضاء؛ فما أعظمَ أثر المصلحين! وما أعظمَ ثوابهم عند رَبِّ العالمين! بما أجراه على أيديهم من إصلاحٍ بين الزَّوجين، وبين الإخوان، وبين الأصدقاء، وبين الجيران، وبين عموم المتعامِلين، احتسابًا لثواب الله، وطمعًا في موعوده جلَّ في علاه.

ولهذا ينبغي لكُلِّ عبدٍ مؤمن أَنْ يحرصَ على هذا الأمر قدر استطاعته، ولا يحقرنَّ مِنَ المعروف في باب الإصلاح بين النَّاس شيئًا حَتَّى لو أصلح بين طفلين صغيرين، فكم من عداوةٍ نشبت بين طفلين صغيرين فنمَّاها الشَّيطان في قلبيهما وبقيت وقتًا طويلًا!.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟**» -أي: ما كان من ذلك

---

(١) أخرجه عبد بن حُمَيد في المنتخب مِنَ المسند (٣٣٥)، والقضاعي في مسند الشَّهاب (١٢٨١). وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢٦٣٩).

نافلةً لا فريضة- قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ**»، رواه أبو داود(١).

المقصودُ بالبَيْنِ: الفُرْقَة، يقال: بان كذا من كذا، أي: فارقه، وبانوا أي: ذهبوا وبعدوا. فالمقصود بإصلاح ذات البين: إصلاح ما يحصل بين النَّاس من فرقةٍ ووحشةٍ، ومن تباغض وتدابر، فيسعى المصلح للإصلاح بينهم، ويقرب بينهم بحيث يزول ما في النُّفوس، ويَحُلُّ مَحَلَّه الإخاء والمودَّة.

ذلك لخطورة الفرقة عليهم فهي تَحْلِق دينهم، وسببٌ لأضرار كبيرة تجري بينهم، مِنِ اعتداءِ بعضهم على بعض وكلام بعضهم في بعض، فإذا أصلح بينهم وأزيلت الفُرْقة؛ فإِنَّ النُّفوس تتقارب وتتآلف، وتسلم مِنَ الأخطار الَّتِي تترتَّبُ على ذلك.

وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث عِظم شأن الإصلاح بين النَّاس، وما يترتَّب على التَّقارب والتَّآلف وصفاء النُّفُوس مِنَ الخير الكثير، وقد ذكَر الصَّلاة والصِّيام؛ لأَنَّ هذه عبادات قاصرة غير متعدية لا تتجاوز صاحبها، والصَّدقة متعدية النَّفع، ولكِنَّها تتعلَّق بالنَّفع الدُّنيويِّ وحصولِ الفائدةِ في المعاش.

أَمَّا إصلاح ذات البين فيترتَّب عليه نفع عظيم؛ لما فيه من زوال الوحشة والفُرْقة، واندفاع الأضرار الكبيرة الَّتِي وُصفت في الحديث بأَنَّهَا حَلْقٌ للدِّين، ولهذا فضَّل الإصلاح على درجة الصَّوم والصَّلاة والصَّدقة لعظم فوائده وحسن عوائده.

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٩) وصحَّحه الألبانيُّ.

النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، قَالَ: **وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»، رواه مسلم(١).

قولُه: «**تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ**»؛ أي: متحاكمين، أو متخاصمين، أو متهاجرين. «**صَدَقَةٌ**»: أي: عليهما لوقايتهما مِمَّا يترتَّب على الخصام من آثار قبيحة وعواقب وخيمة.

هذا، ومن أجلِّ أخبار الصُّلح بين النَّاس: قِصَّة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ، وهو ابن خالة الصِّدِّيق، وكان مِنَ المهاجرين في سبيل الله، مسكينًا لا مال له، وكان الصِّدِّيق ينفق عليه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، وقد وَلَق مِسطح وَلْقَة في الإفك الَّذِي رُميت به أُمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فحلف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلَّا ينفعَ مِسْطَحًا بنافعة أبدًا بعدما قال في عائشة ما قال، **فمَنِ الَّذِي تولَّى الصُّلحَ بينهما؟**

لـمَّا أنزل اللهُ براءةَ أُمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النُّفُوس المؤمنة واستقرت، وتاب اللهُ على مَنْ كان تكلَّم مِنَ المؤمنين في ذلك، وأقيم الحَدُّ على مَنْ أقيم عليه شَرَع اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وله الفضل والمنَّة، يَعْطِفُ الصِّدِّيق على قريبه ونسيبه مسطح، فإِنَّهُ تاب الله عليه منها، وضُرب الحَدّ عليها، فأنزل سبحانه قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فإِنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فكما تغفر عَنِ

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٩).

المسيء إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك.

فعند ذلك قال الصِّدِّيق: بلى، والله إنَّا نُحِبُّ -يا رَبَّنَا- أن تغفر لنا، ثُمَّ رَجَع إلى مسطح ما كان يصله مِنَ النَّفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة قولِه الأوَّل: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[(١)].

وهي قِصَّة عظيمة جديرة أن تنشرَ ولا سيَّما بين المتخاصمين، فإنَّ لها وقعًا كبيرًا وتأثيرًا بالغًا في الإصلاح، فإنَّ الَّذِي تولى الصُّلْح فيها هو رَبُّ العالمين سبحانه، ولنبِيِّنَا الكريم ﷺ قصص كثيرة عظيمة في هذا الباب.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَلَمْ يَأْتِ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَاءَ بِلَالٌ، فَأَذَّنَ بِلَالٌ بِالصَّلَاةِ وَلَمْ يَأْتِ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حُبِسَ، وَقَدْ حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاسَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ.

ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، فَأَخَذَ النَّاسُ بِالتَّصْفِيحِ حَتَّى أَكْثَرُوا، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَكَادُ يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَرَاءَهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ كَمَا هُوَ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعَ الْقَهْقَرَى وَرَاءَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي الصَّفِّ.

وَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي صَلَاتِكُمْ أَخَذْتُمْ بِالتَّصْفِيحِ؟! إِنَّمَا التَّصْفِيحُ لِلنِّسَاءِ، مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، فَإِنَّهُ**

(١) أخرجه أبو داود (٨)، وابن ماجه (٣١٣) واللَّفظ له، وحسَّنه الألبانيُّ.

لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا الْتَفَتَ، يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ حِينَ أَشَرْتُ إِلَيْكَ لَمْ تُصَلِّ بِالنَّاسِ؟» فَقَالَ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ، متفق عليه[١].

فيه أَنَّهُ ﷺ كان يسعى بنفسه في إصلاح ذات البين حَتَّى إِنَّهُ في هذه المرَّة تأخَّر إلى أن حانتِ الصَّلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أبا بكر، إنَّ رسول الله ﷺ قد حبس، وقد حانَتِ الصَّلاة، فهل لك أن تَؤُمَّ النَّاس؟ قال نعم، إن شئت، فصَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنَّاس.

وفي روايةٍ لأبي داود: فَأَتَاهُمْ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ بَعْدَ الظُّهْرِ، فَقَالَ لِبِلَالٍ: «**إِنْ حَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَلَمْ آتِكَ، فَمُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ أَذَّنَ بِلَالٌ، ثُمَّ أَقَامَ، ثُمَّ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ فَتَقَدَّمَ[٢].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَبِي تُرَابٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا دُعِيَ بِهَا، جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**» فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: «**انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟**» فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ فَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»، متَّفق عليه[٣].

فيه أَنَّ أهل الفضل قد يقع بين الواحد منهم وبين زوجه شيء

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٠)، واللَّفظ له، ومسلم (٤٢١).
(٢) أخرجه أبو داود (٩٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٢٨٠) واللَّفظ له، ومسلم (٢٤٠٩).

مِنَ الخلاف والغضب حَتَّى يدعوهم ذلك إلى الخروج من بيوتهم، وليس ذلك منقصًا من أقدارهم، وفيه كرم أخلاق الرَّسول ﷺ وحسن معاشرته، وشدَّة تواضعه، وعظيم عنايته بالصُّلح، حيث بحث عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذهب إليه في مكانه ولاطفه وداعبه، وأخذ يمسح بيده عن ظهره التُّراب، ويباسطه حَتَّى ذهب عنه غيظه وسكنت نفسه بذلك.

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: «**أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟**»، قَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ(١).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ: «**يَا كَعْبُ**»، فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، «فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ»، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُمْ فَاقْضِهِ**»(٢).

فأصلح ﷺ بينهما بأن يُسقطَ الدَّائن شيئًا مِنَ الدَّيْنِ الَّذِي كانا يختصمان عليه وهو شيء مؤجَّل، وأن يكون مع الحطِّ مِنَ الدَّيْنِ وضيعة منه، بشرط أن يسدِّدَ المدين في الحال، ولهذا قال له: «**قُمْ فَاقْضِهِ**».

ومن أغرب قصص الخصومات وأعجبها: ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا**

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٠٥)، ومسلم (١٥٥٧) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٧١)، ومسلم (١٥٥٨) واللَّفظ له.

لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ. فَقَالَ الَّذِي شَرَى الأَرْضَ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا. قَالَ: فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا»، متَّفق عليه[(١)].

فكُلُّ واحد منهما فيه ورعٌ عظيم فينفي أَنَّ المالَ له، فتحاكما إلى رجل فقال لأحدهما: ألك ابن؟ قال: نعم، وقال للثَّاني: ألك جارية؟ قال: نعم، فقال: زَوِّجُوا الابن بالجارية، واجعلا هذا الذَّهب للمهر والنَّفقة، ففعلا، فزال الخلاف وتحقَّق الصُّلح، بل والخيرُ العظيم.

وعن عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الطُّفَيْلِ: «أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حُدِّثَتْ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ، أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ، أَنْ لَا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا.

فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا، حِينَ طَالَتِ الهِجْرَةُ، فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ، لَا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي.

فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، كَلَّمَ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ لَمَا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ، فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي.

فَأَقْبَلَ بِهِ المِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا، حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَنَدْخُلُ؟

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) واللَّفظ له.

قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا، قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَم، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ، وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي.

وَطَفِقَ المِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ، وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الهِجْرَةِ، فَإِنَّهُ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ».

فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ، وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا»، رواه البخاريُّ[(١)].

عائشة أُمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانت ذات علم وفقه ورأي وحُسْن تدبير، وعبد الله بن الزُّبير وهو ابن أختها أسماء، لمَّا سمع عنها أَنَّهَا تبرعت بمال كثير استكثر ذلك، وقال: لئن لم تنته لأَحْجُرَنَّ عليها، وهذه كلمة شديدة في حَقِّهَا فهي خالته، ولديها مِنَ العلم والفهم ما لا يليق أن يقال فيها ذلك.

فبلغها أَنَّهُ قال ذلك، وتحقَّقت من صحَّة الخبر، ثُمَّ نذرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَلَّا تكلِّمَه أبدًا، وذلك لشِدَّة ما حصل لها من ألم، وهجرته، واستمرت هاجرة له موفية بيمينها، وهو يحاول أن يسترضيها فلم تقبل.

ففعل حيلة يتمكَّن بها مِنَ الدُّخول عليها، فكلَّم المسور بن مخرمة وعبد الرَّحمن بن الأسود بن عبد يغوث -وهما من بني زهرة- وقال

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٧٣).

لهما: أنشدكما بالله لَمَا أدخلتماني على عائشة فإِنَّهَا لا يَحِلُّ لها أن تنذر قطيعتي، فأجاباه وسعيا معه إليها للإصلاح.

واستأذنوا على عائشة كُلُّهم ولم يعلماها أَنَّ معهما ابنَ الزُّبير، فلَمَّا دخلوا دخل ابنُ الزُّبير الحجاب فاعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكي، والمسور وعبد الرَّحمن يناشدانها أن تعفو عنه وأن تكلِّمَه، حَتَّى قبلت وعفت عنه.

وعن حُمَيْدِ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُوم بِنْتَ عُقْبَةَ ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ- أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا**»، متَّفق عليه[(١)].

وزاد مسلم: وَقَالَتْ: «وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا»[(٢)].

ومعناه ليس الكذَّاب المذموم الَّذِي يصلح بين النَّاس، بل هذا محسن إذا سعى في الإصلاح ناقلًا من هؤلاء إلى هؤلاء، ومن هؤلاء إلى هؤلاء كلامًا جميلًا، كما أشار إليه بقوله: «**فَيَنْمِي**»؛ أي: يبلغ، «**خيرًا**» على وجه الإصلاح، «**ويقول خيرًا**»، أي: يخبر بما عمله المخبر عنه مِنَ الخير، ويسكت عَمَّا عمله مِنَ الشَّرِّ، فإِنَّ ذلك جائز مندوب إليه لِمَا يترتَّبُ عليه من خير ومصلحة، ولَوِ احْتَاجَ في هذا المقام إلى الحَلِفِ فلا حرجَ عليه.

قال الشَّيخ عبدُ العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «المشروع للمؤمن أن يقلِّل

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٥).

مِنَ الأيمان ولو كان صادقًا؛ لأَنَّ الإكثارَ منها قد يوقعه في الكذب، ومعلوم أَنَّ الكذبَ حرامٌ، وإذا كان مع اليمين صار أشدَّ تحريمًا.

لكنْ لو دعت الضَّرورة أَوِ المصلحة الرَّاجحة إلى الحَلِفِ الكاذب فلا حرج في ذلك، لِمَا ثبت عَنِ النَّبِيِّ ﷺ من حديث أُمِّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِى يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَقُولُ خَيْرًا أَوْ يَنْمِي خَيْرًا**» قالت: «وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا»، رواه مسلم في «الصَّحيح»(١).

فإذا قال في إصلاح بين النَّاس: واللهِ إِنَّ أصحابك يحِبُّون الصُّلح، ويحِبُّون أَنْ تتَّفقَ الكلمةُ، ويريدون كذا وكذا، ثُمَّ أتى الآخرين وقال لهم مثل ذلك، ومقصده الخير والإصلاح فلا بأس بذلك للحديث المذكور»(٢). اهـ.

وَإِنِ استغنى عنه بالتَّورية فهو أولى، كَأَنْ يقولَ له: واللهِ إِنَّ أصحابك يثنون عليك، أو سمعتهم يثنون عليك، مع أَنَّهُ لم يسمع منهم إِلَّا ذَمَّهُ؛ لأَنَّ ذكر الشَّخص بالشَّرِّ يصحُّ أَنْ يُسَمَّى ثناءً.

كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَجَبَتْ**»، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»، متَّفق عليه(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٥).
(٢) مجموع فتاوى ابن باز (١/ ٥٤).
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٣٦٧)، واللَّفظ له، ومسلم (٩٤٩).

وعن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ حَزِنُوا عَلَيْهِ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يُوَسْوِسُ، قَالَ عُثْمَانُ: وَكُنْتُ مِنْهُمْ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي ظِلِّ أُطُمٍ مِنَ الآطَامِ مَرَّ عَلَيَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، فَلَمْ أَشْعُرْ أَنَّهُ مَرَّ وَلَا سَلَّمَ.

فَانْطَلَقَ عُمَرُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا يُعْجِبُكَ أَنِّي مَرَرْتُ عَلَى عُثْمَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلامَ؟ وَأَقْبَلَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ فِي وِلايَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى سَلَّمَا عَلَيَّ جَمِيعًا، ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: جَاءَنِي أَخُوكَ عُمَرُ، فَذَكَرَ أَنَّهُ مَرَّ عَلَيْكَ، فَسَلَّمَ فَلَمْ تَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟

قَالَ: قُلْتُ: مَا فَعَلْتُ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلَى، وَاللهِ لَقَدْ فَعَلْتَ، وَلَكِنَّهَا عُبِّيَّتُكُمْ يَا بَنِي أُمَيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ مَا شَعَرْتُ أَنَّكَ مَرَرْتَ بِي، وَلَا سَلَّمْتَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ عُثْمَانُ، وَقَدْ شَغَلَكَ عَنْ ذَلِكَ أَمْرٌ؟ فَقُلْتُ: أَجَلْ، قَالَ: مَا هُوَ؟

فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَوَفَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ نَجَاةِ هَذَا الأَمْرِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَنْتَ أَحَقُّ بِهَا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَجَاةُ هَذَا الأَمْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَبِلَ مِنِّي الْكَلِمَةَ الَّتِي عَرَضْتُ عَلَى عَمِّي فَرَدَّهَا عَلَيَّ، فَهِيَ لَهُ نَجَاةٌ**»(١).

فهذا أبوبكر زمن ولايته قام من ساعته مصلحًا ولم يطلب مجيء عثمان، بل ذهب إليه بنفسه، وتبيَّن أنَّ عثمان ما شعر بمرور عمر ولا تسليمه، وزال الالتباس الَّذي وُجِدَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠) واللَّفظ له، وأبو يعلى في مسنده (٩).

ومن كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة العظيم في الإصلاح قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتعلمون أنَّ مِنَ القواعد العظيمة الَّتِي هي من جماع الدِّين تأليفُ القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ [الأنفال:١]، ويقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وأمثال ذلك مِنَ النُّصوص الَّتِي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عَنِ الفُرْقَة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أَنَّ الخارجين عنه هم أهل الفُرْقَة، وجماع السُّنَّة طاعة الرَّسول، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح الَّذِي رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أُمُورَكُمْ**»[(١)].

وفى «السُّنن» من حديث زيد بن ثابت، وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقيهي الصَّحابة، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جماعةِ المسلمين، فإنَّ دعوتَهم تُحيط مَن وراءَهم**»[(٢)].

وقولُه: «**لا يَغِلُّ**»؛ أي: لا يحقد عليهن، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم، بل يحِبُّهنَّ ويرضاهن، وأوَّل ما أبدأ به من هذا الأصل ما

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

يتعلَّق بي، فتعلمون -رضي الله عنكم- أَنِّي لا أُحِبُّ أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلًا عن أصحابنا بشيء أصلًا، لا باطنًا ولا ظاهرًا، ولا عندى عتب على أحد منهم ولا لوم أصلًا، بل لهم عندي مِنَ الكرامةِ والإجلال، والمَحَبَّة والتَّعظيم، أضعاف أضعاف ما كان كُلٌّ بِحَسَبِهِ.

ولا يخلو الرَّجُل إِمَّا أنْ يكونَ مجتهدًا مصيبًا، أو مخطئًا، أو مذنبًا، فالأوَّل مأجورٌ مشكورٌ، والثَّانى مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له، والثَّالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلانٌ قصَّر، فلانٌ ما عمل، فلانٌ أوذي الشَّيخ بسببه، فلانٌ كان سبب هذه القضيَّة، فلانٌ كان يتكَلَّم في كيد فلانٌ، ونحو هذه الكلمات الَّتِى فيها مذمَّة لبعض الأصحاب والإخوان؛ فإِنِّى لا أسامح مَنْ آذاهم مِنْ هذا الباب، ولا حول ولا قُوَّة إِلَّا بالله»(١). اهـ.

ومِنَ النَّافع غاية النَّفع في هذا الباب: كثرة الدُّعاء أن يؤَلِّفَ اللهُ بين القلوب، ويصلحَ ذات البين، ويصرفَ كيد الشَّيطان ونزغه.

عن أبي وائل شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: «كَانَ مِنْ دُعَاءِ عَبْدِ اللهِ: رَبَّنَا أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ الإِسْلامِ، وَأَخرِجْنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَاصْرِفْ عَنَّا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ إِنَّك أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا لأَنْعُمِكَ شَاكِرِينَ مُثْنِينَ بِهَا قَائِلِينَ بِهَا، وَأَتْمِمْهَا عَلَيْنَا»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٢٩٥٢٤)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٦٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(١٤)

الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ

الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ خُلُقٌ كَرِيمٌ، وَأَدَبٌ عَظِيمٌ جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِالْحَثِّ عَلَيْهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ؛ فَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ الإِحْسَانِ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣].

وهو بابٌ عظيمٌ من أبواب نيل الرَّحمة والغفران، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤].

وهو بابٌ لنيلِ عظيمِ الأجورِ وجزيلِ الثَّوابِ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشُّورى:٤٠].

وهو بابٌ رفيعٌ للفوز بالجنان ونيل رضا الرَّحمن، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وأهل العفو هم الأقرب لتحقيق تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٧].

والعَفُوُّ: اسم من أسماء الله الحسنى، والعَفْو صفة من صفاته، وهو الَّذي يمحو السَّيِّئات، ويتجاوز عَنِ المعاصي، وهو سبحانه لم يَزَلْ ولا يزال بالعفوِ والتَّجاوز معروفًا، وبالصَّفح والغفران موصوفًا،

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النَّساء:٩٦].

وهو سبحانه يحبُّ العفوَ، وقد علَّم النَّبيُّ ﷺ أُمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تقولَ: «اللهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»[١]، فهو يُحبُّ أن يعفوَ عن عبده، ويحبُّ من عباده أن يعفوا عن إخوانهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النِّساء:١٤٩].

فحريٌّ بالمؤمن أن يقفَ وقفةً صادقة متأمِّلًا في هذه الآيات، ومتدبِّرًا لهذه الهدايات، ثُمَّ ينظر إلى واقعه وحقيقة حاله في هذا الباب؛ كظمِ الغيظ، والعفو عَنِ المسيء، والصَّفح عنه والتَّجاوز عن إساءته، وأعظم بها من خَصْلة لا تنهض لفعلها إلَّا القلوبُ الصَّادقة والنُّفُوس الكبيرة المُؤَيَّدةُ بالمعونة والتَّوفيق مِنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إنَّ العفوَ والصَّفحَ مقامٌ عظيم، ومنزلةٌ رفيعة، وهو صفة نبيِّنا ﷺ، وصفة أتباعه بإحسان.

عن أَبِي عَبْدِ اللهِ الجَدَلِيِّ قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا، وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»[٢].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]،

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٦) واللَّفظ له، والطيالسيُّ في مسنده (١٦٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»، رواه البخاريُّ(١).

وهو ﷺ في هذا عامِلٌ بقول الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصّلت:٣٤].

فهذا أدب عظيم ومن مكارم الأخلاق الَّتِي أمر الله بها رسوله ﷺ «أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أَنَّهُ يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولَكِنِ ادْفَعْ إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فَإِنَّ ذلك فضل منك على المسيء.

ومن مصالح ذلك: أَنَّهُ تَخِفُّ الإساءة عنك في الحال، وفي المستقبل، وأَنَّهُ أدعى لجلب المسيء إلى الحَقِّ، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتَّوبة عمَّا فعل، وليتَّصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدُوَّهُ الشَّيطان، وليستوجب الثَّواب مِنَ اللهِ، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشُّوري:٤٠]»(٢).

ومقامُ العفوِ والصَّفح لا يزيد صاحبه إِلَّا عزًّا ورفعةً وسُمُوَّ قَدْرٍ في الدُّنْيَا والآخرة

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٨٣٨).
(٢) تفسير ابن سعدي (١/ ٥٥٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»، رواه مسلم[(١)].

خلاف ما يظُنُّه كثير مِنَ النَّاس أَنَّهُ ذُلٌّ ومهانة؛ فتقول النَّفْسُ الأمارة بالسُّوء: كيف تعفو وتصفح وقد فعل بك ما فعل؟ وتدفعه إلى الانتقام، وتُوهِمُه أَنْ الانتقامَ هو العِزُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبيَّنَ الصَّادق المصدوق أنَّ اللهَ لا يزيد العبدَ بالعفو إِلَّا عِزًّا، وأَنَّهُ لا تنقص صدقة من مال، وأَنَّهُ ما تواضع أحد لله إِلَّا رفعه الله، وهذا ردٌّ لِمَا يظُنُّه مَنْ يتبع الظَّنَّ وما تهوى الأنفس مِنْ أَنَّ العفوَ يُذِلُّهُ، والصَّدقة تنقص ماله، والتَّواضع يَخْفِضُه»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعِزُّ الحاصل له بالعفو، أَحَبُّ إليه وأنفع له مِنَ العِزِّ الحاصل له بالانتقام، فإِنَّ هذا عِزٌّ في الظَّاهر، وهو يورث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا»[(٣)].

وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قَطُّ إِلَّا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله، وهذا من كمال خُلُقه وكريم صفحه وعفوه.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»، متَّفق عليه[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٨).
(٣) قاعدة في الصَّبر لابن تيميَّة (١/ ٩٧).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ، مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»، متَّفق عليه(١).

وبالمجاهدة للنَّفس يرتقي المرء إلى هذا الخُلُق، فعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»، رواه الطَّبرانيُّ(٢).

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا جاءك شخص يشكو آخر فقل له: اعفُ عنه، فإِنَّ العفو أقرب لتقوى الله جَلَّ وَعَلَا، فإِنْ قال لك: إِنَّ قلبي لا يحتمل العفو عنه، ولكِنْ أريد أَنْ أنتصر منه كما أمر الله؛ فقل له: إن كنت تُحسن أن تنتصر -أي: كما أمر الله-، وإِلَّا فعليك بالعفو، فإِنَّهُ بابٌ واسع.

وهذا تنبيه جليل لأَنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس في مقام الانتقام مِمَّنْ أساء إليه لا يقتصر على سيِّئةٍ مثل السَّيِّئة الَّتي نيل منه بها، بل يتجاوز ويتعدى ويظلم».

وقول القائل: «إِنَّ هذا أمر لا يحتمله قلبي، ولا أتمكن من فعله»؛ غير صحيح؛ لأَنَّ المقام مقام مجاهدةٍ واستعانةٍ بالله، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولنتأمَّلْ في هذا المقام أنواعًا مِنَ العفوِ في جوانب كثيرة جاء التَّنويه بها في القرآن الكريم، كثير مِنَ النَّاس يظُنُّها أمرًا لا يُحتمل، أو

(١) أخرجه البخاريُّ (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٢٦٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

لا يمكن العفو عنها:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩]، فهذا عفوٌ في مقابلة الأذى في الدِّين.

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور:٢٢]، وهذا عفوٌ في مقابلة الأذى في العِرْض، وهو من أشدِّ الأذى وأنكاه.

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ﴾ [البقرة:١٧٨]، وهذا عفوٌ مقابلة الأذى بالدَّم والقتل.

ومن أشدِّ الأذى أذى القرابة من زوجةٍ، أَوِ ابنٍ، أو أخٍ، أو نحوِ ذلك، وكثير مِنَ النَّاس لا يحتمل قلبه ذلك لما يرى له عليهم من حقوق قوبلت بظلم وعدوان وإساءة، فيرى كثير مِنَ النَّاس أنَّ هذا المقام مقامٌ لا يُحتمل فيه العفو والصَّفح، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّغابن:١٤].

ونفسُ الإنسانِ ميَّالةٌ للانتقام والأخذ بالثَّأر، وإذا حُدِّثت حثًّا وترغيبًا بالعفو والصَّفح تمنَّعت عن ذلك ونفرت منه ولم تقبل عليه؛ لِمَا في النُّفوس من رعونة وشدَّة، ولِمَا فيها من غلظةٍ وفظاظة، لكنَّها إذا رُوِّضت بالحقِّ وزُمَّت بزمام الشَّرع فإنَّها تنقاد سلسةً بإذن الله؛ إذا كان العبد مستعينًا بالله طالبًا مَدَّهُ وعونَه وتوفيقَه، واللهُ جلَّ في علاه يقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وإذا تذكَّر المؤمن في هذا المقام ثواب الله وأجره وغفرانه ورحمته وما سيناله على صفحه وعفوه من أجورٍ عظيمة وثواب جزيل هان عليه ما سوى ذلك.

عن معاذ بن أنس الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ قال: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ**»، رواه أبو داود[(١)].

أي: اجترع غضبًا كامنًا فيه، وكان قادرًا على أن يفتك بمن أغاظه، وترك ذلك لوجه الله، فله هذا الثَّواب العظيم، أَنَّهُ يُدْعَى على رؤوس الخلائق يوم القيامة يتخيَّر من أيِّ الحور العين شاء.

والنَّاس في هذا المقام -مقام العفو أو عدمه- أقسامٌ ثلاثة:

قسمٌ ينتقم مِمَّنْ أساء إليه بأخذ حقِّه دون تجاوز، وقسمٌ ينتقم مِمَّنْ أساء إليه بظلمٍ وتجاوزٍ وتعدٍّ، وقسمٌ ثالث يعفو ويصفح.

فالنَّاس أقسام ثلاثة في هذا المقام؛ أَمَّا الأوَّل فهو المقتصد، وأَمَّا الثَّاني فهو الظَّالم لنفسه ولغيره، وأَمَّا الثَّالث فهو السَّابق بالخيرات، وقد جمع الله جَلَّ وَعَلَا هذه الأقسام الثَّلاثة في قوله سبحانه: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشُّورى:٤٠].

فقولُه: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ هذا في حَقِّ المقتصد، وهو مَنْ يأخذ حقَّه دون تجاوز، وأَمَّا قوله: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فهذا في حَقِّ السَّابقين بالخيرات أهل العفو والصَّفح والإحسان، وأَمَّا قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهو في حَقِّ مَنْ يعتدي ويبغي ويظلم.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَمَّا كان النَّاسُ عند مقابلة الأذى ثلاثةَ أقسام: ظالم يأخذ فوق حَقِّه، ومقتصد يأخذ بقدر حَقِّه، ومحسن يعفو ويترك حَقَّه، ذكر الأقسام الثَّلاثة في هذه الآية، فأوَّلها للمقتصدين، ووسطها للسَّابقين، وآخرها للظَّالمين»(١).

وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمورًا عديدة تعين العبد على العفو والصَّفح يحسن بالمسلم أن يتأمَّلَهَا، **منها:**

* أَنْ يتفكَّر العبدُ في حسن الثَّواب الَّذِي وعده الله لِمَنْ عفا وصفح وكَظَم الغيظ، وقد تقدَّم ذكر آيات في ذلك.

* أَنْ يعلمَ أَنَّهُ إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه مِنَ الغشِّ والغلِّ وطلب الانتقام وإرادة الشرِّ، وحصل له من حلاوة العفو ما تزيد لذتُه ومنفعته عاجلًا وآجلًا، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفة.

* أَنْ يعلمَ أَنَّهُ ما انتقم أحد قَطُّ لنفسه إِلَّا أورثه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عفا أعزَّه اللهُ تعالى، كما تقدَّم في الحديث: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»(٢).

* أَنْ يُذكِّر نفْسَه أَنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وأَنَّهُ -نفْسَه- ظالمٌ مذنبٌ، وأَنَّ مَنْ عفا عَنِ النَّاس عفا الله عنه، ومَنْ غفر لهم غفر الله له. فإذا شهد أَنَّ عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه؛ كان سببًا لأَنْ يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره، وتكفي العاقلَ هذه الفائدةُ.

(١) قاعدة في الصَّبر لابن تيميَّة (١/ ٩٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

* أَنْ يعلمَ أَنَّهُ إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرَّق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولَعَلَّ هذا أعظم عليه مِنَ المصيبة الَّتِي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه الَّتِي هي أَهَمُّ عنده مِنَ الانتقام.

* أَنْ يتذكَّر أَنَّ رسولَ الله ﷺ ما انتقم لنفسه قَطُّ، فإذا كان هذا خير خَلْق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أَنَّ أذاه أذى الله، ويتعلَّق به حقوق الدِّين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدها من كُلِّ خُلُق مذموم، وأحَقُّهَا بكُلِّ خلق جميل.

ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه الَّتِي هو أعلم بها وبما فيها مِنَ الشُّرور والعيوب؟! بل الرَّجُل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قَدْر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

* أَنْ يتأمَّلَ في الأمر الَّذِي أوذي لأجله، فإِنْ كان أوذي على ما فعله لله، أو على ما أَمر به من طاعته ونهى عنه من معصيته؛ وجب عليه الصَّبر، ولم يكن له الانتقام، فإِنَّهُ قد أوذي في الله فأجره على الله.

وإِنْ كان قد أوذي على حظٍّ دنيويٍّ؛ فلْيُوَطِنْ نفسه على الصَّبر، فإِنَّ نيلَ الحظوظ -التي هي دونه- أمرٌ أمرُّ مِنَ الصَّبر، فمَنْ لم يصبر على حَرَّ الهواجر والأمطار والثُّلوج، ومشقَّة الأسفار ولصوص الطَّريق، وإِلَّا فلا حاجة له في المتاجرة. وهذا أمر معلوم عند النَّاس أَنَّ مَنْ صدق في طلب شيء مِنَ الأشياء بذل مِنَ الصَّبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

* أَنْ يعلمَ أَنَّ صبرَه على مَنْ آذاه واحتمالَه له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم النَّاس له، فيعود بعد إيذائه له مستحييًا منه نادمًا على ما فعله، بل يصير مواليًا له، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ

إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٥].

* أَنْ يتنبَّه أَنَّهُ رُبَّمَا كان انتقامه ومقابلته سببًا لزيادة شرِّ خصمه، وقُوَّة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى الَّتِي يوصلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا أمن من هذا الضَّرر، والعاقل لا يختار أعظم الضَّررين بدفع أدناهما.

وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شرٍّ عَجَز صاحبه عن دفعه! وكم قد ذهبت نفوس ورئاسات وأموال، لو عفا المظلوم لبقيت عليه!.

* أَنَّ مَنِ اعتاد الانتقام ولم يصبر لا بُدَّ أَنْ يقع في الظُّلم، فإِنَّ النَّفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علمًا ولا إرادة، ورُبَّمَا عجزت عَنِ الاقتصار على قَدْر الحَقِّ، فإِنَّ الغضبَ يَخْرُج بصاحبه إلى حَدٍّ لا يعقل ما يقول ويفعل، فالمظلوم ينتظر النَّصر والعِزَّ، فإذا انقلب ظالمًا فسينتظر المقت والعقوبة.

* أَنَّ هذه المظلمة الَّتِي ظُلِمَها هي سبب إِمَّا لتكفير سيِّئته، أو رفع درجته، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفِّرة لسيِّئته ولا رافعة لدرجته.

* أَنَّ عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه، فإِنَّ مَنْ صبر وعفا كان صبره وعفوه موجبًا لذُلِّ عَدُوِّهِ، وخوفه وخشيته منه ومِنَ النَّاس، فإِنَّ النَّاس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كُلُّه.

* أَنَّهُ إذا عفا عن خصمه استشعرت نفسُ خصمه أَنَّهُ فوقه، وأَنَّهُ قد ربح عليه، فلا يزال الخصم يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعفو.

* أَنَّهُ إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولَّد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد له أخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإِنَّ من ثواب الحسنة الحسنةَ بعدها، كما أَنَّ من عقاب السَّيِّئة السَّيِّئةَ بعدها. ورُبَّمَا

كان هذا سببًا لنجاته وسعادته الأبديَّة، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك.

فمَنْ يتأمَّلْ في هذه المعاني العظيمة سيكون لها ولا بُدَّ أثرٌ على قلبه وتأثيرٌ في نفسه عفوًا وصفحًا وتجاوزًا عمَّنْ أساء إليه، وهذا خير للعبد من بقاء الشَّحناء والعداوة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»، رواه مسلم(١).

وفي روايةٍ: «**إِلَّا الْمُتَهَاجِرَيْنِ**»(٢)، وفي روايةٍ أخرى قال: «**تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ عَلَى اللهِ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**»(٣)، وذكر نحوه.

وهذا أمر عظيم يتعلَّق بالأعمال وقبولها، ونيلِ غفران الذُّنوب، فلهذه الشَّحناء تأثير في تأخير قبول العمل ونيل الغفران، ولْنَتأمَّلْ هذا التَّأكيد على ذلك ثلاث مرَّات يقول: «**أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»؛ أي: أمهلوا فلا تجعلوا مِنَ المغفرة نصيبًا لهذين المتهاجرين المتعاديين، وأخِّروا مغفرتهما حَتَّى يصطلحا، زجرًا لهما وحثًّا على المبادرة للصُّلح.

ولا يجوز لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث من أجل حظوظٍ دنيويَّة ومبتغيات آنيَّة، وذلك أَنَّ دينَ الإسلام دينٌ أوجد اللهُ سبحانه به أُخُوَّةً دينيَّة ورابطةً إيمانيَّة ووِثاقًا عظيمًا لا نظير له، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ**»(٤)؛

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).
(٣) أخرجه أحمد (٧٦٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٨٠٠).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

فهذه الأُخُوَّةُ الإيمانيَّة والرَّابطة الدِّينيَّة العظيمة لا يجوز أَنْ تُهدر وأَنْ تضيع من أجل بعض الحظوظ الدُّنيويَّة.

وهذه مصيبة عظيمة أَنْ يُخَلَّ بهذه الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة هذا الإخلال، وأَنْ تضيَّعَ بهذه الطَّريقة لأجل بعض الحظوظ الدُّنيويَّة، وقد جاء في أحاديث عديدة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ النَّهيُ عن أَنْ يهجرَ المسلم أخاه فوق ثلاث، وأَنَّ هذا يتنافى مع الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة، ويُعرِّض المرء لعقوبة الله.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ**»، متَّفق عليه(١).

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»، متَّفق عليه(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»، رواه مسلم(٣).

وعن هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُصَارِمَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَإِنَّهُمَا مَا صَارَمَا فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَإِنَّهُمَا نَاكِبَانِ عَنِ الْحَقِّ مَا دَامَا عَلَى صِرَامِهِمَا، وَإِنَّ أَوَّلَهُمَا فَيْئًا يَكُونُ كَفَّارَةً لَهُ سَبْقُهُ بِالْفَيْءِ، وَإِنْ هُمَا مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا لَمْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ جَمِيعًا**»، رواه البخاري فيُّ «الأدب المفرد»(٤).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠) واللَّفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦١).

(٤) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٤٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فحدَّد ﷺ في هذه الأحاديث مساحة زمنيَّة لا تزيد على ثلاثة أيَّام لتصفية النُّفوس، وإبعاد ما لحقها من شحناء، وفي الحديث المتقدِّم أَنَّ عرضَ الأعمال على الله كُلَّ اثنين وخميس، وبين الاثنين والخميس والخميس والاثنين هذه المساحة.

وهي فرصةٌ كافية بأن يطرح المرء ما في نفسه على أخيه، لأَنَّه لا يَحِلُّ له أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ففي فورة الغضب واشتداده عُفي عَنِ الهجر في حدود تلك المدَّة الزَّمنيَّة الَّتِي لا تزيد على ثلاثة أيَّام، أمَّا بعد الثَّلاثة فإِنَّ الأمر حرام ولا يجوز.

وعندما نتأمَّلُ في هذا الحديث العظيم عرض الأعمال على الله وتفتيح أبواب الجنَّة كُلَّ اثنين وخميس ندرك أَنَّ هذين الوقتين العظيمين فيهما فتح بابٍ للمسامحة، لاسيما من عبدِ الله الموفَّق الَّذِي يستحضر أهميَّة الثَّواب ونيل الغفران، وعدم تأخير قبول العمل، وأَيُّ مصلحة للمرء في أَنْ يُعرض عمله على الله في يومي الاثنين والخميس فيُؤَخَّر غفران ذنوبه لشحناء بينه وبين أحد إخوانه؟!.

فلْيَتَّقِ اللهَ النَّاصحُ لنفسه، ولْيَحرصْ على حفظ أعماله وقبولها ونيل غفران الله، ولْيُبعِدْ كُلَّ سببٍ موجِب لرَدِّها أو تأخير قبولها.

عَنْ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ**»، رواه أبو داود[(١)].

وعن عِمْرَانَ بْنِ أَبِي أَنَسٍ حَدَّثَهُ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**هِجْرَةُ الْمُسْلِمِ سَنَةً كَدَمِهِ**»، رواه

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

البخاريُّ في «الأدب المفرد»(١).

أي: مَنِ امتدَّت هجرته لأخيه سنة «**فهو كَسَفْكِ دَمِهِ**»، وهذا فيه دلالة على خطورة الهجر إذا استمرَّ هذه المُدَّة الطَّويلة، ولَعَلَّ مِنَ الحكمة في ذلك أَنَّ مَنْ هَجَر أخاه سنة أصبحت روابطُ الإسلام ووشائجُ الدِّين غيرَ مؤثِّرة، لأَنَّهُ مع امتداد الأيَّام لا بُدَّ أَنْ تؤثرَ روابط الدِّين، بعد أسبوع، أو بعد شهر، أو بعد شهرين، فيقول مثلًا: «هذا مُصَلٍّ، هذا يجمعني وإيَّاه دينُ اللهِ، يجمعنا الإسلامُ» فيتحرَّك للوصل، أَمَّا أَنْ يمتدَّ الهجر إلى هذه المدَّة الطَّويلة فهذا من ضعف الإيمان.

وعَنْ عِيَاضِ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»(٢).

«**رَحِيمٌ**»؛ أي: في قلبه رحمة لعباد الله يتعامل معهم بموجبها، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة:١٢٨].

وقولُه: «**رَقِيقُ الْقَلْبِ**»؛ أي: قلبه ليس قاسيًا غليظًا، بل فيه لين ورفق وشفقة لكُلِّ ذي قربى ومسلم، قال تعالى عن نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ومَنْ كان قلبُه كذلك هان عليه العفو وطاب قلبه بالصَّفْحِ.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٤٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(١٥)

لَا تَغْضَبْ

لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ بِتَوْجِيهَاتِهِ السَّمحةِ وإرشاداتِه القَوِيمَةِ هَاديًا إلى كُلِّ فضيلةٍ، داعيًا إلى كُلِّ خيْرٍ، مسدِّدًا النَّاس في الأقوال والأعمال، مُبعِدًا النَّفْسَ عن رعونَتِهَا، وهذا من كمالِ هذا الدِّين وجمالِ هداياتِه، حيثُ أرشدَ إلى كمالِ الأخلاقِ، ومجامع الخيرِ، وأصولِ البرِّ في أحوالِ النَّاس كُلِّها، وشؤونِهم جميعِها، وفي كُلِّ ما يأتُون ويذَرُونَ.

وهذه وقفةٌ مع خُلُق عظيمٍ دعا إليه دين الإسلام، يُعدُّ من مجامع الخير وأصول الأخلاق وأسس الفضيلة.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي. قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، رواه البخاريُّ(١).

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي؟ قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ، رواه أحمد(٢).

تأمَّلْ -رعاك اللهُ- ما يجنيه الغضب على الإنسان من تصرُّفاتٍ

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٧٤٦).

هوجاء، وأعمالٍ شنيعة، وأقوالٍ بذيئة، يندم المرء على فعلها غاية النَّدم عند ذهاب غضبه؛ لأَنَّهُ حال غضبه يتصرَّف تصرُّفًا يشبه تصرُّف مَنْ به جنونٌ، ثُمَّ بعد انتهاء غضبه يندم، ولهذا قيل في وصف الغضب: «أَوَّلُهُ جُنُونٌ، وَنِهَايَتُهُ نَدَمٌ».

وقول الصَّحابي: «فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ»، يفيد أَنَّ الغضبَ جماع الشَّرِّ، قال جعفر بن محمَّد: «الْغَضَبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»[(١)]، وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، قال: «تَرْكُ الْغَضَبِ»[(٢)].

والغضب هو غليان دم القلب وازدياد خفقانه طلبًا لدفع أمر مؤذٍ يتوقَّع الإنسان حصوله، أو طلب الانتقام مِمَّنْ حصل منه الأذى، ويفضي في الغالب بالإنسان إلى أقوالٍ سيِّئة، وإلى أفعالٍ شنيعة؛ -خاصَّة- عند اشتداده، فلا يملك كثير مِنَ النَّاس زمامَ نفسه -حينئذ- فينطلق اللِّسان بالسَّبِّ والفحش والبذاء، وتنطلق الجوارح بالبطش والضَّرب والعدوان.

لقد جاء الإسلام محذِّرًا من خطورة الغضب، داعيًا المسلم أَنْ يملك نفسه عند غضبه، ولهذا تُعَدُّ هذه الوصيَّة -«**لَا تَغْضَبْ**»- من جماع الوصايا وأنفعها في باب الأخلاق.

قال أهل العلم: وهذا يتضمَّن الوصيَّة بأمرين عظيمين لا بُدَّ منهما:

الأوَّل: أَنْ يدرِّب المسلمُ نفسَه على الأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة؛ مِنَ الصَّبر، والحلم، والأناة، والبعد عَنِ العجلة، إلى غير ذلك من الأخلاق، بحيث إذا ورد عليه وارد الغضب تلقَّاه بجميل خُلقه،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٣).

وعظيم أدبه، وحسن حلمه، وطيب صبره.

والأمر الثَّاني: أَنَّهُ عند وقوع الغضب على الإنسان أَنْ يملك نفسَه؛ فلا يندفع وقت غضبه إلى قولٍ لا يُحمد، أو فعل لا يليق، بل عليه أَنْ يملك نفسَه في أقواله وأفعاله عند غضبه، فلا يقول كلمةً ولا يفعل شيئًا حَتَّى تنطفأ جمرة الغضب.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقوله ﷺ لِمَنِ استوصاه: «لَا تَغْضَبْ» **يحتمل أمرين:**

أحدهما: أَنْ يكون مرادُه الأمرَ بالأسباب الَّتِي تُوجب حسن الخلق مِنَ الكرم، والسَّخاء، والحلم، والحياء، والتَّواضع، والاحتمال، وكفِّ الأذى، والصَّفح والعفو، وكظم الغيظ، والطَّلاقة والبِشْر، ونحوِ ذلك مِنَ الأخلاق الجميلة؛ فإِنَّ النَّفْسَ إذا تخلَّقت بهذه الأخلاق، وصارت لها عادة أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثَّاني: أَنْ يكونَ المرادُ: لا تَعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسَك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإِنَّ الغضبَ إذا ملك ابن آدم كان كالآمر النَّاهي له، ولهذا المعنى قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤].

فإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه على ذلك، اندفع عنه شرُّ الغضب، ورُبَّمَا سكن غضبه، وذهب عاجلًا، فكَأَنَّهُ حينئذ لم يغضب، وإلى هذا المعنى وقعت الإشارة في القرآن بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشُّورى:٣٧]، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧]»[(١)].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٤).

وعليه في هذا المقام أَنْ يتعوَّذَ بالله مِنَ الشَّيطان الرَّجيم؛ لأَنَّ الشَّيطان له نزغ عجيب، ودخول على الإنسان وقت غضبه، يدفعه إلى الأفعال الشَّنيعة، والأقوال الفظيعة.

عن سُلَيْمَانَ بْن صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: أَتَرَى بِي بَأْسٌ؟ أَمَجْنُونٌ أَنَا؟ اذْهَبْ، متَّفق عليه[١].

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فيه أَنَّ الغضبَ في غير الله تعالى مِنْ نزغ الشَّيطان، وأَنَّهُ ينبغي لصاحب الغضب أَنْ يستعيذَ فيقول: أعوذ بالله مِنَ الشَّيطان الرَّجيم، وأَنَّهُ سببٌ لزوال الغضب.

وأَمَّا قولُ هذا الرَّجُل الَّذِي اشتدَّ غضبه: هل ترى بي من جنون؟ فهو كلام مَنْ لم يفقه في دين الله تعالى، ولم يتهذَّبْ بأنوار الشَّريعة المكرَّمة، وتوهَّم أَنَّ الاستعاذةَ مختصَّةٌ بالمجنون، ولم يعلم أَنَّ الغضبَ من نزغات الشَّيطان، ولهذا يَخرج به الإنسانُ عَنِ اعتدال حاله، ويتكلَّم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك مِنَ القبائح المترتبة على الغضب.

لهذا قال النَّبِيُّ ﷺ للَّذِي قال له: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فردَّد مرارًا قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فلم يزده في الوصيَّة على «**لَا تَغْضَبْ**» مع تكراره الطَّلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ منه»[٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٤٨) واللَّفظ له، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) شرح النَّوويِّ على مسلم (١٦/ ١٦٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»، متَّفق عليه(١).

قولُه ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**»، المعروف عند النَّاس أَنَّ الصُّرَعَةَ هو الشَّديدُ القوِيُّ الَّذِي يصرع النَّاس، فأراد النَّبِيُّ ﷺ أن ينبههم أَنَّ الشِّدَّةَ والقُوَّةَ حقًّا ليست هي هذه، وإِنَّمَا هي أَنْ يملِكَ الإنسانُ نفسَه عند الغضب.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**»، رواه ابن ماجه(٢).

فهي أفضل جرعة يتجرَّعها العبد وأعظُمها ثوابًا وأرفعُها درجةً، بأن يحبس المرءُ نفسَه مِنَ التَّشفي والانتقام قاصدًا سلامة دينه ونيل ثواب الله.

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجَّه إلى أمرين عظيمين على الإنسان أَنْ يتحلى بهما حال غضبه؛ **أحدهما** يتعلَّق باللِّسان، **والثَّاني** يتعلَّق بالجوارح:

- **أَمَّا الأوَّل**: ففي «المسند» للإمام أحمد، عَنِ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»(٣)؛ أي: ليمنع نفسه مِنَ الكلام حال الغضب؛ لأَنَّهُ إِنْ تكلَّمَ وهو غضبان سيتكلَّمُ بما لا يَحمد عاقبته، لأَنَّهُ وقت الغضب قد يقول كلامًا سيِّئًا مِن لَعْنٍ، وشتمٍ، وبَذَاءٍ، فعليه أن يمسك عَنِ الكلام فلا يتكلَّم ولا بكلمة واحدة حال غضبه؛ لأَنَّهُ في تلك الحال لا يدرك ما يقول ولا يعي ما يتكلَّم به، فإذا امتنع عَنِ الكلام حَتَّى تهدأَ جمرةُ الغضب وتطفأ شدَّته فحينئذ سيكون الكلام سديدًا، وتكون العاقبة حميدة.

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٦)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٢٤٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

- **وأَمَّا الثَّاني**: ففي «المسند» عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»[(١)]؛ فعندما يكون الإنسان في شدَّة غضبه وهو قائم، ومَنْ أغضبه أمامه قريبًا، رُبَّمَا لا يملك نفسه مِنَ الإضرار به، فإذا تباعد عنه سكن غضبه، وإنِ احْتَاج إلى أَنْ يضطجعَ فعل، فإِنَّهُ أكثرُ سكونًا، وأهدأُ للنَّفس.

والحاصل: أَنَّ الغضبان حال الغضب لا ينبغي له أَنْ يتصرَّفَ بما يُملي عليه غضبه، لا قولًا، ولا فعلًا، حَتَّى تنطفأ جمرة الغضب، وهذه حقيقة القُوَّةِ أَنْ يملِكَ نفْسَه عند غضبه.

عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»، رواه أبو يعلى في «مسنده»[(٢)].

«**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ**»؛ أي: مِمَّا يرضاه ويثيب عليه، «**وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»؛ أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأَنَّ العجلةَ تمنع مِنَ التَّثبُّت والنَّظر في العواقب.

وأهل الأناة أهل نظرٍ في العواقب والمآلات؛ وذلك أَنَّ خاصَّةَ العقل النَّظَرُ في العواقب، وأَمَّا أهل العجلة فإِنَّهُم يندفعون اندفاعًا بلا تعقُّلٍ ولا تأمُّلٍ في العواقب.

ولهذا فإِنَّ مَثَلَ النَّفْسِ في عجلتها وطيشها ككُرَةٍ مِنْ فخار وُضعت على منحدر أملس، فلا تزال متدحرجةً ولا يُدرى في مآل أمرها ونهاية

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٢٥٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٠١١).

حالها بأيِّ شيء ترتطم!! فكم هي تلك المآلات المؤسفة والنِّهايات المحزنة الَّتِي يؤول إليها أمر أهل العجلة والطَّيش مِمَّنْ لا يتأمَّلُون في العواقب، ولا ينظرون في المآلات! وفي تعويد النَّفْسِ على الأناة السَّلامةُ من عواقب الغضب عند وجوده.

وعن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**السَّمْتُ الحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالاِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»، رواه التِّرمذيُّ في «جامعه» بإسناد ثابت(١).

و«**السَّمْتُ الحَسَنُ**»: الطَّريقة المرضية، والسُّكون والوقار.

و«**التُّؤَدَةُ**»: الأناةُ والبُعد عَنِ السَّفه والطَّيش.

و«**الاِقْتِصَادُ**»: التَّوسُّط بين الإفراط والتَّفريط.

وقولُه: «**جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»؛ أي: أَنَّ هذه الأوصافَ العظيمةَ والخِلالَ الكريمةَ من شمائل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأوصافهم؛ وفي هذا حثٌّ على الاقتداء بهم والائتساء، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومِمَّا يعين على تحقق السَّلامة مِنَ الغضب وعواقبه الوخيمة؛ أَنْ يحرصَ المسلم دومًا على الرِّفق في الأمر كُلِّه، فإِنَّ الرِّفقَ خصلةٌ عظيمة يحِبُّها الله جَلَّ وَعَلَا من عباده وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ**».

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»، متَّفق عليه(٢).

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣) واللَّفظ له.

وعَـنْ عَـائِـشَـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَـالَـتِ: اسْـتَـأْذَنَ رَهْـطٌ مِـنَ الْـيَـهُـودِ عَـلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَقَالُـوا: السَّامُ عَلَيْكُـمْ، فَقَالَـتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُـمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**» قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»(١).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ**» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»(٢).

وما دَخَلَ الرِّفقُ في شيء إلَّا زانه، وما نُزع من شيء إلَّا شانه، ومَنْ أُعْطِي الرِّفقَ فقد أعطي الخير كُلَّه، ومَنْ حُرِم الرِّفق حُرم الخير.

عَـنْ جَـرِيـرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، عَـنِ الـنَّـبِـيِّ ﷺ قَـالَ: «**مَـنْ يُـحْـرَمِ الـرِّفْـقَ يُـحْـرَمِ الْخَيْرَ**»، رواه مسلم(٣).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»، رواه مسلم(٤).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «**يَا عَائِشَةُ، ارْفُقِي، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ**»، رواه أحمد(٥).

والرِّفق لين الجانب في الأقوال والأفعال؛ بمعنى أَنْ تكونَ أقوال الإنسان

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٣٠) واللَّفظ له، ومسلم (٢١٦٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).
(٥) أخرجه أحمد (٢٤٧٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٥٢٣).

وأفعاله هيِّنةً ليِّنةً ليس فيها صلف وشدَّة، ولا فظاظةٌ وغلظة، ولا إسفافٌ وفحش وعنف، ويتبيَّن نصيب المرء منه في المواقف الَّتِي تثير الغضب.

والرِّفقُ يزيِّنُ الأمورَ، ويجمِّلُ الحياةَ، و يكمِّلُ الإيمانَ، وتتحقَّق به للعبد الخيريَّة، وينال به مصالحه ومآربه، وغاياته من أمور دينه ودنياه.

ومَنْ يتأمَّلْ سيرة نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجدْ أنَّها عامرة بالرِّفق والأناة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة، فكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قدوة للعالمين ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومَنْ يطالع سيرته العطرة يجد عجبًا في تمثله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصفة الرِّفق في تعاملاته في شؤونه كُلِّها، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولقد كان يأتيه الرَّجُل وليس أحدٌ على وجه الأرض أبغضَ إليه منه، فما أن يراه ويرى رفقه وتعامله؛ إلَّا ويتحوَّل من ساعته وليس أحدٌ على وجه الأرض أحبَّ إليه منه.

وتأمَّلْ في هذا قصَّة إسلام ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ سَيِّدِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عندما جيء به ورُبط في سارية من سواري المسجد، فكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يمرُّ عليه ويحادثه ويتكلَّم معه برفق إلى أن أعلن إسلامه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثُمَّ قال: «يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ وَجْهِك، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وْوَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ دِينِك، فَأَصْبَحَ دِينُك أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ»، رواه أحمد[١].

(١) أخرجه أحمد (٩٨٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في المشكاة (٣٩٦٤).

فتحوَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وليس شخصٌ أحبَّ إليه من رسول الله ﷺ، ولا أرض أحبّ إليه من أرضه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقصص رفقه وأناته في الأمور كثيرة.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ، مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ»، رواه مسلم(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِمُحَمَّدٍ، وَلَا تَغْفِرْ لِأَحَدٍ مَعَنَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «**لَقَدِ احْتَظَرْتَ وَاسِعًا**»، ثُمَّ وَلَّى، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَشَجَ يَبُولُ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدَ أَنْ فَقِهَ: فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي، فَلَمْ يُؤَنِّبْ، وَلَمْ يَسُبَّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ لَا يُبَالُ فِيهِ، إِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللهِ وَلِلصَّلَاةِ**»، ثُمَّ أَمَرَ بِسَجْلٍ مِنْ مَاءٍ، فَأُفْرِغَ عَلَى بَوْلِهِ، رواه ابن ماجه(٢).

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٥٢٩)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

مُعَسِّرِينَ»، رواه البخاريُّ[(١)].

وقولُه: «دَعُوهُ»؛ أي: اتركوه يكمل بوله في موضعه؛ لأَنَّهُ لو قُطع عليه بولُه لتضرَّر، ولو أقاموه في أثنائه لتنجَّست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد.

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ**».

قَالَ: «**فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ**»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، متَّفق عليه[(٢)].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١٢٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»، رواه مسلم(١).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ، رواه أحمد(٢).

وعَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا**

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢١١)، وقال الألبانيُّ في الصَّحيحة (٣٧٠): «هذا سند صحيح رجاله كُلُّهم ثقات رجال الصَّحيح».

إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»، رواه البخاريُّ(١).

فهذه أمثلة مشرقة من رفقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما أكثرها في حياته؛ بل حياته ﷺ كُلُّها رفقٌ وحلمٌ و أناةٌ، وحسن معاملةٍ، وجميل خلق.

ولنختم هذه الحديث بكلام جامع لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما يقوم عليه الخُلُق ويرتكز، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحُسْنُ الخُلُقِ يقوم على أربعة أركان لا يُتصوَّر قيام ساقه إِلَّا عليها: الصَّبر، والعِفَّة، والشَّجاعة، والعدل:

فالصَّبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكَفِّ الأذى، والحلم والأناة، والرِّفق، وعدم الطَّيش والعجلة.

والعِفَّة: تحمله على اجتناب الرَّذائل والقبائح مِنَ القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كُلِّ خير، وتمنعه مِنَ الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنَّميمة

والشَّجاعة: تحمله على عِزَّةِ النَّفْس وإيثار معالي الأخلاق والشِّيم، وعلى البذل والنَّدى الَّذِي هو شجاعة النَّفْسِ وقُوَّتُها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإِنَّهُ بقُوَّةِ نفْسِه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عَنِ النَّزغ والبطش، كما قال ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»، متَّفق عليه(٢). وهو حقيقة الشَّجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعَدْل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط، والتَّفريط فيحمله على خلق الجود والسَّخاء الَّذِي هو توسط

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٠٨).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

بين الذُّل والقحة، وعلى خلق الشَّجاعة الَّذِي هو توسط بين الجبن والتَّهوُّر، وعلى خلق الحلم الَّذِي هو توسط بين الغضب والمهانة، وسقوط النَّفس ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السَّافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظُّلْم، والشَّهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحَسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، والكمال نقصًا، والنَّقص كمالًا.

والظُّلْم: يحمله على وضع الشَّيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرِّضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشِّدَّة، ويشتدُّ في موضع اللِّين، ويتواضع في موضع العِزَّة، ويتكبَّر في موضع التَّواضع.

والشَّهوة: تحمله على الحرص، والشُّحِّ، والبخل، وعدم العِفَّة، والنَّهمةِ والجشع، والذُّلِّ والدَّناءات كُلِّها.

والغضب: يحمله على الكِبْر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسَّفه.

هذا، وإِنَّ الأدبَ والخُلُقَ مِنَّةُ الله جَلَّ وَعَلَا على مَنْ يشاء من عباده، كما قال طاوس بن كياس: «إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ مَنَائِحُ يَمْنَحُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا مَنَحَهُ مِنْهَا خُلُقًا صَالِحًا»(١).

ولهذا مَنْ أراد لنفسه أَنْ يكونَ متحلِّيًا بالأدب متخلِّقًا بأخلاق الإسلام؛ فعليه أَنْ يُقبِلَ على الله جَلَّ وَعَلَا إقبالًا صادقًا مُلِّحًا عليه بالدُّعاء،

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنْيَا في مكارم الأخلاق (٣٢).

صادقًا في الرَّجاء، والله جَلَّ وَعَلَا لا يخيِّب عبدًا دعاه، ولا يردُّ عبدًا ناداه.

وقد جاءت السُّنَّة بأدعية عظيمة أرشد إليها الرَّسولُ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهي مِنَ الوسائلِ المباركةِ والأسباب النَّافعة لاكتساب الآداب.

منها: قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعائه: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ**»[(١)]، وقولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[(٢)]، وقولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»[(٣)].

فبالمحافظة على هذه الأدعية المباركة، مع الأخذ بالأسباب النَّافعة، والوسائل الشَّرعيَّة المحمودة، ومجاهدةِ النَّفس؛ يحسن أدبُ الإنسان، ويزين خلقه، وتطيب معاملته، والتَّوفيق بيد الله وحده.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٩١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧١).

(١٦)

ذَمُّ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالسُّخْرِيَةِ

لَقَدْ جاءَتْ هذِهِ الشَّريعةُ الغَرَّاءُ بصيانةِ الأعراضِ وحفظِهَا ورعايَتِهَا، وإبعاد النَّاس مَنْ أن يسيءَ بعضُهم إلى بعضٍ بأيِّ نوعٍ من أنواع الإساءة، وعُدَّ ذلك في الشَّريعة بابًا عظيمًا من أبواب الإثم وضربًا من ضروب العدوان.

ومن ذلك: ما جاءت به الشَّريعة المباركة من ذَمِّ الغيبة والنَّميمة والسُّخرية، والنَّهي عنها والتَّحذير منها، وتجريم فاعلها، وعدِّها في جملة كبائر الإثم.

أمَّا الغيبة: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات:١٢]، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى الآية: «حَرَّمَ اللهُ على المؤمن أَنْ يغْتَابَ الْمُؤمن بشيء، كما حرَّمَ الْمَيْتَة»(١)، وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَمَا أَنْتَ كَارِهٌ لو وجدت جِيفَةً مُدَوَّدَةً أن تأكلَ منها، فَكَذَلِكَ فاكره غِيبَتُهُ وهو حيٌّ»(٢).

وقال قيس بن أبي حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: مرَّ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على بغلٍ ميِّتٍ قَدِ انتفخ، فوقف عليه، فقال: «وَاللهِ لَأَنْ يَأْكُلَ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذَا

(١) أخرجه الطَّبريُّ في التَّفسير (٢٢/ ٣٠٨).
(٢) أخرجه الطَّبريُّ في التَّفسير (٢٢/ ٣٠٨).

حَتَّى يَمْلَأَ جَوْفَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَغْتَابَ أَخَاهُ»(١).

فبهذا المثل العظيم الَّذِي ذكره رُبُّ العالمين سبحانه يظهر مدى خطورة الغيبة، وعظم هذه الجرم، وشدَّة خطره على الأفراد والمجتمعات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ**»؟. قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»، رواه مسلم(٢).

في هذا الحديث بيان لِحَدِّ الغيبة وتعريفها، وأَنَّ الغيبة ذِكْرُ المرء لأخيه بما يكره مِمَّا هو فيه، وأَمَّا إِنْ كان ما قاله المغتابُ ليس فيه فهذه جريمة أعظم، وهي الكذب والبهتان والافتراء.

وهذه الكبيرة يعظم إثمها ويكبر جرمها بحسب حال مَنِ اغتابه الإنسانُ، فغيبةُ مَنْ له حَقٌّ على الإنسان كأُمٍّ أو أَبٍ أو زَوْجٍ أو أَخٍ أو قَرِيبٍ أو جَارٍ أعظم من غيبة غيرهم؛ لأَنَّهُ إضافةً إلى ما فيه من غيبة فيه تضييعٌ لهذا الحَقِّ الخاصِّ.

ولهذا فإِنَّ اغتيابَ العلماء الَّذِين لهم قدم صدق في الأُمَّة نصحًا وتعليمًا وبيانًا وتوجيهًا ودعوةً وإصلاحًا من عظائم الذُّنوب وكبائر الآثام؛ لِمَا لهم من حقٍّ خاصٍّ على عموم المسلمين من نصحٍ ومحَبَّةٍ ووفاءٍ ودعاء؛ لِمَا يقدِّمونه لأُمَّةِ الإسلام من أعمالٍ خيِّرة ونصائح قيِّمة ودعوةٍ نافعة.

إِنَّ المغتابَ باغتيابه للآخرين وتعدِّيه على أعراضهم عرَّض نفْسَه لعقوبة تحُلُّ به في الدُّنيا قبل الآخرة، وهي: أَنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يهتك ستره

(١) أخرجه الخرائطيُّ في مساوىء الأخلاق (١٩٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

ويفضحه، ولو كان في قعر بيته.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ»**، رواه أبو داود[(١)].

وهذا يدُلُّ على أَنَّ مَنْ يفعلُ مثلَ هذه الأفعالِ عنده نقصٌ في الإيمان أو نفاقٌ؛ لأَنَّ قولَ الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤] فسِّر بتفسيرين:

فقيل: إنَّ المقصودَ بها أناس منافقون، وهذا قول البخاريِّ رَحِمَهُٱللَّهُ في الآية[(٢)]، وقيل: إنَّ المقصودَ أَنَّهُم مؤمنون ناقصو الإيمان لم يتمكَّنِ الإيمانُ في قلوبهم[(٣)].

ثُمَّ إنَّ الجزاءَ من جنس العمل؛ فمَنْ يتَّبع عورة أخيه يتَّبع الله عورته، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عورته يفضحه في بيته، وهذه عقوبته المعجَّلة.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحُ جِيفَةٍ مُنْتِنَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ»**، رواه أحمد[(٤)].

فالمغتاب ومن معه في مجلس الغيبة يقومون من مجلسهم كأَنَّما قاموا من أنتن جيفة حمار، ولو كان النَّاس يشُمُّون روائحَ المعاصي

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

(٢) البخاريُّ (١/ ١٤).

(٣) تفسير الطَّبريِّ (٢٢/ ٣١٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٧٨٤)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٧٣٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ونتانةَ الغيبة لَمَا استطاع أحد أن يجلسَ فيها لقبح رائحتها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[(١)].

فمِنْ عِظَمِ جريمة الغيبة جعلها النَّبِيُّ ﷺ قرينةَ الاعتداء على الأنفس بالقتل وعلى الأموال بالسَّلب والانتهاب.

وقتلُ الأنفسِ وسرقةُ الأموالِ كبيرتان عظيمتان إجماعًا، وهَتْكُ الأعراض والتَّعدي عليها بالغيبة ونحوها جاءت في هذا الحديث وغيره مقارِنةً لهاتين الجريمتين؛ مِمَّا يدُلُّ على عِظَمِ هذا الجرم وفداحته وكِبَرِ خطورته، كيف لا؟! وهو داءٌ عضال ومرض فتَّاك ومعوَل هدم؛ يترتَّب عليه نشر العداوات وإيجاد الإحن وانتشار البِغضة بين المسلمين.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي؛ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**»، رواه أبو داود[(٢)].

أي: أَنَّ الجزاءَ من جنس العمل؛ فلَمَّا كان بغيبته ووقوعه في الأعراض مثل الَّذي يأكل لحومهم، صارت عقوبته بأَنْ يُمَزِّقَ جلدَه ولحمَه بنفْسِه بتلك الأظفار مِنَ النُّحَاسِ.

وأَمَّا النَّمَّام: فإنَّهُ يُعَدُّ آفة مِنَ الآفات وضررًا عظيمًا على المجتمعات؛ ولهذا نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبادَه عن طاعة النَّمَّامين وقبول أقوالهم؛ لعظم شرِّهم وشدَّة إفسادهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٤)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه أحمد (١٣٣٤٠)، وأبو داود (٤٨٧٨)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم:١٠-١١]، فالنَّمَّام لا يُطاع ولا يُقبل قولُه وإِنْ أقسمَ على قوله بالأَيْمَان المغلَّظة.

ومِنَ التَّعاملِ الجميلِ مع مَنْ يَنُمَّ بردِّ نميمته وعدمِ قبولها: ذلك الموقف العظيم الَّذي يروى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ رجلًا دخل عليه فذكر آخرَ بشيء مِنَ الكلامِ، فقال عمر: إنْ شئت نظرنا في أمرك؛ فإِنْ كنْتَ كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وإِنْ كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم:١١-١٢] وإِنْ شئت عفونا عنك، قال: العفو يا أميرَ المؤمنين، ولا أعود إلى ذلك أبدًا(١).

وفي النَّمَّامِ شبَهٌ كبيرٌ بالسَّاحر؛ وذلك لأَنَّ عملَه يحقِّقُ مِنَ النَّتائج المضِرَّة بالمجتمعات ما لا يحقِّقُه عملُ السَّاحر.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»، رواه مسلم(٢).

والْعَضْهُ: السِّحر، والعاضه: السَّاحر. وإِنَّمَا سُمِّيت النَّميمة سحرًا وإن لم يكن عملُ النَّمَّام مطابقًا لعمل السَّاحر؛ لأَنَّ ما يؤدِّي إليه عملُ النَّمَّام من إفسادٍ وإيقاعٍ للفُرْقة ونشرٍ للعداوات مشابهٌ لعمل السَّاحر بل أشدُّ.

قال يحيى بن أبي كثير اليماميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُفْسِدُ النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ»(٣)؛ فهو آفة خطيرة، ولهذا اتَّفق العلماء

(١) الأذكار للنَّوويِّ (١/ ٣٤٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٧٠)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان (١٠٦٠١).

رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أَنَّ النَّميمة كبيرةٌ من كبائر الذُّنوب، وعظيمةٌ مِنْ عظائم الآثام، وصاحبها من شرار الخَلْقِ.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ**»، رواه أحمد(١).

ذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المشي بالنَّميمة علامةً للأشرَّار تحذيرًا من هذه الآفة لشدَّة ضررها على النَّاس؛ بإيجاد العنت والفجوة والتَّناحر والتَّطاحن بينهم.

وقد قيل: «إِنَّ عَمَلَ النَّمَامِ أَضَرُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»(٢)؛ لأَنَّ عمل الشَّيطان يكون بالوسوسة، وعملَ النَّمَّام يكون بالمواجهة، يواجه الآخرين على أَنَّهُ ناصحٌ أمين وأَنَّهُ لا يريد إِلَّا خيرًا ويحلِف على كلامه، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلم من حاله -وهو العليم بذات الصُّدور- أَنَّهُ إِنَّمَا أراد بذلك الإفساد بين النَّاس.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»، متَّفق عليه(٣).

قولُه: «**يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، وقد تقدَّم في الحديث السَّابق «**الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ**»، وتقدَّم في الآية الكريمة ﴿مَشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]؛ فالنَّميمة

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٢٣)، واللَّفظ له، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) الزَّواجر عَنِ اقتراف الكبائر (٢/ ٣٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢)، واللَّفظ له.

في وقتٍ مضى تحتاج مِنَ النَّمَّام إلى مشي وسعي، أَمَّا في زماننا الحاضر فإِنَّ النَّميمة تحصل مِنَ النَّمَّام وهو جالس في بيته دون أن يمشي أو يسعى، وذلك من خلال الأجهزة الحديثة ووسائل الاتصال المتوفِّرة في هذا الزَّمان كالجوَّال مثلًا أو عبر الشَّبكة العنكبوتيَّة ونحوِ ذلك.

ولهذا ما أعظم الإفساد الَّذِي يقع من هؤلاء من خلال هذه الأجهزة، إِمَّا بالرَّسائل المكتوبة أو بالمكالمات والمحادثات ونحوِ ذلك؛ مِمَّا يترتَّب عليه إضرار عظيم؛ سواء بإيقاع العداوة بين أفرادٍ وأفراد، أو إيقاع العداوة بين مجتمعاتٍ ومجتمعات.

أَلَا مَا أَلْأَم النَّمَّام، وما أشنعه، وما أضرَّه على النَّاس! لكنَّه سيقِف بين يدي الله، ويلقى جزاء نميمته، وستكون حسرةً عليه وندامة يوم القيامة.

عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا يَنِمُّ الْحَدِيثَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»، رواه مسلم[(١)]، واتَّفق الشَّيخان على إخراجه بلفظ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[(٢)]. والقتَّات: هو النَّمَّامُ.

وأَمَّا مَنْ يسعى بين النَّاس ناقلًا الكلام من شخص إلى آخر على وجه الإصلاح وإطفاء العداوات وإيجاد المحبَّة والألفة والإخاء؛ فهذا من المصلحين؛ ففي الصَّحيحين عن أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**»[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (١٠٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٢)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٦٠٥).

أي: مَنْ كان ينقل الكلامَ بين النَّاس ولا سيَّما بين مَن بينهم شيءٌ مِنَ العداوة من أحدهما إلى الآخر إصلاحًا لذات البَيْنِ، كأَنْ يقولَ مثلًا: سمعت فلانًا يذكرك بالخير، أو سمعته يُثني عليك، أو سمعته يدعو لك، أو نحو ذلك مِنَ الكلمات الَّتِي يراد بها الإصلاح، فهذا مِنَ المصلحين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلم المصلح مِنَ المفسد، وكُلٌّ منهما سيقف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليلقى جزاء عمله ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النَّجم:٣١].

وأمَّا السُّخرية: فهي خصلة ذميمة وخلَّة لئيمة إذا اتَّصف بها المرء أضرَّت به إضرارًا عظيما، وكانت موجبةً لإخلاله بأُخُوَّةِ الإيمانِ.

والسُّخرية وليدةُ الاحتقار، والاحتقار وليد الكِبْرِ، وهذه صفاتٌ ذميمة يتوالد بعضها من بعض، وسَوْءَاتٌ مشينة يتتابع بعضها على إثر بعض، وفي الحديث قال ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»[(١)]؛ أي يكفيه حظًا ونصيبًا مِنَ الشَّرِّ أَنْ يكونَ بهذه الصِّفة؛ يحقر أخاه المسلم ثُمَّ يتولَّد عن ذلك الاستهزاء به والسُّخرية منه، والتَّهكُّم به.

والسُّخرية تنشأ في المرء عندما ينظر إلى نفسه المقصِّرة بعين الرِّضى، وينظر للآخرين بعين الانتقاص؛ فيلوك حينئذ أعراضهم تهكُّمًا وسُخريةً واستهزاءً.

وكُلَّما أوغل المرء في الإجرام وتمادى في الآثام؛ زاد حظُّه مِنَ الانتقاص لأهل الإسلام؛ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ هذا التَّغامز والسُّخرية قرين الإجرام ومتولِّد عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

ولا يستهن مسلمٌ ناصح لنفسه بأمر السُّخرية أيًّا كان أمرها، ومهما كانت صورتها، ومهما ظنَّ صِغَرَ حجمها؛ فإِنَّ أمرَها عند الله عظيم، وقد يسخر مرءٌ من آخر، ويكونُ المسخورُ منه المستهزَئُ به خيرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ من عشرات بل مئات من مثل هذا السَّاخر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينهى تعالى عَنِ السُّخرية بالنَّاس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ**»(١)، ويروى: «**وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٢)، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإِنَّهُ قد يكون المحتَقَرُ أعظمَ قدرًا عند الله وأحبَّ إليه مِنَ السَّاخر منه المحتقِر له؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات:١١]، فنصَّ على نهي الرِّجال وعطف بنهي النِّساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١]، أي: لا تلمزوا النَّاس. والهمَّاز اللَّمَّاز مِنَ الرِّجال مذمومٌ ملعونٌ، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، فالهمز بالفعل واللَّمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، أي: يحتقر النَّاس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنَّميمة وهي: اللَّمز بالمقال.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضا. قال ابن عبَّاس،

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٩٩)، وابن حِبَّان في صحيحه (٥٤٦٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه مسلم (٩١).

ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١] أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي الَّتِي يسوء الشَّخْصَ سَمَاعُهَا»[١].

وفي الحديث: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[٢].

قد يتهاون بعض النَّاس في هذا الباب؛ فيسخر من آخر لرثاثة هيئته، أو تأتأة كلامه، أو دمامةٍ في بعض صفاته أو شيء في أعماله، فيتندَّر به ويسخر. ولا يدري؛ قد يكون هذا الَّذِي يسخر منه من عباد الله المقرَّبين ومن أوليائه المتَّقين، فإِنَّ الأكرم عند الله الأتقى له جلَّ في علاه، فإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى صور النَّاس ولا إلى هيئاتهم ولكِنْ ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

وأيضًا قد يسخر ويتندَّر ببعض النَّاس في صفات هي فيه، وقد نبَّه على هذا النَّبِيِّ ﷺ وهو يخطب على المنبر، ففي الصَّحيحين: عن عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يخطب، وذكر أمورًا من خطبته قال: ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ، وَقَالَ صلوات الله وسلامه عليه: «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ»[٣].

وهذا تنبيهٌ إلى بابٍ شريف عظيم في باب الآداب والأخلاق؛ أن يحذر المرء مِنَ التَّندر والسُّخرية بأمور رُبَّمَا يكون متَّصفًا بها، ورُبَّمَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه ابن حِبَّان في صحيحه (٦٤٨٣)، وقال الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٢١٢): «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٢)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٨٥٥).

-أيضًا- يبتلى بعد وقت بها، وقد كان كثير مِنَ السَّلف على حذرٍ شديد من ذلك خشيةَ أن يُبتلى بشيء منها.

ولْيُحذرْ في هذا المقام مِنْ أقلِّ القليل، ولو أَنْ تصفَ آخر بما هو من صفاته أو من أعماله إذا كان على وجه التَّقليل من شأنه.

جاء في سنن أبي داود عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا»، وهي تعني -كما جاء في بعض الرِّوايات- قَصِيرَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»[(١)].

ولم يكن هذا خُلقًا لعائشة ولا منهجًا لها رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت ذلك في تلك المرَّة، فقال النَّبِيُّ عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لها ما قال، فكيف الشَّأن بمجالسَ قائمة من أوَّلها إلى آخرها على السُّخرية والاستهزاء والتَّهكُّم والاحتقار والانتقاص والازدراء!!

ومِنَ الخطير في هذا الباب محاكاةُ الآخرين تقليدًا لأصواتهم أو لطريقة مشيهم أو لبعض حركاتهم إضحاكًا للجالسين، ولهذا جاء في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لعائشة حين حكت له إنسانًا قال: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»[(٢)].

ومَنْ يجلس مجالسَ السَّاخرين المستهزئين -سواء جلوسًا مباشرًا أو من خلال الشَّاشات والقنوات- فيضحك لِمَا يقولون من سخريةٍ واستهزاء، أو حَتَّى يتبسَّم فله حظٌّ مِنَ الإثم بحسب ذلك.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عَنِ ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا في تفسير قولِ الله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٢٥٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف:٤٩] قال: «الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَبِيرَةُ الْقَهْقَهَةُ بِذَلِكَ»(١)، وهذا مِنَ التَّفسير للآية ببعض أفرادها. فليحذر كُلُّ ناصح لنفسه مِنَ السُّخرية ومن مجالس السَّاخرين.

إنَّ مَنْ يستطِل على النَّاس ويتعدَّى عليهم ويتناولهم بأنواع الأذى؛ فلا تسلم أعراضهم من لسانه غيبةً ونميمةً واستهزاءً، ولا يسلَمون منه في تعاملاتهم غِشًا وخيانةً وتدليسًا، ولا يسلَمون منه في أنفسهم وأبدانهم تعدِّيًا وضربًا وإيذاءً، ولا يسلَمون منه في أموالهم نهبًا واختلاسًا واستلابًا.

فمَنْ كانت هذه حاله فَقَدِ احتمل بهتانًا عظيما وإثمًا كبيرًا، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨]، وإذا كان لا يَحِلُّ لأحد أَنْ يؤذي بهيمة بغير حَقٍّ فكيف إذًا بالمؤمن!! بل قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما يحلُّ لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا»(٢).

إنَّ مَنْ يؤذي المسلمين ويتعرَّض لهم بأنواع الأذى فإنَّ حسناته وطاعاته وعباداته تنتقل من ميزان حسناته إلى ميزان حسناتهم؛ ولنتأمَّلْ في هذا ما خرَّجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ**

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٦٥).
(٢) مكارم الأخلاق للخرائطي (٣٦٨).

فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

فينبغي أن يتنبَّه المسلم وأن لا يعجبنَّه في شخصٍ هيئته أو ظاهر أعماله إذا كان معروفًا بالأذى للنَّاس والعدوان والظُّلم والبغي؛ روى الإمام ابن المبارك في كتابه الزُّهد، والبيهقيُّ في الشُّعَب: أَنَّ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام في النَّاس خطيبًا، وقال: «لا يعجبنَّكم من رجل طنطنته، ولكِنَّه من أَدَّى الأمانة وكَفَّ عن أعراض النَّاس فهو الرَّجُل»(٢).

نَعَمْ هذه هي الرُّجُولة بأبهى صوَرها وأجمل حُللها؛ أن يكون الرَّجلُ مؤدِّيًا ما عليه، وأن يكون كافًّا لسانه ويده عن أذى الآخرين.

وجميع ما تقدم داخل في الظُّلم الَّذي حرَّمه اللهُ على عباده، يقول الله تعالى في الحديث القُدُسيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»(٣)، وذلك من كمال عَدْلِه جلَّ في علاه، حرَّم على نفسه الظُّلم فلا يظلم أحدًا، ولا يخاف أحدٌ منه ظلمًا ولا هضمًا، وجعله بين العباد محرمًا.

والواجب على العباد أن يعرفوا حرمة الظُّلم وخطورته، وسوء مغبَّته وعِظم عاقبته، وأنَّهُ أمرٌ محرَّم؛ حرَّمه اللهُ جَلَّ وَعَلَا، ويعاقب عليه العقوبة العظيمة والعذاب الأليم، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعراء:٢٢٧]، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٦٩٥)، وابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (٢٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشُّورى:٤٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والظُّلم ظلمات يوم القيامة، يأتي المؤمنون يوم القيامة يسعَون بأنوارهم، ويأتي الظَّالم ذلك اليوم متخبِّطًا في ظلمات ظلمه، روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

والظَّالم الَّذِي اقتطع -بظلمه- من حقوق الآخرين شيئًا ولو كان قليلًا أو نزرًا يسيرًا، فإِنَّهُ يأتي يوم القيامة يحمله على عاتقه، ويطوَّقه خزيًا له يوم القيامة بين العالمين، روى الشَّيخان في صحيحيهما عن أُمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(٢) أي أَنَّهُ يأتي بهذه الأراضي الَّتِي أخذها ظلمًا، يحملها على عنقه يوم القيامة إلى سبع أراضين خزيًا له بين العالمين.

ويومُ القيامة يومُ القصاص ويومُ ردِّ المظالم، عن عبد الله بن أُنيس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً بُهْمًا**» قالوا: وَمَا بُهْمًا يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَيْ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، ثُمَّ يَقُولُ** جَلَّوَعَلَا: **لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقُصَّهَا مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقُصَّهَا مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةَ**» قالوا: يَا رسولَ اللهِ؛ وكيف ذاك وهم إِنَّمَا جاءوا بُهْمًا؟ قال: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»(٣).

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٧)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣١٩٥)، واللَّفظ له، ومسلم (١٦١٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٠٤٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٩٧٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ومعنى قوله: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» جاءَ مفسَّرًا ومفصَّلًا في حديث أبي هريرة المتقدِّم ذكره، المشهور بحديث المفلس.

إِنَّ العاقلَ النَّاصح لنفسه عندما يتأمَّلُ في هذه الأدلَّة، ولها نظائر كثيرة في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنَّة نبيِّه ﷺ، تُحَذِّر مِنَ الظُّلْم وتبيِّن خطورته وسوء عاقبته على الظَّالم، سواءٌ كان تعدِّيًا على الأنفس أو تعدِّيًا على الأعراض أو تعدِّيًا على الأموال؛ يجد فيها ما ينبِّهه ويوقظ قلبه من رقدته، ويجعله يحسب لذلك الموقف حسابًا عظيمًا، ويزن عمله في هذه الحياة قبل أن يوزن يوم يلقى الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد جاء في الصَّحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(١).

إِنَّهَا لَفُرْصةٌ ثمينة لا تُعَوَّض ما دام العبد يعيش في هذه الحياة: أَنْ يتخلَّص مِنَ المظالم في هذه الحياة الدُّنْيَا قبلَ أن يلقى الله يوم القيامة وهو يحمل مظالمه على عاتقه خزيًا له بين العالمين، ثُمَّ يبوء بعاقبة ظلمه ومغبته الأليمة.

ومِمَّا يعين المسلم على كَفِّ يده ولسانه عن إيذاء الآخرين أَنْ يُذَكِّر نفسه بما ينبغي له تجاههم: من رعايةٍ لحقوقهم ومعرفةٍ بمقاماتهم.

وإذا كان المسلم في تعاملاته مع الآخرين يعُدُّ كبيرَهم أبًا، وصغيرَهم ولدًا، وأوسطَهم رفيقًا وأخًا؛ فإِنَّهُ سيعامل الجميع بالمعاملة اللائقة.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٩).

جاء عن محمَّد بن كعب القرظيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصيَّة أوصى بها عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قال: «إِذَا أَرَدْتَ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاجْعَلْ كَبِيرَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكَ أَبًا، وَأَوْسَطَهُمْ عَنْدَكَ أَخًا، وَصَغِيرَهُمْ عِنْدَكَ وَلَدًا، فَأَيُّ أُولَئِكَ تُحِبُّ أَنْ تُسِيءَ إِلَيْهِ؟!»[1]، أي: إذا اعتبرتهم بمثل هذا الحال: الكبير أب، والأوسط أخ ورفيق، والصغير ابن؛ أحسنت في معاملتهم.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٥)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٧٠٢٨).

(١٧)

الْحَيَاءُ

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ خلال الدِّين ومِنْ أعظمِ أوصافِ عباد اللّهِ المؤمنين ومِنْ أَجَلِّ شُعَبِ الإيمان: الْحَيَاءَ، وهو خصلةٌ عظيمةٌ وخلَّةٌ كريمة تبعث على التَّحلِّي بالفضائل والتَّخلِّي مِنَ الرَّذائل.

وهو مشتقٌّ في أصله مِنَ الحياة؛ فكُلَّما عظمت الحياة في القلب عظم الحياء، وكُلَّما ضعفت الحياة في القلب والرُّوح ضعف الحياء، قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ»[(١)].

والحياءُ معدن الأخلاق الفاضلة ومنبع المعاملات الكريمة، وهو خير كُلُّه كما أخبر بذلك النَّبِيُّ ﷺ، ولا يأتي إِلَّا بخيرٍ.

عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»، متَّفق عليه[(٢)].

عن أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ مِنَّا، وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ، فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**». قَالَ: أَوْ قَالَ: «**الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ**». فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في مكارم الأخلاق (٩٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَوِ الْحِكْمَةِ أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا لِلَّهِ، وَمِنْهُ ضَعْفٌ. قَالَ: فَغَضِبَ عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُرَانِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُعَارِضُ فِيهِ؟.

قَالَ: فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَأَعَادَ بُشَيْرٌ فَغَضِبَ عِمْرَانُ. قَالَ: فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ[1].

فأخبر ﷺ أَنَّ صاحب الحياء في خير عظيم وحياؤه لا يأتيه إِلَّا بخير، وأَنَّ الحياءَ خيرٌ كُلُّه، ففيه فضيلة الحياء، وأَنَّ مَنْ كان متَّصِفًا به فهو من كمال عقله، وحسن أدبه، ولا يناله من حيائه إِلَّا الخير، كما قيل:

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيرٍ ... وَيَبقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ**»، متَّفق عليه[2].

في هذا الحديث بيانٌ أَنَّ الإيمان ليس خصلة واحدة أو شعبة واحدة بل شعب كثيرة وخصال عديدة؛ أفضلُها كلمة لا إله إلا الله كلمة الإخلاص والتَّوحيد، وأدناها إماطة الأذى عَنِ الطَّريق، أي إزالة كُلِّ ما يؤذي النَّاس من حجر أو شوك أو زجاج أو غيرِ ذلك عَنِ الطَّريق.

وفيه فضيلة الحياء، وأنه من شعب الإيمان، وكُلَّمَا ازداد العبد منه ازداد إيمانه، وهو خير كُلُّهُ، ولا يأتي إِلَّا بخير.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٣٧)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥)، واللَّفظ له.

جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»، رواه الحاكم[(١)].

أي أَنَّهُمَا متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عَنِ الآخر، ومعنى ذلك أَنَّ قُوَّةَ أحدهما قُوَّةٌ للآخر وضعفَ أحدهما ضعفٌ للآخر، فبينهما تلازم وترابط.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الْحَيَاءُ**»، رواه ابن ماجه[(٢)].

أي لكُلِّ دين سجيَّة شرعت فيه، وحُضَّ أهل ذلك الدِّين عليها، وخلق الإسلام الحياء، أي هو سجيَّته الَّتِي بها قوامه؛ لأَنَّهُ معدن كُلِّ خير ومنبع كُلِّ فضيلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٣)].

وهذه فضيلة عظيمة من فضائل الحياء أَنَّهُ يفضي بأهله إلى الجنَّة، والفوز بنعيمها المقيم.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لِلأَشَجِّ الْعَصَرِيِّ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ**»، رواه ابن ماجه[(٤)].

أي: جبلك الله على ذلك، والحياء فيه ما هو جِبِلِّيٌّ وما هو مكتسبٌ،

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٣١٣)، والحاكم في المستدرك (٥٨)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٩)، وابن ماجه (٤١٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٨)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

والنَّاس متفاوتون فيه، ومَنْ جاهد نفسه على التَّحلِّي به مستعينًا بالله نال منه نصيبًا وافرًا.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**واعلم أنَّ الحياء نوعان:**

أحدهما: ما كان خُلُقًا وجِبِلَّةً غيرَ مكتسب، وهو مِنْ أَجَلِّ الأخلاق الَّتِي يمنحها اللهُ العبدَ ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(١)، فإِنَّهُ يكُفُّ عَنِ ارتكاب القبائح ودنيء الأخلاق، ويحُثُّ على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

والثَّاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله، ومعرفة عظمته وقربه من عباده، واطِّلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، فهذا مِنْ أعلى خصال الإيمان، بل هو مِنْ أعلى درجات الإحسان»(٢).

وعن عبد الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ**»، متَّفق عليه(٣).

فنهاه أَنْ يعظَ أخاه في الحياء، لأَنَّهُ يَكُفُّ صاحبه عَنِ ارتكاب القبائح وذميم الأخلاق، ويَحُثُّه على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو خيرٌ كُلُّهُ.

فالحياء من أفضل الخصال وأكمل الخلال وأعظمها نفعًا وأكبرها عائدةً، وكُلَّمَا كان العبدُ متحلِّيًا بالحياء كان ذلك دافعًا له وسائقًا إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، فمَنْ كان ذا حياءٍ حجزه حياؤه عَنِ

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠١).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٤)، واللَّفظ له، ومسلم (٣٦).

الرَّذائل ومنعه مِنَ التَّقصير في الحقوق والواجبات، وأَمَّا منزوع الحياء فهو -والعياذ بالله- لا يبالي أيَّ رذيلةٍ ارتكب وأيَّ كبيرةٍ اقترف وأيَّ معصيةٍ اجترح.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**»، رواه ابن ماجه(١).

فيه إشارة إلى أَنَّ الخُلُقَ السَّيِّءَ مفتاحُ كُلِّ شَرٍّ، والخُلُقَ الحَسَنَ مفتاحُ كُلِّ خَيرٍ، والحياءُ من أعظم الأخلاق الحسنة، فلا يكون في شيءٍ إِلَّا حَسُنَ وطَابَ.

قال سلمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ هَلَاكًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا»(٢).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»، رواه البخاريُّ(٣).

فمنزوعُ الحياءِ لا يبالي في أعماله ولا يتوقَّى في أموره؛ فهو لا يستحي مِنْ رَبِّه وخالقِه ومولاه، ولا يستحي مِنْ عبادِ اللّه، ومَنْ قلَّ حياؤه لا يبالي بارتكاب المعصية في أيِّ مكانٍ، ورُبَّمَا يشيعها ويشهر نفسَه بها ويتحدَّث بها عن نفسه، وكَأَنَّهُ يتحدَّث عن أفضل الخصال وأطيب الخلال!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُه: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» في معناه قولان:

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنْيا في مكارم الأخلاق (١١٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٤).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٢٠).

أحدهما: أَنَّهُ ليس بمعنى الأمر: أَنْ يصنعَ ما شاء، ولكنَّه على معنى الذَّمِّ والنَّهي عنه، **وأهل هذه المقالة لهم طريقان:**

أحدهما: أَنَّهُ أمرٌ بمعنى التَّهديد والوعيد، والمعنى: إذا لم يكن لك حياءٌ، فاعمل ما شئت، فإِنَّ اللهَ يجازيك عليه، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصِّلت: ٤٠].

والطَّريقُ الثَّاني: أَنَّهُ أمرٌ، ومعناه: الخبر، والمعنى: أَنَّ مَنْ لم يستحي، صنع ما شاء، فإِنَّ المانعَ من فعل القبائح هو الحياءُ، فمَنْ لم يكن له حياء، انهمك في كُلِّ فحشاء ومنكر، وما يمتنع من مثله مَنْ له حياءٌ.

والقولُ الثَّاني: أَنَّهُ أمرٌ بفعل مَا يشاء على ظاهر لفظه، وأَنَّ المعنى: إذا كان الَّذِي تريد فعلَه مِمَّا لا يُسْتَحْيَى مِنْ فعله، لا مِنَ اللهِ ولا مِنَ النَّاس، لكونه من أفعال الطَّاعات، أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة، فاصنع منه حينئذ ما شئت»[1].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ تأمَّلْ هذا الخلقَ الَّذِي خُصَّ به الانسانُ دون جميع الحيوان، وهو خُلُقُ الحياء الَّذِي هو من أفضل الأخلاق وأجَلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرِها نفْعًا، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّة؛ فمَنْ لا حياءَ فيه ليس معه مِنَ الإنسانيَّة إِلَّا اللَّحْمُ والدَّمُ وصورتهما الظَّاهرة،كما أَنَّهُ ليس معه مِنَ الخير شيءٌ.

ولولا هذا الخُلُقُ لم يُقِرَّ الضَّيف ولم يوفِ بالوعد، ولم يؤدِّ أمانةً ولم يقضِ لأحدٍ حاجةً، ولا تَحَرَّى الرَّجُلُ الجميلَ فآثره والقبيحَ فتجنَّبه، ولا سَتَرَ له عورةً ولا امتنع من فاحشةٍ، وكثيرٌ مِنَ النَّاس لولا الحياءُ الَّذِي فيه لم يُؤَدِّ شيئًا مِنَ الأمور المفترَضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوقٍ حَقًّا

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٩٧).

ولم يصل له رحمًا، ولا برَّ له والدًا.

فإِنَّ الباعثَ على هذه الأفعال إِمَّا دينيٌّ وهو رجاءُ عاقبتها الحميدة، وإِمَّا دنيويٌّ وهو حياء فاعلها مِنَ الخلقِ، قد تبيَّن أَنَّهُ لولا الحياءُ إِمَّا مِنَ الخالقِ أو مِنَ الخلائق لم يفعلها صاحبها.

وفي التِّرمذيِّ وغيرِه مرفوعًا: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**» قالوا: وما حَقُّ الحياءِ؟ قال: «**أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَالبَطْنَ وَمَا وَعَى وَتَذْكُرُ المَقَابِرَ والبِلَى**»(١)، وقال ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيَ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٢).

وأصحُّ القولين فيه قولُ أبي عبيد والأكثرين: أَنَّهُ تهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصِّلت:٤٠]، وقولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات:٤٦]، وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى: أَنَّكَ اذا أردت أن تفعل فعلًا فانظر قبل فعله، فإِنَّ كان مِمَّا يُستحيا فيه مِنَ اللهِ ومِنَ النَّاس فلا تفعله، وإن كان مِمَّا لا يستحيا منه فافعله فإِنَّهُ ليس بقبيح.

وعندي: أَنَّ هذا الكلامَ صورتَه صورةُ الطَّلب ومعناه معنى الخبر، وهو في قُوَّةِ قولهم: مَنْ لا يستحي صنع ما يشتهي؛ فليس بإذن ولا هو مجرَّد تهديد، وإِنَّمَا هو في معنى الخبر.

والمعنى: أَنَّ الرَّادعَ عَنِ القبيح إِنَّمَا هو الحياءُ؛ فمَنْ لم يستحِ فإِنَّهُ يصنع ما شاء، وإخراج هذا المعنى في صيغة الطَّلب لنكتة بديعة جدًا، وهي أَنَّ للإنسان آمرين وزاجرين؛ آمرٌ وزاجرٌ من جهة الحياءِ، فإذا أطاعه امتنع من فعل كُلِّ ما يشتهي، وله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الهوى والطَّبيعة فمَنْ لم يطع آمرَ الحياءِ وزاجرَه أطاع آمرَ الهوى والشَّهوة ولا بُدَّ.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٤٥٨) بنحوه، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١٢٠).

فإخراجُ الكلامِ في قالب الطَّلب يتضمَّنُ هذا المعنى دون أن يقالَ: مَنْ لا يستحي صنع ما يشتهي»(١).

و«الْحَيِيُّ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء اللهِ الحسنى، **وقد ورد هذا الاسم في حديثين:**

الأوَّل: حديث يعلى بن أميَّة: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ**»، رواه أبو داود والنَّسائيُّ(٢).

الثَّاني: حديث سلمان الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»، رواه أبو داود وابن ماجه(٣).

وَالْحَيَاءُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، تليق بجلاله وكماله، وهو سبحانه في صفاته كُلِّهَا لا يماثل أَحدًا من خلقه، ولا يماثله أَحَدٌ من خلقه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، فحياؤه سبحانه وصف يليق به، ليس كحياء المخلوقين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحَيَاءِ، وَوَصَفَهُ رَسُولُهُ ﷺ، فَهُوَ الْحَيِيُّ الكريم، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يِسْتَحِيي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»(٤)، وقالت أُمُّ سليمٍ: «يَا رَسُولَ اللهِ

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٧٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، واللَّفظ له، والنَّسائيُّ (٤٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ»(١)، وأقرَّها على ذلك، وقال النَّبيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ»**(٢)»(٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا حياء الرَّبِّ تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام، ولا تكيِّفه العقول؛ فإنَّهُ حياء كرم وبِرٌّ وجود وجلال، فإنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَيِيٌّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام، وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان مَنْ يذنب عبده ويستحيي هو، وفي أثر: مَنِ استحى مِنَ الله استحى الله منه»(٤). اهـ

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ؛ إِذْ أَقْبَلَ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ. قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا.

فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»**، متَّفق عليه(٥).

فمَنِ استحيا مِنَ اللّه استحيا اللّهُ منه، واللّه جَلَّ وَعَلَا حَيِيٌّ يحبُّ الحياء، والواجب على عبد اللّه المؤمن أن يستحيي من ربِّه جَلَّ وَعَلَا على

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٢)، ومسلم (٣١٣).
(٢) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (٨٩٣٧)، والطَّبرانيُّ في الكبير (٣٧٣٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في الإرواء (٢٠٠٥).
(٣) الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٤٩٩).
(٤) مدراج السَّالكين (٢/ ٢٥٠).
(٥) أخرجه البخاريُّ (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

قدر قربه منه وعلمه به واطِّلاعه عليه سبحانه، معظِّمًا لجناب الرَّبِّ سبحانه، مقدِّمًا محابَّه على كُلِّ المحابِّ.

وأعظم الحياء وأوجبه وأجلُّه قدْرًا وأفضله: الحياء مِنْ رَبِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، الحياءُ مِمَّن أوجدك ومَنَّ عليك بصنوف النِّعَم وألوان المِنَنَ.

روى الإمام أحمد في الزُّهد، والبيهقيُّ في شُعَب الإيمان: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي. قَالَ: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ**»(١).

وَالَّذِي يُحَرِّكُ فِي الْقَلْبِ الْحَيَاءَ مِنَ الله أمورٌ ثلاثةٌ:

الأوَّل: رؤية نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليك ومنَّته وفضله. ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والثَّانية: رؤية تقصيرك في حَقِّه وقيامك بما يجب له عليك سبحانه مِن امتثال المأمور وترك المحظور. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والثَّالث: رؤية اطِّلاعه عليك في كُلِّ حالٍ وفي أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات وأَيْنَمَا تكون، فهو لا تخفى عليه منك خافية. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

فهذه الثَّلاثة محرِّكاتٌ للقلوب، مَتَى ما كان القلب معظِّمًا لربِّه عَزَّوَجَلَّ، محِبًّا له سبحانه، عالمًا باطِّلاعه ورؤيته، وأنَّهُ لا تخفى عليه خافيةٌ؛ تحرَّك القلب حياءً مِنَ اللّه جَلَّوَعَلَا.

---

(١) أخرجه أحمد في الزُّهد (٢٤٨)، والبيهقيُّ في الشُّعَب (٧٣٤٣).

ثُمَّ عن هذا الحياء ينشأ كُلُّ خيرٍ وكُلُّ فضيلةٍ، فإذا وجد في القلب الحياء مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا انكفَّت النَّفس عَنِ الأخلاق الرَّذيلة والمعاملات السَّيِّئة والأفعال المحرَّمة، وأقبلت على فعل الواجبات والعناية بمكارم الأخلاق وعظيم الآداب وجميلها.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ؛ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَأَنْ تَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**»(١).

أمورٌ أربعةٌ فيها جماع الخير وتحقيق الحياء:

الأوَّل والثَّاني: حفظٌ للرَّأس، وحفظٌ للبطن؛ وهما أثر الحياء حقًّا ونتيجته وثمرته. فمَنْ كان قلبُه عامرًا بالحياءِ مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا بعثه حياؤه وساقه إلى حفظ رأسه وبطنه.

وحفظُ الرَّأس يشمل حفظَ البصر مِنَ النَّظر إلى الحرام، وحفظَ السَّمع من سماع الحرام، وحفظَ اللِّسان مِنَ الكلام الحرام، وحفظَ الوجه عمومًا من مقارفة خطيئةٍ أو ارتكاب معصيةٍ.

وحفظُ البطن يتناول عدمَ إدخال محرَّمٍ في الجوف، ويتناول كذلك حفظَ القلبِ بالأخلاق الفاضلة وتجنيبه رديئها وسيِّئها، ويتناول كذلك حفظَ الفرج من غشيان الحرام.

والأمران الآخران في الحديث: وهما قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَأَنْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والتِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

تَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ فيهما ذكرٌ لأمرين عظيمين إذا استقرَّا في القلب تحرَّكت الفضائل فيه؛ فمَنْ تذكَّر أنَّهُ سيموت ويبلى، وأنَّهُ سيقف بين يدي اللّه جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سيحاسبه يوم القيامة على ما قدَّم في هذه الحياة استحيا مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا من أن يلقاه يوم القيامة بأعمالٍ سيِّئةٍ وخصالٍ مشينةٍ، وأقبلَ على الله عَزَّوَجَلَّ إقبالًا صادقًا بإنابةٍ وحُسْن عبادةٍ وتمام إقبالٍ.

وعليه فإنَّ الحياءَ مِنَ اللهِ ليس مجرَّد كلمة يقولها المرء بلسانه، بل هو حقيقةٌ تقوم في قلب العبد تبعث فيه فعلَ الخيرات واجتنابَ المنكرات ومراقبة رَبِّ الأرض والسَّماوات في كُلِّ الأحايين وجميع الأوقات.

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ**»، متَّفق عليه(١).

فيه شدَّة حيائه ﷺ، وأنَّهُ أشدُّ النَّاس حياءً، والعذراء الَّتِي في خدرها يضرب بها المثل في شدَّة الحياء، وقد كان ﷺ أشدَّ حياءً منها، وقصص حيائه كثيرة:

عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ذكر لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وفيه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً** -قَالَ- **فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ** -قَالَ- **قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ لِي مُوسَى** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **فَرَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ** -قَالَ- **فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا** -قَالَ- **فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ** -قَالَ- **فَرَاجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠)، واللَّفظ له.

وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ -قَالَ- فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي»، رواه البخاريُّ[١].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ: الْعَبَّاسُ عَمُّهُ يَا ابْنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَا رُؤِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَانًا، متَّفق عليه[٢].

فيه: أَنَّ اللهَ جبله على أحسن الأخلاق والحياءِ الكامل، فلذلك غشي عليه، وما رؤي بعد ذلك عريانًا.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «**ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ**»، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ**»، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ بَارَكَ اللهُ لَكَ.

فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ، كُلِّهِنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً؛ أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠)، واللَّفظ له.

وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ، رواه البخاريُّ(١).

وهذا حياء الكرم، دعاهم إلى وليمة زينب، وطوَّلُوا الجلوس عنده، فقام واستحيى أَنْ يطلبَ منهم الانصراف.

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ كَيفَ تغتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ قَالَ: فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا. قَالَتْ: كَيفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: «**تَطَهَّرِي بِهَا. سُبْحَانَ اللهِ**». وَاسْتَتَرَ -وَأَشَارَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ- قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ، متفق عليه(٢)، وفي رواية للحديث: استحى فأعرض عنها(٣).

وكذلك أخبار الصَّحابة في حيائهم عديدة: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**»(٤).

ولشدَّة حيائه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانت تستحي منه ملائكة الرَّحمن: عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِى كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٩٣).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢)، واللَّفظ له.
(٣) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، لأبي نعيم (٧٣٩).
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٧٩٠)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٨١٨٥)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ -قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ- فَدَخَلَ فَتَحَدَّث، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»، رواه مسلم(١).

وعَنْ عَلِيّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً، وَكُنْتُ أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ، فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**يَغْسِلُ ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ**»، متَّفق عليه(٢).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبِي فَأَضَعُ ثَوْبِي، وَأَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَاللهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي، حَيَاءً مِنْ عُمَرَ»، رواه أحمد(٣).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ تُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة:١٢] الآيَةَ، قَالَتْ: فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً، فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَقِرِّي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، فَوَاللهِ مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا، قَالَتْ: فَنَعَمْ إِذًا، فَبَايَعَهَا بِالآيَةِ»، رواه أحمد(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣)، واللَّفظ له.
(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٠)، واللَّفظ له، والحاكم في المستدرك (٤٤٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في المشكاة (١٧٧١).
(٤) أخرجه أحمد (٢٥١٧٥)، وقال الألبانيُّ في التَّعليقات الحسان (٤٥٣٧): «صحيح الإسناد».

والحياء المطلوب المأمور به المثني على أهله هو الحياء فيما شُرِع الحياء فيه، فأَمَّا حياء يؤدِّي إلى ترك تعلُّم العلم فليس بمشروع، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»[(١)].

وقالت أُمُّ سليم: يا رسولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ لا يستحي مِنَ الحَقِّ، هل على المرأةِ من غسلٍ إذا احتلمت؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا رَأَتِ المَاءَ**»[(٢)]، وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يتعلَّمُ مُسْتحٍ ولا مُتَكبِّرٌ»[(٣)].

وكذلك ليس مِنَ الحياء ما يؤدِّي إلى ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عَنِ المنكر والحكم بالحَقِّ والقيام به وأداء الشَّهادات والنُّصح لعباد الله.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاريُّ (١/ ٣٨) معلَّقًا، ومسلم (٣٣٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٨٢)، ومسلم (٣١٣).
(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٠٠٤).

(١٨)

عِيادَةُ الْمَرِيضِ

جَاءَتِ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ بجملةٍ مِنَ الآدابِ الكريمةِ والأخلاقِ العظيمةِ تتعلَّق بحقوق المريض على إخوانِهِ المسلمين؛ عيادةً له ومؤانسةً له وملاطفةً ودعاءً له بالشِّفاء، وما يُرْقَى به المرض مِمَّا يكون سببًا لشِّفائه وعافيته.

وكم لعيادة المريض وما يصحبها من آداب؛ من أثر عظيم على المريض؛ فرحًا وتفاؤلًا واستبشارًا وأنسًا وشفاءً!.

وقد ثبت عن نبيِّنا الكريم ﷺ أحاديثُ عديدةٌ في الأمر بعيادة المريض والحثِّ عليها وبيان فضلِها وما يترتَّب عليها من عظيم الأجر وجزيل الثَّواب.

عنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ؛ أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ أَوِ الْمُقْسِمِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ وَإِجَابَةِ الدَّاعِى وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ.

وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمَ أَوْ عَنْ تَخَتُّمٍ بِالذَّهَبِ وَعَنْ شُرْبٍ بِالْفِضَّةِ وَعَنِ الْمَيَاثِرِ وَعَنِ الْقَسِّيِّ وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ»، متَّفق عليه[(١)].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَطْعِمُوا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦)، واللَّفظ له.

الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ»، رواه البخاريُّ(١).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُودُوا الْمَرِيضَ، وَامْشُوا مَعَ الْجَنَائِزِ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ»، رواه أحمد(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: عِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، إِذَا حَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»، رواه أحمد(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ». قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»، رواه مسلم(٤).

عَنِ الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «كُنَّا نَقْعُدُ فِي الْمَجْلِسِ، فَإِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ سَأَلْنَا عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مَرِيضًا عُدْنَاهُ»، رواه البيهقيُّ في شُعَب الإيمان(٥).

وقد رُتِّب في أحاديث عديدة أجورٌ عظيمة ينالها عائد المريض:

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٣).
(٢) أخرجه أحمد (١١١٨٠)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٨٦٨٨)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥١٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه مسلم (٢١٦٢).
(٥) أخرجه البيهقيُّ في الشعب (١١/ ٤٣٠).

«**مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ**»، رواه مسلم(١).

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ أَتَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ عَائِدًا، مَشَى فِي خَرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدْوَةً، صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً، صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ**»، رواه ابن ماجه(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا، نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا**»، رواه ابن ماجه(٣).

وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا جَلَسَ عِنْدَهُ اسْتَنْقَعَ فِيهَا**»، رواه أحمد(٤).

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ، حَتَّى إِذَا قَعَدَ اسْتَقَرَّ فِيهَا**»، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد(٥).

وعن هَارُونَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: أَتَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّ الْمَكَانَ بَعِيدٌ وَنَحْنُ يُعْجِبُنَا أَنْ نَعُودَكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا، فَإِنَّمَا يَخُوضُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في التَّرغيب والتَّرهيب (٣٤٧٨).

(٥) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٢٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَ الْمَرِيضِ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ»، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا لِلصَّحِيحِ الَّذِي يَعُودُ الْمَرِيضَ، فَالْمَرِيضُ مَا لَهُ؟ قَالَ: «تُحَطُّ عَنْهُ ذُنُوبُهُ»، رواه أحمد(٦).

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرة، فانظر هذا الثَّواب العظيم المترتِّب على إحسان المسلم لأخيه المريض بعيادته لمؤانسته والدُّعاء له، وحَقٌّ على مَنْ سمع هذه الأحاديث أَنْ يجعلَ لنفسه نصيبًا من هذا الإحسان ليفوز بهذا الثَّواب.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ؛ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدَمَ؛ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ؛ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ؛ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»، رواه مسلم(٧).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقالَ في عيادةِ المريضِ: لوجدتني عنده، وقال في الإطعام والإسقاء: لوجدت ذلك عندي ففرَّق بينهما، فإِنَّ المريضَ مكسور القلب ولو كان مَنْ كان، فلا بُدَّ أن يكسره المرضُ، فإذا كان مؤمنًا قَدِ انكسر قلبُه بالمرض كان الله عنده»(٨).

---

(٦) أخرجه أحمد (١٢٧٨٢).
(٧) أخرجه مسلم (٢٥٦٩).
(٨) مدارج السَّالكين (١/ ٣٠٧).

وهذا يدُلُّ على قرب المريض مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَنَّ دعاءَه لنفسه ولغيره مستجابٌ، وقد أضاف الله المريض إليه تشريفًا له وتقريبًا، ويدُلُّ على استحباب عيادة المريض وأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند المريض وعند مَنْ عاده لقوله: «**لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**».

ويستحب عند عيادة المريض الدُّنُوُّ منه والجلوسُ عند رأسه:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَادَ الْمَرِيضَ جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ سَبْعَ مِرَارٍ: «**أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَشْفِيكَ**»، فَإِنْ كَانَ فِي أَجَلِهِ تَأْخِيرٌ عُوفِيَ مِنْ وَجَعِهِ، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد(١).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»، رواه البخاريُّ(٢).

وفي الجلوس عند رأس المريض فوائد:

منها: أَنَّ العائدَ إذا كان عند رأس المريض فهذا أيسر للمريض عند محادثته، بخلاف ما إذا كان بعيدًا عنه.

ومنها: أَنَّ هذا أكثر مؤانسة للمريض.

ومنها: أَنَّ في ذلك تمكُّنًا من تطبيق سُنَّة وضع اليد على ناصية المريض.

ومن فوائد هذا الحديث: أَنَّ عيادةَ المشرك جائزةٌ إذا قُصِدَ بها تأليف قلبه ودعوته إلى الإسلام، والتَّرفُّق به في الزِّيارة حَتَّى يأنس

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٥٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣٥٦).

لأهل الإسلام ومعاملتهم، فيلين قلبُه فيُسلِم، وهو داخل في عموم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

ومن فوائده: أنَّ صنائعَ المعروف تفتح قلب المدعو، وهذا مِنَ الفقه في الدَّعوة، وكان هذا من هديه ﷺ في الدَّعوة إلى الله؛ بكلمة جميلة، أو هدية طيِّبة، أو عيادة، أو لطف في الخطاب، أو رفق في المعاملة، إلى غير ذلك، وكثيرًا ما يأتي في هدي نبيِّنا ﷺ مثلُ هذا.

فلَمَّا عاد ﷺ هذا المريضَ وأدخل عليه أُنْسًا وسرورًا قال له حينئذ: «**أَسْلِمْ**»، فشرح الله صدره للإسلام فأسلم، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ من عنده وهو يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».

وعن سَعِيد بْن الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التَّوبة:١١٣].

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦][(١)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، واللَّفظ له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ ﷺ يَعُودُ مَنْ مَرِضَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَادَ غُلَامًا كَانَ يَخْدِمُهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعَادَ عَمَّهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ وَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الإِسْلَامَ، فَأَسْلَمَ الْيَهُودِيُّ وَلَمْ يُسْلِمْ عَمُّهُ»(١).

ومِنَ السُّنَّةِ أن يَدْنُو مِنَ الْمَرِيضِ وَيَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَجِدُك؟ أو نحوَ ذلك.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**»، قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: لَمَّا أُصِيبَ أَكْحُلُ سَعْدٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَثَقُلَ، حَوَّلُوهُ عِنْدَ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، وَكَانَتْ تُدَاوِي الْجَرْحَى، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِ يَقُولُ: «**كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟**»، وَإِذَا أَصْبَحَ: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟**» فَيُخْبِرُهُ، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد(٣).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ؟... الحديث، رواه البخاريُّ(٤).

وعن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٧٥).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٢٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٩٢٦).

اتَّقَيْتُ، قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ، وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا، رواه البخاريُّ[(١)].

ويحسن عند عيادة المريض تذكيره بما في الأمراض من تكفير، وإدخال الفأل الطَّيِّب عليه بدنُوِّ الشِّفاء.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قَالَ: لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقَالَ لَهُ: لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: قُلْت: طَهُورٌ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ أَوْ تَثُورُ عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَنَعَمْ إِذًا**»، رواه البخاريُّ[(٢)].

وعَنْ أَبِي الأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ، أَنَّهُ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَهَجَّرَ بِالرَّوَاحِ، فَلَقِيَ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ وَالصُّنَابِحِيَّ مَعَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدَانِ يَرْحَمُكُمَا اللهُ؟ قَالَا: نُرِيدُ هَاهُنَا إِلَى أَخٍ لَنَا مَرِيضٍ نَعُودُهُ. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا حَتَّى دَخَلَا عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَا لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةٍ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ** عَزَّ وَجَلَّ: **أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ**»، رواه أحمد[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٦١٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١١٨)، واللَّفظ له، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٤٧٠٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٤٢٣).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ، وَلَا مُسْلِمَةٍ، وَلَا مُؤْمِنٍ، وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَمْرَضُ مَرَضًا إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ**»، رواه أحمد(١).

ومن تمام عيادة المريض: أن يضع العائد يده على جبهة المريض، أو على يده.

عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ أَنَّ أَبَاهَا قَالَ: تَشَكَّيْتُ بِمَكَّةَ شَكْوًا شَدِيدًا، فَجَاءَنِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي أَتْرُكُ مَالًا، وَإِنِّي لَمْ أَتْرُكْ إِلَّا ابْنَةً وَاحِدَةً، أَفَأُوصِي بِثُلُثَيْ مَالِي وَأَتْرُكُ الثُّلُثَ، فَقَالَ: «**لَا**»، قُلْتُ: فَأُوصِي بِالنِّصْفِ وَأَتْرُكُ النِّصْفَ، قَالَ: «**لَا**»، قُلْتُ: فَأُوصِي بِالثُّلُثِ وَأَتْرُكُ لَهَا الثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِي، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِي وَبَطْنِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ**»، فَمَا زِلْتُ أَجِدُ بَرْدَهُ عَلَى كَبِدِي فِيمَا يُخَالُ إِلَيَّ حَتَّى السَّاعَةِ، رواه البخاريُّ(٢).

وفي وضع اليد على المريض فوائد منها: إحساس العائد بحجم المرض الَّذي يعاني منه المريض.

ومنها: مواساة المريض وتسليته؛ لأَنَّ وضع اليد على المريض فيه تسلية للمريض ومؤانسة له.

ومنها: أَنَّهُ يُشرع عند وضع اليد رقية المريض أَوِ الدُّعاء له بالشِّفاء والعافية أو نحو ذلك.

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ اللَّهُ: «في وضع اليد على المريض تأنيس له

---

(١) أخرجه أحمد (١٥١٤٦)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٦٥٩).

وتعرُّف لشدَّة مرضه؛ ليدعو له بالعافية على حَسَبِ ما يبدو له منه، ورُبَّمَا رقاه بيده ومسح على ألمه بما ينتفع به العليل إذا كان العائد صالحًا»[١]. زاد ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يكون العائد عارفًا بالعلاج، فيعرف العِلَّة فيصف له»[٢].

ومِنَ السُّنَّة عند عيادة المريض الدُّعاء له بالشَّفاء وإن تيسر له رقيته رقاه.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَدَغَتْ رَجُلًا مِنَّا عَقْرَبٌ وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرْقِي؟ قَالَ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»، رواه مسلم[٣].

وإنَّ أعظمَ ما يُرقى به المريضُ فاتحةُ الكتاب أمُّ القرآن، فإنَّها كافيةٌ شافيةٌ، لما ورد في حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصَّة سيِّد القوم الَّذِي لدغ، فانطلق أحدهم يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، فقام كأنَّمَا نُشِط من عقال، وانطلق يمشي وما به قلبةٌ، فذكروا ذلك للنَّبِيِّ ﷺ: فقال «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**»، رواه البخاريُّ[٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَوْ أَحْسَنَ العبدُ التَّداوي بالفاتحةِ لرَأَى لَها تَأْثيرًا عجيبًا في الشِّفاء، ومكثتُ بمكَّةَ مُدَّة يعترينِي أدواءٌ ولا أجدُ طبيبًا ولا دواءً، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأَرَى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنتُ أصفُ ذلكَ لِمَن يشتكي ألَمًا، فكان كثيرٌ منهم يبْرأُ سريعًا».اهـ[٥].

---

(١) شرح صحيح البخاريِّ (٩/ ٣٨١).
(٢) فتح الباري (١٠/ ١٢٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٩).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٢٧٦).
(٥) الجواب الكافي لمن سأل عَنِ الدَّواء الشَّافي (١/ ٩).

ومِمَّا يُرقَى به المريض المعوِّذات: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]، ففي الصَّحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا اشْتكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»[(١)].

وفي صحيح مسلم عنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ»[(٢)].

وقد دلَّ الحديثُ على عِظَم شأن هذه السُّوَر الثَّلاثة، وأَنَّهَا رُقيةٌ وشفاءٌ للوجع بإذن الله، وقد ورد في شأن هذه السُّوَر أحاديثُ كثيرةٌ تدُلُّ على عِظم شأنها، وسُورَتَا المعوِّذتين لهما تأثيرٌ عظيمٌ لا سِيَّما إِنْ كان المرضُ ناشئًا عن سحرٍ أو عَيْنٍ أو نحوِ ذلك.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدِّمة تفسيره للمعوِّذتين: «والمقصودُ الكلامُ على هاتين السُّورتين، وبيانُ عظيم منفعتهما، وشدَّة الحاجة بَلِ الضَّرورة إليهما، وأنَّهُ لا يستغني عنهما أحدٌ قطُّ، وأنَّ لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السِّحر والعيْن وسائرِ الشُّرور، وأنَّ حاجةَ العبد إلى الاستعاذة بهاتين السُّورتين أعظمُ مِن حاجته إلى النَّفَس والطَّعام والشَّراب واللِّباس»[(٣)]، ثمَّ بسط الكلامَ عليهما بسطًا عظيمَ النَّفع والفائدة.

ويوجَّه المريضُ إلى أن يرقي نفسَه بما ثبت في صحيح مسلم عن عثمان بن أبي العاص: أَنَّهُ شكا إلى رسول الله ﷺ وَجَعًا في جسده منذ أسلَم، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ**

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٠١٦)، واللَّفظ له، ومسلم (٢١٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٢).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٩).

بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(١).

وقولُه: «**مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**» أي: مِن شرِّ ما أجدُ مِن وجَعٍ وألمٍ، ومِن شرِّ ما أحاذرُ مِنْ ذلك، أي: ما أَخَافُ وأَحْذر.

وهذا فيه التَّعوُّذ مِنَ الوجع الَّذِي هو فيه، والتَّعوُّذ مِنَ الوجع الَّذِي يَخاف حصولَه أو يتوقَّعُ حصولَه في المستقبل، ومِن ذلك تفاقمُ المرض الَّذِي هو فيه وتزايُدُه، وهذا يحصل للإنسان كثيرًا عند ما يصاب بمرضٍ، فإنَّه قد ينتابُه شيءٌ مِنَ القلق تخوُّفًا مِن تزايُد المرضِ وتفاقمِه، وفي هذا الدُّعاء العظيم تعوُّذٌ بالله من ذلك.

ويذكر المريض بأهمية الدعاء، وأن يدعو لنفسه بالشفاء، فإن دعوته لنفسه مستجابة؛ لأنها دعوة مضطر.

عن عبد الله بن أبي صالح قال: «دَخَلَ عَلَيَّ طَاوسٌ وَأَنَا مَرِيضٌ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ أُدْعُ لِي، قَالَ: أُدْعُ لِنَفْسِكَ فَإِنَّهُ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ»(٢).

ومِمَّا يرقى به المريض ما ثبت في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يا مُحَمَّد، اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ. اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ(٣).

وثبت في الصَّحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِه اليُمْنَى وَيَقُولُ: «**اللهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ البَاسَ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).
(٢) المرض والكفارات لابن أبي الدُّنيَا (٧١).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦).

وَاشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»[١].

وفي رواية عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا اشتكى منَّا إنسانٌ مسحه بيمينه ثُمَّ قال: وذكرتِ الدُّعَاءَ[٢]، وفي روايةٍ قالت: إِنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يَرقي بهذه الرُّقية وذكرته[٣].

وفي صحيح البخاريِّ: عن عبد العزيز بن صُهيب قال: دخلتُ أنا وثابتٌ على أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال ثابتٌ: يا أبا حمزة اشتكيتُ، فقال أنس: ألا أَرقيك برُقية رسول الله؟ قال: بلى، قال: **اللهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَاسَ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**[٤].

قولُه: «**اللـهُمَّ رَبَّ النَّاسِ**» فيه التَّوسُّلُ إلى الله بربوبيَّته للنَّاس أجمعين، بخلقِهم وتدبيرِ شؤونهم وتصريفِ أمورهم، فبيده سبحانه الحياةُ والموتُ، والصِّحة والسَّقم، والغنى والفقر، والقوَّة والضَّعف.

وقولُه: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ**» والبَأْسُ هو التَّعبُ والشِّدَّةُ والمرضُ، وهو هنا بغير هَمزة مراعاة للازدواج والمؤاخاة.

وجاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَاسِ**» وفي هذا التَّوسُّلُ إلى الله -سبحانه- بأَنَّهُ وحدَه المذهبُ للبأسِ، فلا ذهابَ للبأس عَنِ العبدِ إِلَّا بإذنه ومشيئته -سبحانه-.

وقولُه: «**وَاشْفِه وَأَنْتَ الشَّافِي**» فيه سؤالُ الله الشَّفاء وهو العافيةُ والسَّلامةُ مِنَ المرضِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٧٤٣)، واللَّفظ له، ومسلم (٢١٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩١).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٩١).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٧٤٢).

وقولُه: «وَأَنْتَ الشَّافي» توسُّلٌ إلى الله سبحانه بِأَنَّهُ الشَّافي الَّذِي بيده الشِّفاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعراء: ٨٠].

وقولُه: «لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ» فيه تأكيدٌ لِمَا سبق، وإقرارٌ بأنَّ العِلاجَ والتَّداوي إن لَم يوافق إذنًا مِنَ الله بالعافية والشِّفاء، فإِنَّهُ لا ينفع ولا يُجدي.

وقولُه: «شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا» أي: لا يتركُ مرَضًا ولا يخلف علَّةً، والفائدةُ من هذا: أنَّ الشِّفاءَ مِنَ المرض قد يَحصل، ولكنْ قد يَخلُفُه مرضٌ آخرُ يَتَوَلَّد منه وينشأُ بسببه.

فسأل اللهَ أن يكون شفاؤُه مِنَ المرض شفاءً تامًّا لا يبقى معه أثرٌ، ولا يخلف في المريض أيَّ علَّة، وهذا من تَمام الدَّعوات النَّبويَّة وكمالها ووفائها.

❁ ❁ ❁

(١٩)

التَّعَامُلُ مَعَ الْأَهْلِ

إِنَّ البيتَ ومَا يكونُ داخلَه مِنْ تعامُلٍ يُعَدُّ مقياسًا دقيقًا لمعرفة خُلُقِ الرَّجُل من عدمه؛ لأَنَّهُ الموطن الَّذِي يتصرَّف فيه المرء بسجيته كيفما كانت دون تكلُّف، وقد أوتي نبيُّنا الكريم ﷺ الخلقَ الكاملَ والأدبَ الرَّفيعَ، وله ﷺ مِنَ الأخلاق والآداب أطيبها.

وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طيِّبٌ، وبدنه طيِّبٌ، وخلقه طيِّبٌ، وعمله طيِّبٌ، وكلامه طيِّبٌ، ومطعمه طيِّبٌ، ومشربه طيِّبٌ، وملبسه طيِّبٌ، ومنكحه طيِّبٌ، ومدخله طيِّبٌ، ومخرجه طيِّبٌ، ومنقلبه طيِّبٌ، ومثواه كُلُّه طيِّبٌ.

ونصيب المرء مِنَ الطيِّب وحظُّه منه بحسب نصيبه وحظِّه مِنَ الاهتداء بهدي النَّبيِّ ﷺ ولزوم منهاجه القويم.

وتعامُلُ النَّبيِّ ﷺ مع نسائه يُعَدُّ أرفعَ مثال عرفه تاريخ البشرية كُلِّها في الأدب والخلق وطيب المعاملة.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ**

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٨٩٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

وفي الباب من حديث ابن عبَّاسٍ[(٢)] وعبد الرَّحمن بن عوف[(٣)] وأبي كبشة الأنماريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٤)].

وكان ﷺ في بيته نموذجا رفيعًا للتَّواضع ولين العريكة وخفض الجناح وكريم المعاملة وطيب الخلق.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»، رواه أحمد[(٥)].

وعَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، رواه البخاريُّ[(٦)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سُئِلَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ، رواه أحمد[(٧)].

وكان ﷺ لطيفًا مع نسائه غاية اللُّطف وأجمله.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١١٦٢)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البزَّار في المسند (٥١٩٦).
(٤) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (٨٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٢٦٦).
(٥) أخرجه أحمد (٢٦١٩٤)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٦) أخرجه البخاريُّ (٦٧٦).
(٧) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٩٣٧).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْحِصْنَ ذُكِرَ لَهُ جَمَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا، فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغْنَا سَدَّ الرَّوْحَاءِ حَلَّتْ، فَبَنَى بِهَا ثُمَّ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطَعٍ صَغِيرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى صَفِيَّةَ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ، رواه البخاريُّ[(١)].

«يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ» أي: يدير كساء حول سنام البعير لتركب عليه، وهو الحوية، فيباشر تهيئة مركبها بنفسه.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، رواه مسلم[(٢)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِتُرْبَانَ، بَلَدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ بَرِيدٌ وَأَمْيَالٌ، وَهُوَ بَلَدٌ لَا مَاءَ بِهِ، وَذَلِكَ مِنَ السَّحَرِ، انْسَلَّتْ قِلَادَةٌ لِي مِنْ عُنُقِي، فَوَقَعَتْ، فَحُبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِالْتِمَاسِهَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، وَلَيْسَ مَعَ الْقَوْمِ مَاءٌ، قَالَتْ: فَلَقِيتُ مِنْ أَبِي مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ مِنَ التَّعْنِيفِ وَالتَّأْفِيفِ، وَقَالَ: فِي كُلِّ سَفَرٍ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْكِ عَنَاءٌ وَبَلَاءٌ؟ قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللهُ الرُّخْصَةَ بِالتَّيَمُّمِ، قَالَتْ: فَتَيَمَّمَ الْقَوْمُ وَصَلَّوْا. قَالَتْ: يَقُولُ أَبِي حِينَ جَاءَ مِنَ اللهِ مَا جَاءَ مِنَ الرُّخْصَةِ لِلْمُسْلِمِينَ: وَاللهِ، مَا عَلِمْتُ يَا بُنَيَّةُ، إِنَّكِ لَمُبَارَكَةٌ، مَاذَا جَعَلَ اللهُ

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٢٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠).

لِلْمُسْلِمِينَ فِي حَبْسِكِ إِيَّاهُمْ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالْيُسْرِ؟، رواه أحمد[(١)].

وكان ﷺ يحتمل ما قد يقع منهنَّ من خطأ، ويصبر عليهنَّ في مناقشتهنَّ له، ويغضُّ الطَّرْف عمَّا يكون بينهنَّ بسبب الغيرة.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ فَسَقَطَتْ الصَّحْفَةُ، فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ، رواه البخاريُّ[(٢)].

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا أَتَتْ بِطَعَامٍ فِي صَحْفَةٍ لَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَجَاءَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مُؤْتَزِرَةً بِكِسَاءٍ وَمَعَهَا فِهْرٌ، فَفَلَقَتْ بِهِ الصَّحْفَةَ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ فِلْقَتَيِ الصَّحْفَةِ وَيَقُولُ: «**كُلُوا غَارَتْ أُمُّكُمْ**» مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَحْفَةَ عَائِشَةَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ، وَأَعْطَى صَحْفَةَ أُمِّ سَلَمَةَ لِعَائِشَةَ، رواه النَّسائيُّ[(٣)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ صَانِعَةَ طَعَامٍ مِثْلَ صَفِيَّةَ، أَهْدَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنَاءً فِيهِ طَعَامٌ فَمَا مَلَكَتْ نَفْسِي أَنْ كَسَرْتُهُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ كَفَّارَتِهِ فَقَالَ: «**إِنَاءٌ كَإِنَاءٍ، وَطَعَامٌ كَطَعَامٍ**»، رواه النَّسائيُّ[(٤)].

وعن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: مَا عَلِمْتُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيَّ زَيْنَبُ بِغَيْرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٣٤١)، وأصله في الصَّحيحين: البخاريِّ (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٢٢٥).

(٣) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (٨٨٥٤)، والطَّحاويُّ في مشكل الآثار (٣٣٥٤).

(٤) أخرجه النَّسائيُّ (٣٩٥٧).

إِذْنٍ وَهِيَ غَضْبَى، ثُمَّ قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَحْسِبُكَ إِذَا قَلَبَتْ لَكَ بُنَيَّةُ أَبِي بَكْرٍ ذُرَيِّعَتَيْهَا، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ، فَأَعْرَضْتُ عَنْهَا، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دُونَكِ فَانْتَصِرِي»، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا قَدْ يَبِسَ رِيقُهَا فِي فَمِهَا، مَا تَرُدُّ عَلَيَّ شَيْئًا، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، رواه أحمد(١).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: الْتَمَسْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي شَعْرِهِ فَقَالَ: «**قَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟**» فَقُلْتُ: أَمَا لَكَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «**بَلَى، وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ**»، رواه النَّسائيُّ(٢).

ورواه ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ في التَّمهيد بلفظ: «أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ نَائِمَةً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَفَقَدَتْهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَسَمِعَتْ صَوْتَهُ وَهُوَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي شَعْرِهِ، فَمَسَسْتُهُ أَبِهِ بَلَلٌ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى فِرَاشِي ثُمَّ إِنَّهُ سَلَّمَ فَقَالَ أَجَاءَكِ شَيْطَانُكِ فَقُلْتُ أَمَا لَكَ شَيْطَانٌ؟، قَالَ: «**بَلَى وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيهِ فَأَسْلَمَ**»(٣).

وعن أُمِّ مُبَشِّرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**». قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ «**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**»، رواه مسلم(٤).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٢٠)، وابن ماجه (١٩٨١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٣٩٦٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه ابن عبد البرِّ في التَّمهيد (٢٣/ ٣٥١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

يَتعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ -قَالَ:- وَكَانَ مَنْزِلِي فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي، فَتَغَضَّبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي. فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟ فَوَاللهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ.

فَانْطَلَقْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: أَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ؟ لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا، وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، متفق عليه(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «**هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ**».

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا. كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فَقُلْنَ: وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب:٥٩] حَتَّى بَلَغَ ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:٢٩].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، واللَّفظ له.

قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا، أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ**»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ. قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟! بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ. قَالَ: «**لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»، رواه مسلم(١).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي؟ قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ. قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِيَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا.

فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ.

فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَةً؟**». قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ. قَالَ: «**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: «**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟**».

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

قُلْتُ: نَعَمْ. فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: «**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟**». قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ.

قَالَ: «**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي**»، فَقَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**». قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»، رواه مسلم(١).

وكان ﷺ يؤانسهنَّ ويداعبهنَّ ويدخل السُّرور عليهِنَّ: عن أَبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَ؛ هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ**»، قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ. قَالَتْ: وَهُوَ يَرَى مَا لَا نَرَى، رواه البخاريُّ(٢).

ناداها باسمها مرخمًا من تلطُّفه ﷺ معها، ثُمَّ نقل لها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سلام جبريل عليها، وفي هذا من إدخال السُّرور ما لا يخفى.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي، فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ، متَّفق عليه(٣).

فكان يؤنس عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حيث يرضى بلعبها بالبنات، ويرسل

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٢٠١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠)، واللَّفظ له.

إليها صواحبها حَتَّى يلعبن معها.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»، رواه أحمد(١).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ حَبَشٌ يَزْفِنُونَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى مَنْكِبِهِ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، رواه مسلم(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا فَسَمِعْنَا لَغَطًا وَصَوْتَ صِبْيَانٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تَزْفِنُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ تَعَالَيْ فَانْظُرِي**». فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ الْمَنْكِبِ إِلَى رَأْسِهِ.

فَقَالَ لِي: «**أَمَا شَبِعْتِ؟ أَمَا شَبِعْتِ؟**». قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ: لَا؛ لِأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ عُمَرُ، قَالَتْ: فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ**» قَالَتْ: فَرَجَعْتُ، رواه التِّرمذيُّ(٣).

وكان ﷺ سهلًا لينًا في تعامله معهنَّ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٢).

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٦٩١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَقْبَلْنَا مُهِلِّينَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَجٍّ مُفْرَدٍ، وَأَقْبَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِعُمْرَةٍ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِسَرِفَ عَرَكَتْ، حَتَّى إِذَا قَدِمْنَا طُفْنَا بِالْكَعْبَةِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَحِلَّ مِنَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ، قَالَ: فَقُلْنَا: حِلُّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْحِلُّ كُلُّهُ**».

فَوَاقَعْنَا النِّسَاءَ، وَتَطَيَّبْنَا بِالطِّيبِ، وَلَبِسْنَا ثِيَابَنَا، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَرَفَةَ إِلَّا أَرْبَعُ لَيَالٍ، ثُمَّ أَهْلَلْنَا يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَوَجَدَهَا تَبْكِي، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكِ؟**» قَالَتْ: شَأْنِي أَنِّي قَدْ حِضْتُ، وَقَدْ حَلَّ النَّاسُ وَلَمْ أَحْلِلْ، وَلَمْ أَطُفْ بِالْبَيْتِ، وَالنَّاسُ يَذْهَبُونَ إِلَى الْحَجِّ الْآنَ.

فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاغْتَسِلِي ثُمَّ أَهِلِّي بِالْحَجِّ**» فَفَعَلَتْ وَوَقَفَتْ الْمَوَاقِفَ، حَتَّى إِذَا طَهَرَتْ طَافَتْ بِالْكَعْبَةِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ حَلَلْتِ مِنْ حَجِّكِ وَعُمْرَتِكِ جَمِيعًا**»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَنِّي لَمْ أَطُفْ بِالْبَيْتِ حَتَّى حَجَجْتُ. قَالَ: «**فَاذْهَبْ بِهَا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَأَعْمِرْهَا مِنَ التَّنْعِيمِ**» وَذَلِكَ لَيْلَةَ الْحَصْبَةِ، وفي رواية قال: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا سَهْلًا إِذَا هَوِيَتْ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ، رواه مسلم(١).

وكان يستمع لأحاديثِهِنَّ معه وإن طال الحديث.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا... ثُمَّ سردت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث طويل للنَّبيِّ ﷺ: ماذا قالت كُلُّ واحدة منهنَّ عن زوجها، حَتَّى ذكرَتِ الحادية عشرة منهنَّ، وقد أثنت على زوجها كثيرًا في كرمه وحسن تعامله.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٣).

لأُمِّ زَرْعٍ»، متَّفق عليه[١]، وقد رواه البخاريُّ تحت باب حسن المعاشرة مع الأهل، أي: بملاطفتهم والإحسان إليهم.

وكان مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: في ذلك مرضاةٌ لربِّك، ومحبَّةٌ في أهلك، ومثراة في مالك، ومنسأة في أجلك، وكان يقول: يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يتحبَّبَ إِلَى أَهْلِ دَارِهِ حَتَّى يَكُونَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِمْ[٢].

وكان ﷺ يعدل بين زوجاته ويقسم لكُلِّ زوجة يومها وليلتها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، رواه البخاريُّ[٣].

وكان ﷺ إذا صلى العصر دار على نسائه واحدة واحدة، ويدنو منهنَّ ويسأل عن أحوالهنَّ، وكُلُّ ذلك من حسن معاشرته ورفقه بهنَّ ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ، فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لِي: أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةً مِنْ عَسَلٍ، فَسَقَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَرْبَةً، فَقُلْتُ: أَمَا وَاللهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ.

فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَوْدَةَ، وَقُلْتُ: إِذَا دَخَلَ عَلَيْكِ فَإِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ، فَقُولِي لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ: لَا. فَقُولِي لَهُ:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٢) بغية الرَّائد فيما في حديث أُمِّ زرع مِنَ الفوائد (ص٣٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٥٩٣).

مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ - فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ. فَقُولِي لَهُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ، وَسَأَقُولُ ذَلِكَ لَهُ، وَقُولِيهِ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى سَوْدَةَ قَالَتْ: تَقُولُ سَوْدَةُ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ كِدْتُ أَنْ أُبَادِئَهُ بِالَّذِي قُلْتِ لِي وَإِنَّهُ لَعَلَى الْبَابِ فَرَقًا مِنْكِ، فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ قَالَ: «**لَا**». قَالَتْ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: «**سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ**». قَالَتْ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى صَفِيَّةَ فَقَالَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: «**لَا حَاجَةَ لِي بِهِ**». قَالَتْ: تَقُولُ سَوْدَةُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ حَرَمْنَاهُ. قَالَتْ: قُلْتُ لَهَا: اسْكُتِي، متفق عليه(١).

وكان ﷺ يجتهد في طلب رضاهُنَّ حَتَّى وإنْ كنَّ مخطئات.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ رَافِعَةٌ صَوْتَهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ: يَا ابْنَةَ أُمِّ رُومَانَ وَتَنَاوَلَهَا، أَتَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: فَحَالَ النَّبِيُّ ﷺ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ، يَقُولُ لَهَا يَتَرَضَّاهَا: «**أَلَا تَرَيْنَ أَنِّي قَدْ حُلْتُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَكِ؟**».

قَالَ: ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَوَجَدَهُ يُضَاحِكُهَا، قَالَ: فَأَذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أَشْرِكَانِي فِي سِلْمِكُمَا، كَمَا أَشْرَكْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، رواه أحمد(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢٩٠١).

وكان ﷺ من عنايته بهنَّ يعلم رضا الواحدة منهنَّ من غضبها من طريقة كلامها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ**» قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ، رواه البخاريُّ[(١)].

وكان ﷺ يبادر إلى توجيههنَّ عند حصول الخطأ برفق ولطف.

عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَتَكَهُ، وَقَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»، قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ، رواه البخاريُّ[(٢)].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ وَفِي يَدِهِ عَصًا، فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ: «**مَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَا رُسُلُهُ**». ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَا هُنَا؟**».

فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا دَرَيْتُ. فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ**». فَقَالَ: مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ، إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ، رواه مسلم[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٩٥٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٠٤).

وعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا. تَعْنِي: قَصِيرَةً. فَقَالَ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»، رواه أبو داود[١].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكِ؟**» فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟**» ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ**»، رواه التِّرمذيُّ[٢].

وكان ﷺ يتعاهدهنَّ بالتَّعليم والحثِّ على الذِّكر والعبادة.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ، متَّفق عليه[٣].

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه البخاريُّ[٤].

وعَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٨٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، واللَّفظ له.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٨٤٤).

قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، رواه مسلم(١).

وكان ﷺ يرعى حَقَّ الزَّوجة حَتَّى بعد موتها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٦).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٨١٨).

(٢٠)

التَّعَامُلُ مَعَ الصِّغَارِ

لَقَدْ حَظِيَ الصِّغارُ بِحُنُوٍّ عَظيمٍ ولطفٍ كريمٍ وتعامُلٍ جميلٍ وتَوَدُّدٍ لطيفٍ، مِنَ النَّبِيِّ الكريمِ ﷺ، وأوصى بهم خَيْرًا، وضَرَبَ في تعامُلِهِ مَعَهُم أَرْوَعَ الأمثلة خُلُقًا وأدبًا ولطفًا ورحمةً، وحُسْنَ تربية لهم على الإيمان والطَّاعة ومراقبة الله وتعظيمه سبحانه وإخلاص الدِّين، وحسن تنشئة لهم على الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

وقد كان ابْنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين حدَّثَه النَّبِيُّ ﷺ بهذا الحديث صغيرًا لم يبلغ الحُلُمَ، وهو حديث جليل يتضمَّن وصايا عظيمة وقواعد كليَّة من أهم أمور الدِّين، حَتَّى قال بعضُ العلماءِ: تدبَّرْتُ هذا الحديث، فأدهشني وكدت أطيش، حدَّثه به مع صغر سنه تربية له منذ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الصِّغر على أصول الدِّين العظيمة وقواعده المتينة.

وفي لفظ: «فَقَالَ لِي وَأَنَا رَدِيفٌ خَلْفَهُ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**»»[(١)]، وإردافه للصِّغار معه على الدَّابَّة جاء في أحاديث عديدة، وفيه تفريح لهم وإبهاج لقلوبهم وحسن تودُّدٍ إليهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ. قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ. قَالَ: فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ، رواه مسلم[(٢)].

وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نبيهًا يتوقَّد منذ صغره ذكاءً، وقد حظي بدعوة عظيمة دعا له بها النَّبيُّ ﷺ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَتْ لَهُ مَيْمُونَةُ: وَضَعَ لَكَ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ. فَقَالَ: «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، رواه أحمد[(٣)].

وكانت وصاياه ﷺ لهم مصحوبة بتودُّدٍ وحسن تَحَبُّبٍ.

عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ عَنِ الصُّنَابِحِيِّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**». فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ؛ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**». وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، رواه أبو داود[(٤)].

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (١٢٩٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٣٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وأخبر ﷺ أَنَّهُم أمانة جسيمة ومسؤوليَّة عظيمة؛ يُسأل عنها العبد يوم القيامة.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، متَّفق عليه(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إِنَّ اللهَ -سبحانه- يسألُ الوالدَ عن ولَدِهِ يومَ القيامةِ قَبْلَ أَنْ يسألَ الولدَ عَنْ والدِهِ؛ فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّ للأبِ على ابْنِهِ حَقًّا فَلِلابْنِ على أَبِيهِ حَقٌّ. فكما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:٨]، قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التَّحريم:٦]. قال عليُّ بن أبي طالب: علِّمُوهُمْ وأَدِّبُوهُمْ.

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النِّساء:٣٦].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُم**»(٢) فوصيَّة الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سُدًى؛ فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثرُ الأولاد إِنَّمَا جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٧).

فأضاعوهم صِغَارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كِبَارًا»[(١)].

وقد حثَّ ﷺ على الإحسان في تربيتهم وتأديبهم وتنشئتهم على المحافظة على الصَّلاة.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»، رواه أحمد[(٢)].

وحثَّ على المحافظة على سلامة فطرتهم الَّتِي فطرهم اللهُ عليها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآيَةَ [الرُّوم: ٣٠]، متَّفق عليه[(٣)].

وفي لفظٍ لمسلم: «**كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَأَبَوَاهُ بَعْدُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ؛ فَإِنْ كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَمُسْلِمٌ، كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ فِي حِضْنَيْهِ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**»[(٤)].

فاللهُ -سبحانه- فطرَ عبادَه على محبَّتِه وعبادَتِه وحدَه، فإذا تُرِكَتِ الفطرةُ بلا فسادٍ كان القلبُ عارفًا بالله محبًّا له وحدَه، لكِنَّ فسادَ الفطرةِ من أعظم أسبابه الأبوان يهوِّدانه أو ينصِّرانه، وهذه كُلُّهَا تغيير لفطرته

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (١/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٥٦)، واللَّفظ له، وأبو داود (٤٩٥)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٨).

الَّتِي فطرَه اللهُ عليها وحرفٌ لها.

ويتضمَّن الحديثُ توجيهَ الآباء أَنْ يَعْمَلُوا على حفظ هذه الفطرة وبقائها سليمةً تأسِّيًا بالرُّسل عليهم السَّلام، فإنَّ الرُّسلَ صلَّى الله عليهم وسلَّم بُعِثُوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها.

وكان يلقي السَّلام على الصِّبيان، ويربيهم على العناية به

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، رواه النَّسائيُّ(١).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُ الأَنْصَارَ فَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهُمْ، وَيَمْسَحُ بِرؤوسِهِمْ وَيَدْعُو لَهُمْ، رواه النَّسائيُّ(٢).

وعن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انْتَهَى إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ فِي الْغِلْمَانِ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَأَرْسَلَنِي بِرِسَالَةٍ، وَقَعَدَ فِي ظِلِّ جِدَارٍ -أَوْ قَالَ: إِلَى جِدَارٍ- حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْهِ، رواه أبو داود(٣).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بُنَيَّ؛ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**»، رواه التِّرمذيُّ(٤).

وعلَّمَهُمْ آدَابَ الطَّعام:

عن عُمَر بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٠٢)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١٠٠٨٩)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠٠٨٨)، واللَّفظ له، وابن حِبَّان في صحيحه (٤٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٠٣)، وقال الألبانيُّ: «صحيح دون القعود في الظِّلِّ».

(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٩٨)، وقال الألبانيُّ في صحيح الترغيب والترهيب: «حسن لغيره».

يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي: «**يَا غُلَامُ؛ سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، متَّفق عليه(١).

وكان ﷺ يشفق عليهم ويعاملهم برحمة وعطف، حتَّى قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، رواه مسلم(٢).

ولَمَّا تُوُفِّيَتْ بنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبقيت ابنتها أمامة بنت أبي العاص يتيمة الأُمِّ، كان يأخذها معه إلى المسجد في بعض الأحيان، ويصَلِّي بالنَّاس وهو حامل لها.

عَنْ عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرَقِيِّ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا قَتَادَةَ يَقُولُ: بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ جُلُوسٌ، خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَأُمُّهَا زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهِيَ صَبِيَّةٌ يَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهِيَ عَلَى عَاتِقِهِ، يَضَعُهَا إِذَا رَكَعَ، وَيُعِيدُهَا إِذَا قَامَ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهَا، رواه أبو داود(٣).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتَي الْعَشِيِّ -الظُّهْرِ أَوِ الْعَصْرِ-، وَهُوَ حَامِلُ الْحَسَنِ أَوْ الْحُسَيْنِ، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا.

قَالَ أَبِي: رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ فِي سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَيِ الصَّلَاةِ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا، حَتَّى

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٩١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»، رواه أحمد(١).

وعن أَبِي بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُنَا، إِذْ جَاءَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**صَدَقَ اللهُ** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التَّغابن:١٥]، **نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

وكان يهدي الصِّغار ويتحفهم ويلاطفهم بالخطاب المؤنس لهم، ويبدأ بهم بإطعامهم من باكورة الثَّمر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِأَوَّلِ الثَّمَرِ، فَيَقُولُ: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثِمَارِنَا، وَفِي مُدِّنَا، وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ**». ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ، رواه مسلم(٣).

وعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ - قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَنَهْ سَنَهْ**» قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَهِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ؛ فَزَبَرَنِي أَبِي. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعْهَا**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِفِي**»، رواه البخاريُّ(٤).

وفي رواية أخرى عند البخاريِّ: أَنَّهُ ﷺ هو الَّذي كساها إيَّاه، وألبسها

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٤٧)، واللَّفظ له، والنَّسائيُّ (١١٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٧٧٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه مسلم (١٣٧٣).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٠٧١).

إِيَّاه بيده، قَالَتْ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ، قَالَ: «**مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُوهَا هَذِهِ الْخَمِيصَةَ؟**» فَأُسْكِتَ الْقَوْمُ. قَالَ: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**»، فَأُتِيَ بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَأَلْبَسَنِيهَا بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي**» مَرَّتَيْنِ.

فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمِ الْخَمِيصَةِ، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَيَّ، وَيَقُولُ: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَا، وَيَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَا**». وَالسَّنَا بِلِسَانِ الْحَبَشِيَّةِ: الْحَسَنُ(١).

وفي رواية عند الحاكم: «وَقَدْ أَعْجَبَ الْجَارِيَةَ قَمِيصُهَا، وَقَدْ كَانَتْ فَهِمَتْ بَعْضَ كَلَامِ الْحَبَشَةِ، فَرَاطَنَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَلَامِ الْحَبَشَةِ «**سَنَهْ سَنَهْ**»(٢).

وهذا مِمَّا يبهج الصَّغير استملاح ثوبه، بأن يقال: ثوبك جميل، أو لونه حسن.

وكان ﷺ يقدِّم الطِّفل في حَقِّه اهتمامًا به، وتأكيدًا على إعطائه حَقَّه، وإشعارًا له بقَدْرِه.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟**». فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا، وَاللهِ لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا. قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي يَدِهِ، متَّفق عليه(٣).

وأمر بالعدل بين الأولاد، وهذا من حقوقهم أن يُسوَّى بينهم في العطاء والمنع.

عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٨٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٩٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٤٥١)، ومسلم (٢٠٣٠)، واللَّفظ له.

أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**». قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ، رواه البخاريُّ[١].

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَتِ امْرَأَةُ بَشِيرٍ: انْحَلِ ابْنِي غُلَامَكَ، وَأَشْهِدْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَةَ فُلَانٍ سَأَلَتْنِي أَنْ أَنْحَلَ ابْنَهَا غُلَامِي، وَقَالَتْ: أَشْهِدْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَقَالَ: «**أَلَهُ إِخْوَةٌ؟**». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**أَفَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُ؟**». قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَلَيْسَ يَصْلُحُ هَذَا. وَإِنِّي لَا أَشْهَدُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ**»، رواه مسلم[٢].

قال الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحِ: «**أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟**» قَالَ: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَرْجِعْهُ**»[٣]. وَفِي لَفْظ: قَالَ: «**فَرُدَّهُ**»[٤] وَفِي لَفْظ آخر قَالَ فِيهِ: «**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**» فَرَجَعَ أَبِي فِي تِلْكَ الصَّدَقَةِ[٥].

وَفِي لَفْظ لَهُمَا: «**فَلَا تُشْهِدْنِي إِذَنْ، فَإِنِّي لَا أَشْهَد عَلَى جَوْرٍ**»[٦] وَفِي آخَرَ: «**فَلَا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ**»[٧] وَفِي آخر: «**فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٢٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٦٢٣).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٢٣)، بلفظ: «فرجع أبي، فردَّ تلك الصَّدقة».
(٦) أخرجه مسلم (١٦٢٣).
(٧) أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

غَيْرِي»[(١)] وَفِي آخرَ: «**أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ بَنُوك فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟**» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «**فَلَا إِذَنْ**»[(٢)].

وَفِي لَفْظ آخر: «**أَفَكُلَّهُمْ أَعْطَيْت مِثْل مَا أَعْطَيْته؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَلَيْسَ يَصْلُحُ هَذَا وَإِنِّي لَا أَشْهَد إِلَّا عَلَى حَقٍّ**»[(٣)].

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي الصَّحِيح، وَغَالِبُهَا فِي صَحِيح مُسْلِم، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ مِنْهَا: «**لَا تُشْهِدْنِي عَلَى جَوْرٍ**»، وَقَوْله: «**لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ**»، وَالْأَمْر بِرَدِّهِ. وفي لفظ «**سَوِّ بَيْنَهُمْ**»[(٤)]، وَفِي لَفْظ: «**هَذَا جَوْرٌ، أَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي**»[(٥)].

وَهَذَا صَرِيح فِي أَنَّ قَوْله: «**أَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي**» لَيْسَ إِذْنًا، بَلْ هُوَ تَهْدِيد لِتَسْمِيَتِهِ إِيَّاهُ جَوْرًا.

وَهَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظٌ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ فِي التَّحْرِيم وَالْبُطْلَان مِنْ عَشَرَة أَوْجُه تُؤْخَذ مِنْ الْحَدِيث»[(٦)].

وفي هذا صيانة لهم عَنِ التَّحاسُد والعداوة والبغضاء.

وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يداعب الصِّغار ويُمَازِحُهُم، ويُدْخِل عليهم السُّرور، ويناديهم بالكنية وهم صِغار.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٣)، بلفظ: «أيسرُّك أن يكونوا إليك في البِرِّ سواءً؟» قال: بلى، قال: «فلا إذا».

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٣٥٩)، والنَّسائيُّ (٣٦٨٦)، وقال الألبانيُّ: «صحيح الإسناد».

(٥) أخرجه ابن حِبَّان (٥١٠٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٦) تهذيب السُّنن (٥/ ١٩١).

عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ -قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَ فَطِيمًا- قَالَ: فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَآهُ قَالَ: «**أَبَا عُمَيْرٍ؛ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**». قَالَ: فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ، متَّفق عليه[(١)].

وفي لفظ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ؛ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»، رواه ابن ماجه[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه جوازُ الممازحةِ وتكرير المزح، وأَنَّهُا إباحة سُنَّةٍ لا رخصة، وأَنَّ ممازحة الصَّبيِّ الَّذي لم يميز جائزة، وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التَّكبُّر والتَّرفُّع، والفرق بين كون الكبير في الطَّريق فيتواقر أو في البيت فيمزح»[(٣)].

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عَقَلْتُ مَجَّةً مَجَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجْهِي مِنْ دَلْوٍ مُعَلَّقَةٍ فِي دَارِنَا، رواه ابن حبان[(٤)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**»، قَالَ مَحْمُودٌ: قَالَ أَبُو أُسَامَةَ: يَعْنِي مَازَحَهُ، رواه التِّرمذيُّ[(٥)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يلاعب زينب بنت أم سلمة وهو يقول: «**يَا زُوَيـنِبُ! يَا زُوَيـنِبُ**»، مرارًا. رواه الضِّياء في المختارة[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) فتح الباري (١٠/ ٥٨٤).
(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٥٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٩٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٦) أخرجه الضِّياء في المختارة (١٧٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٥٠٢٥).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْلِعُ لِسَانَهُ لِلْحُسَيْنِ، فَيَرَى الصَّبِيُّ حُمْرَةَ لِسَانِهِ، فَيَهَشُّ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ: أَلَا أَرَى تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، وَاللهِ لَيَكُونُ لِيَ الِابْنُ قَدْ خَرَجَ وَجْهُهُ وَمَا قَبَّلْتُهُ قَطُّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**»، رواه ابن حِبَّان(١).

وكان ﷺ يعتنق الصَّغير ويضُمُّه ويقبِّله، ويمسح رأسه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنَ النَّهَارِ لَا يُكَلِّمُنِي وَلَا أُكَلِّمُهُ، حَتَّى جَاءَ سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ ثُمَّ انْصَرَفَ حَتَّى أَتَى خِبَاءَ فَاطِمَةَ، فَقَالَ: «**أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟**». يَعْنِي: حَسَنًا، فَظَنَنَّا أَنَّهُ إِنَّمَا تَحْبِسُهُ أُمُّهُ لأَنْ تُغَسِّلَهُ وَتُلْبِسَهُ سِخَابًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ يَسْعَى حَتَّى اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ**»، متَّفق عليه(٢).

وعَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَدُعِينَا إِلَى طَعَامٍ فَإِذَا حُسَيْنٌ يَلْعَبُ فِي الطَّرِيقِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَ الْقَوْمِ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَمُرُّ مَرَّةً هَا هُنَا وَمَرَّةً هَا هُنَا، يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ فِي ذَقْنِهِ وَالْأُخْرَى فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ اعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، سِبْطَانِ مِنَ الأَسْبَاطِ**»، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد(٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ

(١) أخرجه ابن حِبَّان في صحيحه (٥٥٩٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١)، واللَّفظ له.
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٦٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا -قَالَ:- وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي -قَالَ:- فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ، رواه مسلم[١].

وكان من هديه سماع حاجة الصغير، واعتبار كلامه، والسَّعي في حاجته.

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ، رواه البخاريُّ[٢].

ولفظه عند أحمد: «إِنْ كَانَتِ الْوَلِيدَةُ مِنْ وَلَائِدِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود مِنَ الأخذ باليد لازمه وهو الرِّفق والانقياد، وقَدِ اشتمل على أنواع مِنَ المبالغة في التَّواضُع؛ لذكره المرأة دون الرَّجل، والأمة دون الحرة. وحيث عمَّم بلفظ الإماء: أَيّ أمةٍ كانت، وبقوله: «حَيْثُ شَاءَتْ» أَيْ مِنَ الأمكنة. والتَّعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التَّصرُّف، حَتَّى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دالٌّ على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكِبْرِ ﷺ»[٤].

ومِمَّا يتأكَّد العناية به نحو الصِّغار الحرص على نهيهم عَنِ المحرمات، وإبعادهم عَنِ المنهيَّات، ومنعهم منها حفاظًا على نشأتهم وسلوكهم، ولا يقال: يسكت عن ذلك بحجة أَنَّهُم لم يبلغوا سِنَّ التَّكليف.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ مَا حُرِّمَ عَلَى الرَّجُلِ فِعْلُهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٧٢).
(٣) أخرجه أحمد (١٢٧٨٠).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٩٠).

حُرِّمَ عَلَيْهِ أَنْ يُمَكِّنْ مِنْهُ الصَّغِيرَ، فَإِنَّهُ يَأْمُرُه بِالصَّلاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِين، ويضربه عليها إِذَا بَلَغَ عَشْرًا، فَكَيْفَ يَحِلُّ له أَنْ يلبسَه المحرماتِ. وَقَدْ رَأَى عمرُ بنُ الخطَّاب عَلَى صَبيٍّ للزُّبَيْرِ ثَوْبًا مِنْ حَرير فَمَزَّقَهُ، وقالَ: «لَا تُلْبِسُوهُمُ الْحَرِيرَ»، وكذلك ابن مسعود مزَّق ثوبَ حرير كان عَلَى ابْنِهِ»(١).

والصِّغارِ إذا أُمِرُوا بالطَّاعات منذ الصِّغر اعتادوا عليها، وإذا نهوا عَنِ الحرام منذ الصِّغر اعتادوا تركه.

وفي وصيَّة لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٦-١٩].

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كِخْ كِخْ؛ ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» متَّفق عليه(٢).

وعَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ، قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: مَا تَذْكُرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَذْكُرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنِّي أَخَذْتُ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلْتُهَا فِي فِيَّ، قَالَ: فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلُعَابِهَا، فَجَعَلَهَا فِي التَّمْرِ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ التَّمْرَةِ لِهَذَا الصَّبِيِّ؟ قَالَ: «**إِنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ**» قَالَ: وَكَانَ يَقُولُ: «دَعْ

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٤٣).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩)، واللَّفظ له.

مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ»، رواه أحمد[١].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «**احْلِقُوهُ كُلَّهُ أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ**»، رواه أبو داود[٢].

ومن هديه ﷺ الرِّفق بالصِّغار والعطف عليهم، واحتمال كُلِّ ما يكون منهم

عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ أخت ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: رَأَيْتُ كَأَنَّ فِي بَيْتِي عُضْوًا مِنْ أَعْضَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: فَجَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**خَيْرًا رَأَيْتِ، تَلِدُ فَاطِمَةُ غُلَامًا، فَتَكْفُلِينَهُ بِلَبَنِ ابْنِكِ قُثَمٍ**».

قَالَتْ: فَوَلَدَتْ حَسَنًا، فَأُعْطِيتُهُ، فَأَرْضَعْتُهُ حَتَّى تَحَرَّكَ، أَوْ فَطَمْتُهُ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجْلَسْتُهُ فِي حِجْرِهِ، فَبَالَ، فَضَرَبْتُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ: «**ارْفُقِي بِابْنِي، رَحِمَكِ اللهُ -أَوْ: أَصْلَحَكِ اللهُ- أَوْجَعْتِ ابْنِي**» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اخْلَعْ إِزَارَكَ، وَالْبَسْ ثَوْبًا غَيْرَهُ حَتَّى أَغْسِلَهُ، قَالَ: «**إِنَّمَا يُغْسَلُ بَوْلُ الْجَارِيَةِ، وَيُنْضَحُ بَوْلُ الْغُلَامِ**»، رواه أحمد[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٧)، والطَّبرانيُّ في الكبير (٢٧١٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٤١٩٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢٦٨٧٥)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٣٩٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢١)

الرِّفْقُ بِالْحَيَوَانِ

إِنَّ مِنَ الخِلَالِ العظيمةِ والخصالِ الكريمةِ الَّتِي دَعَا إليها دينُنَا الحنيفُ وأَمَرَ بها الإسلامُ: الرِّفْقَ ببهيمةِ الأَنْعَامِ وبعمومِ الحيواناتِ، والرِّفْقُ شأنه في الحياة عظيم ولا يُوَفَّق له إِلَّا صاحبُ خُلقٍ كريم؛ وهو جمالٌ وحُسنٌ وبهاءٌ لصاحبه.

ومَنْ يتأمَّلْ سيرة نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجدْهَا عامرةً بالرِّفق والأخلاق الفاضلة؛ فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قدوة يُحتذى وإمامًا به يؤتسى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويجد عجبًا في جمال رفقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالحيوان والإحسان إليه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»، رواه التِّرمذيُّ (١).

قولُه ﷺ: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ**» أي مَنْ عَلَى الأرضِ، وهذا يشمل النَّاس، ويشمل -أيضًا- الدَّوابَّ والبهائم والطُّيور.

«**يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» أي: يرحمكم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى العلي على خلقه، المستوي على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا -أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا- فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ، وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»، رواه أحمد[١].

هذا رجلٌ رحيم عندما يذبح الشَّاة محتاجًا إلى لحمها يذبحها، وهو راحم لها، فينال بهذه الرَّحمة لها رحمة الله له يوم القيامة.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةً، رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد[٢].

أي: مَنْ رِحِمَ شاته أو بقرته أو ناقته الَّتِي أراد أن يذبحها بأن يذبحها وهو راحم لها رَحِمَهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ.

وتكون الرَّحمةُ للبهيمة في هذا الموطن بأمور عديدة جاءت السُّنَّة ببيانها:

أوَّلًا: أن يحسن سوقها إلى مكان الذَّبح برفق، وأن لا يجرَّها بإيذاء لها وعنف وشدَّة.

ثانيًا: أن يُحسن وضعها على الأرض، ولا يطرحها على الأرض بقسوة وشدَّة.

ثالثًا: أن تكون آلة الذَّبح حادَّة حَتَّى لا يؤذيها بالذَّبح.

رابعًا: أَنْ لا يحدَّ شفرته أمام الذَّبيحة لأَنَّ هذا يؤذيها.

خامسًا: أَنْ يعَجِّلَ إِمْرَارَها سريعًا لأَنَّهُ إذا لم يُعَجِّلْ طال تعذيبها، وراحتها بالتَّعجيل والتَّسهيل.

سادسًا: أَنْ لا يذبحَ أختَهَا أمامها فهذا كذلك يؤذيها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٩٢)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٣٨١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

سابعًا: أن يضجعَها على شقِّها الأيسر ويضع رجله على عُنقها برفق، ويترك قوائمها الأربعة بدون إمساك، لأَنَّ ذلك أبلغ في إراحتها.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»، رواه مسلم(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا أَضْجَعَ شَاةً يُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَهَا وَهُوَ يَحُدُّ شَفْرَتَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ؟ هَلَا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا**»، رواه الحاكم(٢).

فهذا رجلٌ مرَّ به النَّبِيُّ ﷺ وهو وَاضِع رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ، وَهُوَ يَحُدُّ شَفْرَتَهُ وَالشَّاة تَلْحَظُه بِبَصرِهَا، فَقَالَ: «**أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ؟!**» أي أَنَّ هذا ليس مِنَ الرَّحمة، كما أَنَّهُ ليس مِنَ الرَّحمة بالشَّاة أَنْ تذبحَ الشَّاةُ أمامَ صاحبتها، فقد كان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى أن تذبح الشَّاة عند الشَّاة، وكره أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُحَدَّ الشَّفرة والشَّاة تنظر إليها، وكذلك ليس مِنَ الرَّحمة أن تجرَّ بشدَّة إلى موطن الذَّبح.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى رَجُلًا يَجُرُّ شَاةً لِيَذْبَحَهَا، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، وَقَالَ: سُقْهَا لَا أُمَّ لَكَ إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا جَمِيلًا(٣)، رواه البيهقيُّ.

فلا بُدَّ أن يُرفَق بها ولا تُعامل بقسوة وشدَّة، فلا تُرمى رميًا على الأرض، بل تُضجَع برفق، وتكون السِّكين الَّتِي تُذبح بها حادَّة، لأَنَّ غير

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٥٦٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٩٣).

(٣) أخرجه البيهقيُّ في السُّننِ الكبرى (١٩١٤٣).

الحادَّة تؤذي الشَّاة عند الذَّبح، ولا يَحُدُّ شفرته أمام شاته، ولا يذبح الشَّاة أمام الأخرى لأَنَّ هذا يتنافى مع الرَّحمة، ومَنْ كان في قلبه رحمةٌ للشَّاة عند ذبحها فإِنَّهُ يقوم بهذه الأمور.

أَمَّا غليظُ القلب فإِنَّهُ لا يبالي؛ يرميها بعنف على الأرض، ويقسو عليها بقدمه، ويَحُدُّ الشَّفرةَ أمامها، ويذبحها أمام صاحباتها، إلى غير ذلك مِنَ التَّصرفات الَّتِي ليست مِنَ الرَّحمة في شيء.

فإذًا يمكن أن تذبح الشَّاة ويراق دمها والمرء رَاحمٌ لها، إذا حقَّق معاني الرَّحمة فعلًا المتقدِّم ذكرها، ليفوزَ برحمة الله له يومَ القيامةِ.

كما تقدَّم في قول ذلك السَّائل الرَّحيم بالشَّاة حين يذبحها «إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا» فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا، رَحِمَكَ اللهُ**» وأعادها مرَّتين.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا؟! فَقَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»، متَّفق عليه[(١)].

فهذا رجل اشتدَّت حاجته للماء، وحصل له ظمأ شديد، فوجد بئرًا فنزل فيها فشربَ، والنُّزُول في البئر فيه مشقَّة، إذ لم يجد دلوًا ينزح به الماء، فغامر بالنُّزول.

وفي بعض روايات الحديث: ما يفيد أَنَّ هذه البئرَ الَّتِي نزلها فيها

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤)، واللَّفظ له.

صعوبة، ولهذا احتاج أن يحملَ الخُفَّ بفمه عندما أراد أن يصعد للمرَّة الثَّانية لصعوبة هذه البئر، فنزل وخاطر -وذلك من شدَّة العطش- وشرب، ثُمَّ لمَّا خَرَجَ إذا كلبٌ يلهث؛ يأكل الثَّرى من شدَّة العطش، فقال الرَّجلُ: «لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَنِي»، فقام في قلبه رحمة لهذا الكلبِ، فنزل البئر مرَّة ثانية مخاطرًا بنفسه من أجل هذا الكلبِ رحمةً به فملأ خُفَّه ماءً، ثُمَّ أمسكها بِفِيهِ فسقى الكلبَ، فشكرَ الله له، فغفر له.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**»، متَّفق عليه(١).

وهذا الغفران راجع إلى ما قام في قلب العامل من قُوَّةِ الإخلاص والصِّدق مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وحسن التَّوجُّه إليه جَلَّ وَعَلَا، ولهذا يشترك كثير مِنَ النَّاس في صورة عمل واحدة، ويكون التَّباين بينهم شاسعا من حيثُ القبول والرد.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا قامَ بقلبِ البغيِّ الَّتِي رأَتْ ذلكَ الكلبَ، وقَدِ اشْتَدَّ به العطشُ يأكلُ الثَّرى، فقامَ بقلبِهَا ذلكَ الوقْتَ مَعَ عدمِ الآلةِ وعدمِ المعينِ وعدمِ مَنْ ترائيه بعملها، مَا حَمَلَهَا عَلَى أَنْ غرَّرَتْ بنفسها في نزول البئر وملء الماءَ في خُفِّهَا.

ولم تعبأ بتعرُّضِهَا للتَّلفِ وحملها خُفَّها بفيها وهو ملآن، حَتَّى أمكنها الرُّقِي مِنَ البئر، ثُمَّ تواضعها لهذا المخلوق الَّذِى جرت عادة النَّاس بضربه، فأمسكت له الخفَّ بيدها حَتَّى شرب من غير أن ترجو

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)، واللَّفظ له.

منه جزاءً ولا شكورًا، فأحرقت أنوار هذا القدر مِنَ التَّوحيد ما تقدَّم منها مِنَ البغاء، فغفر لها، فهكذا الأعمال والعُمَّال عند الله»[(١)].

ثُمَّ إنَّ الصَّحابةَ قالوا في الحديث الأوَّل: «يا رسول الله؛ وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟» ذكروا هذا السُّؤالَ بمناسبة تلك القِصَّة، والقِصَّة تتعلَّق بثواب سقي الماء للبهيمة، أي: هل كُلُّ بهيمة نحسن إليها ونرحمها نؤجر؟! فذكر لهم ﷺ هذه القاعدة الجامعة في الباب: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

والكبد الرَّطبة تشمل كبد الإنسان والحيوان، وفيه أن سقي الماء من أفضل الصَّدقات، لا سيَّما مع اشتداد الحاجة إليه، فعَنْ سَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**سَقْيُ الْمَاءِ**»، رواه أحمد[(٢)].

فصدقة الماء هي أعظم الصَّدقات، وتكون صدقة الماء بحفر الآبار، أو بمَدِّ أنابيب الماء، أو بوضع برادات الماء للنَّاس، وبتلمُّس المناطق المحتاجة للماء لإيصال الماء لها، إلى غير ذلك من طرق التَّصدق بالماء.

ومِنَ الرَّحمة للبهائم وضع الطَّعام لها، حَتَّى ولو مِنَ الزَّائد مِنَ الطَّعام، يذهب به إلى مكان فيه طيور أو دواب يضعه لها رحمةً بها وإكرامًا للنِّعمة.

وهذا العمل قد يظُنُّه النَّاس قليلًا، لكِنْ قد يقوم في قلب مَنْ قام به مِنَ الصِّدق مع الله ورحمة البهائم والإحسان للطَّعام ما يكون سببًا لغفران ذنوبه عند الله.

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٤٥٩)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٣٦٨٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «**قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

قال ابن بَطَّال رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذه الأحاديثِ الحَضُّ على استعمالِ الرَّحمةِ للخلقِ كُلِّهم كافرِهم ومؤمنِهم ولجميعِ البهائمِ والرِّفْقُ بها. وأَنَّ ذلك مِمَّا يغفرُ اللهُ به الذُّنوب ويكفِّرُ به الخطايا، فينبغى لِكُلِّ مؤمنٍ عاقلٍ أَنْ يرغبَ في الأخذ بحَظِّه مِنَ الرَّحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفى كُلِّ حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا.

وكُلُّ أحدٍ مسئولٌ عمَّا اسْتُرْعِيَه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النُّطق وتبيين ما بها مِنَ الضُّرِّ، وكذلك ينبغي أن يرحمَ كُلَّ بهيمة وإن كانت في غيرِ ملكه، أَلَا ترى أَنَّ الَّذِي سقى الكلبَ الَّذِى وجده بالفلاة لم يكن له ملكًا، فغفر الله له بتكلُّفِه النُّزول في البئر، وإخراجه الماء في خُفِّه وسقيه إِيَّاه، وكذلك كُلُّ ما في معنى السَّقي مِنَ الإطعام، أَلَا ترى قولَه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غرسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[(٢)].

مِمَّا يدخل في معنى سقي البهائم وإطعامها التَّخفيف عنها في أحمالها وتكليفها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسان إليها، ومن ذلك ترك التَّعدِّي في ضربها وأذاها وتسخيرها في اللَّيل وفى غير أوقات السُّخرة، وقد نهينا في العبيد أن نكلِّفهم الخدمةَ في اللَّيل فإِنَّ لهم اللَّيل ولِوَالِيهِم النَّهار، والدَّوابُّ وجميعُ البهائم داخلون في هذا المعنى»[(٣)] اهـ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ**

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٢).
(٣) شرح البخاريُّ (٩/ ٢٢٠).

فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»، متَّفق عليه[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ لَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»، رواه مسلم[(٢)].

فهذه امرأة قاسية غليظة الكبد تقصَّدت حبس هذه الهرَّة حَتَّى الموت، فلم يَكُنِ الأمرُ حصل من غير قصد وهي لا تشعر بذلك، بل تقصَّدت حبسها حَتَّى ماتت، فعذَّبها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها وأدخلها النَّار، وجاء ما يدُلُّ على إِنَّ من صور تعذيب هذه المرأة أَنَّ تلك الهرَّة تخدشها انتقامًا لنفسها وأخذًا بالثَّأر.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ، فَقَالَ: «**دَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ؛ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَإِذَا امْرَأَةٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ قَالَ مَا شَأْنُ هَذِهِ قَالُوا حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا**»، رواه البخاريُّ[(٣)].

وهل كانت هذه المرأة كافرة أو مؤمنة؟ قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّواب أَنَّهَا كانت مسلمةً، وأَنَّها دخلَتِ النَّار بسبب الهرَّة كما هو ظاهر الحديث، وهذه المعصيةُ ليست صغيرةً بل صارت بإصرارها كبيرةً، وليس في هذا الحديث أَنَّهَا تخلد في النَّار»[(٤)].

ولهذا؛ لا يُستهان بمثل هذه الأمور، بل يجب أن يخافَ الإنسانُ ويحذر، وأن يرحم بهيمة الأنعام ويرحم الطَّير، وأن يحذر من أن يتعامل

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٣).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٤).
(٤) شرح النَّوويِّ على مسلم (١٤/ ٢٤٠).

مع البهيمة أو مع الطَّير بخلاف الرَّحمة حَتَّى لا يعرِّض نفسَه للعقوبة.

وقولُه: «**لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**» فيه: أَنَّ الإنسان لَوِ استبقى عنده هرَّة لكونه محتاجًا إليها لتأكلَ الخشاش الَّذِي في البيت مثلًا، وأكرمها وأعطاها الماء وحاجتها مِنَ الطَّعام، ولم يؤذيها فلا شيءَ عليه.

وكذلك إذا احتاج طيرًا ليستمتعَ برؤيته وسماع صوته وأكرمَه وأعطاه حاجته مِنَ الطَّعام والماء، فلا شيءَ عليه، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ، قَالَ: أَحْسِبُهُ فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، متَّفق عليه[١].

فيجب أَنْ تُعَامَلَ بهيمةُ الأنعامِ والطُّيور بالرَّحمة والرِّفق والإحسان والبعد عن ظلمها وإيذائها، ولهذا جاء في الحديث النَّهي عن أَنْ يُتَّخذ الطَّير غَرَضًا.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا، رواه مسلم[٢].

وعن هِشَام بْن زَيْدِ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ جَدِّي أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ دَارَ الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوب، فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٨).

قَالَ: فَقَالَ أَنَسٌ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ، متَّفق عليه[(١)].

وعن سَعِيدِ بْنِ عَمْرٍو عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى رَابِطٌ دَجَاجَةً يَرْمِيهَا، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمَرَ حَتَّى حَلَّهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ، فَقَالَ: ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهِيمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ، رواه البخاريُّ[(٢)].

ومن ذلك التَّمثيل بالحيوان:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ، رواه البخاريُّ[(٣)].

أي: صيَّره مُثْلَةً بأن يقطع أطرافه أو بعضها وهو حَيٌّ، واللَّعْنُ دليلٌ على التَّحريم.

ومن ذلك التَّحريش بين البهائم بأن يتعمَّد تسليط بعضها على بعض.

عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُحَرِّشَ بَيْنَ الْبَهَائِمِ، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد[(٤)].

والتَّحريش بين البهائم: هو الإغراء بينها، وتهييج بعضها على بعض، وأن يُسلَّط بعضها على بعض، بأن ينطحَ الثَّورُ ثورًا آخر، أو أن يسلِّط ديكًا يؤذي آخر، وذلك لِمَا فيه مِنَ العبث؛ ولأَنَّ فيه إيذاءً وإيلامًا للحيوان، حيث إن أحدهما قد يؤذي الآخر؛ فيفقأ عينه أو يلحق به ضررًا، فلا يجوز أن يتسبَّب المرءُ في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٥١٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٥١٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٣٢)، وقال الألبانيُّ: «حسن لغيره موقوفًا وروي مرفوعًا».

ومِنَ المعلومِ أَنَّ الإنسانَ لو جاء بسكين وشرط بها رأس الحيوان أو فقأ عينه لم يجز له ذلك، وعدَّه النَّاس ذنبًا وجُرْمًا، فكذلك إذا تعمَّد تسليط بعضها على بعض لتفعل ذلك ببعضها.

ومن ذلك: أن يفجعها في ولدها أو فرخها. عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مَنْزِلًا فَأَخَذَ رَجُلٌ بَيْضَ حُمَّرَةٍ، فَجَاءَتْ تَرِفُّ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ فَجَعَ هَذِهِ بِبَيْضَتِهَا؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَخَذْتُ بَيْضَتَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْدُدْ، رَحْمَةً لَهَا**»[(١)].

فالطَّائر يتأذَّى وينزعج بذلك، فكم عانى هذا الطَّائر حَتَّى صارت له هذه البيضة، ومَنْ يتأمَّل في حياة الطُّيور يرى آية من آيات الله العظيمة، كيف أن هذا الطَّائر يجمع وقتًا طويلًا العُشَّ، ويرتِّبه ترتيبًا بديعًا جميلًا على قدر بيضه وحجمه؛ فالطَّير الصَّغير يضع عشًا صغيرًا، والطَّير الكبير يضع عشًا كبيرًا، ثُمَّ لمَّا يدنو وقت خروج البيض؛ يتناوب الذَّكر والأنثى على العُشِّ يُدفِّئانه، لتنزل البيضة في مكان دافئ ملائم لها، ثُمَّ بعد وضعها تبقى الأنثى ملازمةً البيضة تدفئها، ولا تذهب عنها إلَّا مضطرَّة لوقت يسير.

فتعمُّدُ إنسانٍ أَخْذَه مِنَ العُشِّ، وأحيانًا بعض النَّاس قد يأخذه على وجه العبث والتَّسلية، ثُمَّ يرميه في مكانٍ ما لينكسر، ورُبَّمَا يَعُدُّ هذا نوعًا مِنَ المتعة، فيفجع الطَّائر في بيضه، ويؤذيه بذلك ويعذِّبه ولا يرحمه، ومَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ.

قولُه: «فَجَاءَتْ تَرِفُّ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» أي: جاءت عند

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٣٥)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٣٨٢)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

رأس النَّبِيِّ ﷺ تُحرِّك جناحها تشتكي، فقال: «**أَيُّكُمْ فَجَعَ هَذِهِ بِبَيْضَتِهَا؟**» فقال رجلٌ: «يا رسولَ الله؛ أنا أخذْتُ بيضتها»، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْدُدْ، رحمةً لها**».

أي: أن تركه في مكانه وعدم أخذه، وعدم فجع الطَّير فيه يُعَدُّ من رحمته، وضِدُّ ذلك يتنافى مع الرَّحمة.

ومن ذلك أن لا يحمله ما لا يطيق أو يقصر في إطعامه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدِ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ -قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانُ: فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ- فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «**مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟**» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللهُ؟ إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»، رواه أحمد[(١)].

أي تجيعه فلا تطعمه، وتدئبه: أي تجعله يعمل كثيرًا، وفي رواية: «**فَإِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ الْعَمَلِ، وَقِلَّةَ الْعَلَفِ، فَأَحْسِنُوا إِلَيْهِ**»[(٢)]. فأرشد ﷺ صاحبه إلى الإحسان إلى هذه البهيمةِ، وأن يعطيَها نصيبَها وحاجتَها مِنَ الطَّعام، وأن لا يكلِّفَها ما لا تطيق.

وعَنْ سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٥)، وأبو داود (٢٥٤٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٦٥)، قال الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٢٧٠): صحيح لغيره.

ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»، رواه أبو داود(١).

ورواه أحمد بلفظ: فَمَرَّ بِبَعِيرٍ مُنَاخٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟ فَابْتُغِيَ فَلَمْ يُوجَدْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ ارْكَبُوهَا صِحَاحًا، وَكُلُوهَا سِمَانًا كَالْمُتَسَخِّطِ**»(٢).

الْمُعْجَمَةُ أي: الَّتِي لا تنطق ولا تعبِّر عن حاجتها، فأمر ﷺ بتقوى الله تعالى فيها، وذلك بأن يحسن إليها، ولا يساء إليها، وأن تعطى حاجتها مِنَ الطَّعام والشَّراب.

وقولُه: «**اركبوها صالحة**» أي: بعد أن تكونوا قد أحسنتم إليها في طعامها وشربها، فصارت قويةً صالحةً للرُّكوب.

ومِنَ الآثارِ المرويَّةِ عَنِ السَّلفِ في هذا الباب وفيها عظيم عنايتهم بهذا الأمر اتِّبَاعًا لهدي النَّبيِّ ﷺ.

عن الْمُسَيِّبِ بْنِ دَارِمٍ قال: رأيت عمر بن الخطَّاب ضرب جمَّالًا، وقال: لِمَ تَحْمِلُ عَلَى بَعِيرِكَ مَالَا يُطِيقُ؟! رواه ابن سعد في الطَّبقات(٣).

وعن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطَّاب: أَنَّ رجلًا حَدَّ شفرةً وأخذ شاةً ليذبحها، فضربه عمر بالدِّرَّةِ وقال: أتعذب الرُّوح؟! ألا فعلت هذا قبل أن تأخذَها؟! رواه البيهقيُّ(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٢٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٢٣).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطَّبقات (٧/ ٩١).
(٤) أخرجه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى (١٩٦١٦).

وعن محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى رجلًا يجرُّ شاةً ليذبحَها فضربه بالدِّرَّةِ و قال: سُقْهَا -لَا أُمَّ لَكَ- إلى الموت سَوْقًا جميلًا، رواه البيهقيُّ(١).

وعن وهب بن كيسان: أَنَّ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رأى راعي غنم في مكان قبيح، وقد رأى ابن عمر مكانًا أمثل منه، فقال ابن عمر: ويحك يا راعي حَوِّلَهَا، فإِنِّي سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**كُلُّ رَاعٍ مَسْؤُول عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، رواه أحمد(٢).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: كَانَ لأَبِي الدَّرْدَاءِ جَمَلٌ يُقَالُ لَهُ: دَمُّونٌ، فَكَانَ إِذَا أَعَارَهُ قَالَ: هُوَ يَحمِلُ كَذَا وَكَذَا، فَلَا تَحمِلُوا عَلَيْهِ إِلَّا كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ انْقِضَاءِ هَلَاكِهِ، قَالَ: دَمُّونُ، لَا تُخَاصِمْنِي عِنْدَ رَبِّي، فَإِنِّي كُنْتُ لَا أُحَمِّلُكَ إِلَّا طَاقَتَكَ، رواه ابن المبارك في الزُّهد(٣).

وعن أبي عثمان الثَّقفيِّ قال: كان لعمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ غلامٌ يعمل على بغلٍ له يأتيه بدرهم كُلَّ يوم، فجاء يومًا بدرهم ونصف، فقال: ما بدا لك؟ قال: نفقت السُّوق، قال: لا ولكنَّك أتعبت البغل! أجِمَّه ثلاثة أيَّام، رواه أبو نعيم في الحلية(٤).

فهذه بعض الآثار عَنِ السَّلف الصَّالح في هذا الباب، و هي تدلُّ على مبلغ عنايتهم بتوجيهات النَّبِيِّ ﷺ في الرِّفق بالحيوان، و هي قُلٌّ من

(١) أخرجه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى (١٩١٤٣).
(٢) أخرجه أحمد (٥٨٦٩)، واللَّفظ له، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٤١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزُّهد (١١٧٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٦٠).

جُلٍّ، وفي ذلك بيان واضح أَنَّ الإسلام هو الَّذِى وضع للنَّاس مبدأ «الرِّفق بالحيوان»(١).

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**»(٢).

وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الْمَاءِ**»، رواهما التِّرمذيُّ(٣).

قال الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «قيل سبب هذا الاستغفار: أَنَّ العالِمَ يُعلِّمُ الخلقَ مراعاةَ هذه الحيواناتِ، ويعرِّفهم ما يَحِلُّ منها وما يحرم، ويعرِّفهم كيفيَّةَ تناولِها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها، وكيفيَّة ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقِها بالحيوان.

والعالمُ أشفقُ النَّاس على الحيوان، وأقومُهم ببيان ما خُلِقَ له، وبالجملة فالرَّحمة والإحسان الَّتِي خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظَّهما منه إِنَّمَا يعرف بالعلم، فالعالمُ معرِّف لذلك فاستحقَّ أن تستغفر له البهائم، والله أعلم»(٤).

---

(١) انظر السلسلة الصحيحة للألباني (١/ ٢٩).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٨٥)، واللَّفظ له، والطَّبرانيُّ في الكبير (٧٩١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٨٢)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٢٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٦٥).

(٢٢)
آدَابُ الطَّرِيقِ

إنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا العظيمةِ في هَذِهِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ والدِّينِ الحَنيفِ المباركِ: أنْ جعلَ هَذَا الدِّينَ محقِّقًا لمصالحِ العبادِ حَافِظًا لِحُقُوقِهِم، فالمسلمُ في كَنَفِ هَذَا الدِّينِ يَسْعَد بحياتِه ويَهْنَأُ بعيشِهِ إِذَا حقَّقَ هو، وحقَّقَ إِخْوَانُه المسلمون تعاليمَ الإسلامِ وتوجِيهَاتِه المُباركةِ، فدينُنا دِينُ حِفْظِ الحقوقِ ومراعاةِ المصالحِ، مِمَّا يُحَقِّقُ للعبادِ في ظلِّ توجيهاته الرَّاحةَ والسَّعادةَ.

وهذه وقفة مع حقٍّ عظيمٍ وأدبٍ كريمٍ، هو مَنْ جمالِ هذا الدِّين وحسن هداياته، أَلَا وهو حَقُّ الطَّريق وآدَابُهُ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ**: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**». قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «**غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ**»، متَّفق عليه(١).

قولُه: «**أَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**» هذه قاعدةٌ متينة وأَصْل عظيم في هذا الباب، لو حَقَّق رعايتَه كلُّ مَنْ سار في الطَّريق لصلُحت أحوال

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٦٥، ٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١، ٢١٦١)، واللَّفظ له.

المسلمين، ولسَلِمُوا من كثيرٍ مِنَ الأخطار والمضارِّ.

وكان مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كُلِّ مَرَّةٍ يَخْرُجُ فيها من بيته يقول: «**اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(١)، وكُلُّ ذلك تأكيدٌ لهذا المقام وتحقيقٌ لهذا المرام.

قالوا: «وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ» قال: «**غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ**»، وزاد في حديث آخر: «**وَحُسْنُ الْكَلَامِ**»(٢)، وزاد في ثالث: «**وَإِرْشَادُ السَّبِيلِ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ إِذَا حَمِدَ**»(٣)، وفي رابع: «**وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ، وَتَهْدُوا الضَّالَّ**»(٤)، وفي خامس: «**اهْدُوا السَّبِيلَ وَأَعِينُوا الْمَظْلُومَ**»(٥)، وفي سادس: «**وَأَعِينُوا عَلَى الْحُمُولَةِ**»(٦)، وفي سابع: «**ذِكْرُ اللهِ كَثِيرًا**»(٧).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٧) من حديث أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه مسلم (٢١٦١).
(٣) أخرجه ابن حِبَّان (٥٩٦)، والحاكم في المستدرك (٧٦٨٨). قال الألبانيُّ في التَّعليقات الحسان: حسن صحيح.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٨١٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٧٢٦)، وصحَّح متنه الألبانيُّ.
(٦) أخرجه البزَّار في مسنده (٥٢٣٢)، وقال:... ولاَ نَعْلَمُ يروى في حديث: «وأعينوا على الحمولة» إلَّا في هذا الحديث. وبنحوه قال ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزَّار (٢/ ٤١٥). وقال الهيثمي في مجمع الزَّوائد (٨/ ٦٢): «وفيه محمد بن أبي ليلى وهو ثقة سيِّئ الحفظ».
(٧) أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٥٥٩٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومجموع ما في هذه الأحاديث أربعةَ عشر أدبًا، وقد نظمتها في ثلاثة أبيات، وهي:

جَمَعْتُ آدَابَ مَنْ رَامَ الْجُلُوسَ عَلَى ... الطَّرِيقِ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ إِنْسَانَا
افْشِ السَّلَامَ وَأَحْسِنْ فِي الكَلَامِ وَشَمِّـ ... ـتْ عَاطِسًا وَسَلَامًا رُدَّ إِحْسَانَا
فِي الْحَمْلِ عَاوِنْ وَمَظْلُومًا أَعِنْ وَأَغِثْ ... لَهْفَانَ اهْدِ سَبِيلًا وَاهْدِ حَيْرَانَا
بِالْعُرْفِ مُرْ وَانْهَ عَنْ نُكْرٍ وَكُفَّ أَذًى ... وَغُضَّ طَرْفًا وَأَكْثِرْ ذِكْرَ مَوْلَانَا

الأوَّل: غضُّ البصر:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾ [النُّور: ٣٠-٣١] الآية.

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ؛ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي، رواه مسلم[(٢)].

وعن بُرَيْدَةَ الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ**»، رواه أبو داود[(٣)].

وغضُّ البصر به بُدِئ، وفيه منافع عديدة ذكرها الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]:

أحدها: أَنَّهُ امتثال لأمر الله الَّذِي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

---

(١) الفتح (١١/ ١١).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٥٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والتِّرمذيُّ (٢٧٧٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) الدَّاء والدَّواء (ص: ١٧٨).

الثَّانية: أَنَّهُ يمنع من وصول أثر السَّهم المسموم -الَّذِي لَعَلَّ فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثَّالثة: أَنَّهُ يورث القلبَ أنسًا بالله وجمعيَّة عليه، فإِنَّ إطلاق البصر يُفَرِّق القلب ويشتِّتُه، ويبعده عَنِ اللهِ.

الرَّابعة: أَنَّهُ يقوِّي القلب ويفرحه، كما أَنَّ إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أَنَّهُ يكسب القلبَ نورًا، كما أَنَّ إطلاقه يلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النُّور عَقِيب الأمر بغض البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور:٣٠]. ثُمَّ قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النُّور:٣٥].

السَّادسة: أَنَّهُ يورث فراسةً صادقةً يُمَيَّز بها بين الحَقِّ والباطل، والصَّادق والكاذب.

السَّابعة: أَنَّهُ يورث القلبَ ثباتًا وشجاعةً وقُوَّةً.

الثَّامنة: أَنَّهُ يَسُدُّ على الشَّيطان مدخله إلى القلبِ، فإِنَّهُ يدخل مع النَّظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي.

التَّاسعة: أَنَّهُ يفَرِّغُ القلبَ للفكرةِ في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره ويقع في اتِّباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر رَبِّهِ.

العاشرة: أَنَّ بين العينِ والقلبِ منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عَنِ الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب؛ فسد النَّظر، وإذا فسد النَّظر؛ فسد القلب، وكذلك في جانب الصَّلاح، فإذا خربت العين وفسدت؛ خرب القلب وفسد.

الثَّاني: كفُّ الأذى:

أَيْ كَفُّ الأذى القوليِّ والفعليِّ؛ أَمَّا الأذى القوليُّ: فلا يتكلَّمُوا على المارَّة غيبة ونميمة وسُخرية، وأَمَّا الأذى الفعليُّ فلا يضايقوهم في الطَّريق بحيث يملؤون الطَّريق فيؤذون المارَّة، بأن لا يتيسر لهم مرور إِلَّا بمشقَّة.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»، متَّفق عليه(١).

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**»، رواه أحمد(٢).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**». قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**». قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «**تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**»، رواه مسلم(٣).

الثَّالث: ردُّ السَّلام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسٌ تَجِبُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٠، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن حِبَّان (٢٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤)، واللَّفظ له.

لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رَدُّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ»، رواه مسلم(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»، متَّفق عليه(٢).

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ**»، متَّفق عليه(٣).

وَقَالَ عَمَّارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ؛ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، رواه البخاريُّ تعليقًا(٤).

الرَّابع، والخامس: الأمر بالمعروف، والنَّهي عَنِ المنكر:

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

عن أَبي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»، رواه مسلم(٥).

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٢٣٢، ٦٢٣٣)، ومسلم (٢١٦٠).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب: إفشاء السَّلام مِنَ الإسلام (قبل رقم: ٢٨).

(٥) أخرجه مسلم (٤٩).

بِيَدِهِ؛ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»، رواه التِّرمذيُّ(١).

السَّادس: حسن الكلام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، متَّفق عليه(٢).

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»، رواه البخاريُّ(٣).

السَّابع: إرشاد السبيل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ سُلَامَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ؛ يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»، رواه البخاريُّ(٤).

وعن البَرَاء بْن عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَنَحَ مَنِيحَةَ لَبَنٍ أَوْ وَرِقٍ، أَوْ هَدَى زُقَاقًا؛ كَانَ لَهُ مِثْلَ عِتْقِ رَقَبَةٍ»(٥).

الثَّامن: تشميت العاطس:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا عَطَسَ

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٦٩)، وأحمد (٢٣٣٠١)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٨، ٦١٣٦، ٦١٣٨، ٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٤٧٤).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٨٩١)، واللَّفظ له، ومسلم (١٠٠٩).
(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (١٩٥٧)، واللَّفظ له، وأحمد (١٨٧٠٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللهَ؛ فَشَمِّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ فَلَا تُشَمِّتُوهُ»، رواه مسلم[(١)].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ؛ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ، فَقَالَ الَّذِى لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فُلَانٌ فَشَمَّتَّهُ، وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تُشَمِّتْنِى. قَالَ: «**إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللهَ**»، رواه مسلم[(٢)].

التَّاسع: إغاثة الملهوف:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**». قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**». قَالَ: قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**». قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**»، رواه مسلم[(٣)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٤)].

وقولُه: «**الْمَلْهُوفَ**» أَيِ: المظلومَ، أَوِ المحزونَ المكروب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٢٢١، ٦٢٢٥)، ومسلم (٢٩٩١)، واللَّفظ له.
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٤٤٥، ٦٠٢٢)، ومسلم (١٠٠٨)، واللَّفظ له.
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والتِّرمذيُّ (١٩٣٠)، واللَّفظ له.

العاشر: هداية الضَّالّ:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ لَكَ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالَةِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»، رواه ابن حِبَّان[(١)].

الحادي عشر: هداية السَّبيل:

أي: إرشادُ المارِّ إذا احتاج إلى معرفة الطَّريق، ودلالتُه إلى الوجهة الصَّحيحة، فهذا من حَقِّ الطَّريق. وإرشادُ السَّبيل أَعَمُّ من هداية الضَّالِّ.

الثَّاني عشر: إعانة المظلوم:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؛ كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»، رواه البخاريُّ[(٢)].

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: اقْتَتَلَ غُلَامَانِ؛ غُلَامٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَغُلَامٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَنَادَى الْمُهَاجِرُ أَوِ الْمُهَاجِرُونَ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. وَنَادَى الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا، دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟!**». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا أَنَّ غُلَامَيْنِ اقْتَتَلَا، فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، قَالَ: «**فَلَا بَأْسَ، وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا؛ إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ، وَإِنْ كَانَ**

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٦٥٩)، وابن حِبَّان (٥٢٩) واللَّفظ له، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩٥٢).

مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ»، رواه مسلم[(١)].

الثَّالث عشر: الإعانة على الحمولة:

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قال: «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»، متَّفق عليه[(٢)].

أي يكون عنده متاع، ويريد أن يرفعه على دابته فيعان على ذلك، ومثل الدَّابَّة الآنَ السَّيَّارة، وكذلك إعانة كبار السِّنِّ على ركوب عرباتهم المتحرِّكة.

الرَّابع عشر: ذكر الله:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ، رواه مسلم[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةً، وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةً**»، رواه أبو داود[(٤)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ؛ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مَشَى طَرِيقًا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) واللَّفظ له.

(٣) أخرجه البخاريُّ (قبل ٦٣٤ معلَّقًا، ومسلم (٣٧٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٦)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٣٨٠)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.

فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً، وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً»، رواه أحمد[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً**»، رواه أبو داود[(٢)].

ومن حقوق الطَّريق: إماطة الأذى عَنِ الطَّريق، وقد عدَّه النَّبيُّ ﷺ من شعب الإيمان.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»، رواه مسلم[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ؛ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»، رواه مسلم[(٤)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ؛ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»، متَّفق عليه[(٥)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**»،

---

(١) أخرجه أحمد (٩٥٨٣)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٣٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥٥)، والبيهقيُّ في الآداب (٢٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥) واللَّفظ له.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢، ٢٤٧٢)، ومسلم (١٩١٤) واللَّفظ له.
(٥) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢).

رواه مسلم(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ**»، رواه مسلم(٢).

وعن أَبِي بَرْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَنْتَفِعُ بِهِ، قَالَ: «**اعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ**»، رواه مسلم(٣).

قال العينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلمْ أَنَّ الشَّخصَ يؤجرُ عَلَى إماطةِ الأذَى، وكُلِّ ما يؤذي النَّاس في الطَّريق. وفيه دلالةٌ عَلَى أَنَّ طرحَ الشَّوكِ في الطَّريق والحجارةِ والكناسةِ والمياهِ المفسدةِ للطُّرُق وكُلِّ ما يؤذي النَّاس؛ يخشى العقوبة عليه في الدُّنْيَا والآخرة.

ولا شكَّ أَنَّ نزعَ الأذَى عَنِ الطَّريق مِنْ أعمالِ البِرِّ، وأَنَّ أعمالَ البِرِّ تكفِّر السَّيِّئاتِ وتوجبُ الغفرانَ، ولا ينبغي للعاقلِ أَنْ يَحْقِرَ شيئًا مِنْ أعمالِ البِرِّ؛ أَمَّا ما كان من شجر فقطعه وألقاه، وأَمَّا ما كان موضوعًا فأماطه، والأصلُ في هذا كُلِّه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة:٧]»(٤).

ومن حَقِّ الطَّريق عدمُ وضع الأذى فيه، أو قضاء الحاجة فيه؛ لأَنَّهُ حَقٌّ عامٌّ للنَّاس، فلا يَحِلُّ لأحد أن يفسده عليهم.

عن حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال: «**مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٤).
(٢) أخرجه مسلم (٥٥٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٨).
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاريِّ (١٣/ ٢٣).

فِي طُرُقِهِم وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُم»، رواه الطبرانيُّ[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**»، قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»، رواه مسلم[(٢)].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ؛ الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ**»، رواه أبو داود[(٣)].

و«**الـمَـوَارِد**»: يدخل فيها كُلُّ مكان هو مَحَلُّ جلوس النَّاس أو تجمعهم أو سبيلهم؛ تفاديًا لإيذائهم.

ومن حَقِّ الطَّريق: التَّقيُّد بأنظمة المرور في الوقوف والسَّير والإشارات الضَّوئيَّة في تقاطع الطُّرُق، واللافتات الَّتِي وضعت للتَّهدئةِ أو تخفيفِ السُّرعة واستعمال المنبِّه، وعموم لوائح المرور الَّتِي وضعت لتنظيم السَّير وتلافي الحوادث.

قال الشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يجوزُ لأيِّ مسلمٍ أَنْ يُخَالفَ أنظمةَ الدَّولةِ في شأنِ المرور؛ لِمَا في ذلك مِنَ الخطرِ العظيمِ عليه وعلى غَيْرِهِ. والدَّولةُ -وَفَّقَهَا اللهُ- إِنَّمَا وَضَعَت ذلك حِرْصًا مِنْهَا على مصلحةِ الجميعِ، ورفع الضَّرر عَنِ المسلمين، فلا يجوزُ لأَيِّ أَحَدٍ أَنْ يخالفَ ذلك، وللمسؤولين عقوبة مَنْ فعل ذلك، بِمَا يردعه وأمثاله»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (٣٠٥٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٤) فتاوى إسلامية (٤/ ٥٣٦) جمع وترتيب: محمد بن عبد العزيز المسند، النَّاشر: دار الوطن للنَّشر، الرِّياض.

وفي (فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء)، قال مشايخنا الكرام: «الأنظمة المروريَّة وضعت للمصلحةِ العامَّةِ للمسلمين، والواجبُ على عمومِ السَّائقين أَنْ يُرَاعوا تلك الأنظمةَ؛ لأَنَّ في مراعاتها مصلحةَ للنَّاس، وفي مخالفتها يحصل كثير مِنَ الحوادث والأذى للآخرين، ويترتَّبُ عليها مفاسدُ أخرى»[١].

❁ ❁ ❁

(١) الفتوى رقم (١٥٧٥٢).

(٢٣)

أَدَبُ الْجَلِيسِ

مِنْ جَمَالِ هذه الشَّريعة، وكمالِ آدابها: هدايتُها المؤمنَ إلى أدب الجليس، واختيار المجالس، وقواعد الصُّحبة، والتَّعامل مع الأصحاب. وهي آداب تحقِّقُ للعبدِ العواقبَ الحميدةَ والثِّمارَ الطَّيِّبةَ في الدُّنْيَا والآخرة.

ومن أعظم هذه الهدايات: التَّفقُّه في الصَّاحب من حيثُ الاختيارُ والتَّوقِّي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»، رواه أحمد(١).

فقد أفادَ هذا الحديثُ أَنَّ الصَّاحبَ مُؤَثِّرٌ في جليسه ولا بُدَّ؛ فإن كان ذا خير أثَّرَ فيه خيرًا، وإن كان ذا شَرٍّ أثَّرَ فيه شرًّا، ولهٰذا وجبَ على المسلمِ أن يتفقَّه في هٰذا البابِ، وأَنْ يتخيَّرَ مِنَ الأصحاب مَنْ يكونُ في صحبتهم خيرٌ له، ولهٰذا قال ﷺ: «**فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلُ**»: أَيْ أَنَّهُ لا يليق بالمسلم أن يصاحبَ كُلَّ أَحَدٍ، بل عليه أَنْ يتخيَّرَ مِنَ الإخوانِ والأصحابِ مَنْ يكونون عونًا له على فعل الخير، والبعد عَنِ الشَّرِّ والانكفاف عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤١٧)، واللَّفظ له، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

قال ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا معناه -والله أعلم-: أنَّ المَرْءَ يعتادُ مَا يَراه مِنْ أفعالِ مَنْ صحِبَه، وَالدِّين العادةُ، فَلِهَذَا أُمِرَ أَلَّا يصحبَ إِلَّا مَنْ يَرَى منه مَا يَحِلُّ وَيَجْمُل، فَإِنَّ الخيرَ عادةٌ.

وفي معنى هذا الحديث: قولُ عَدِيِّ بن زيد:

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالـمُقَارِنِ مُقْتَدِي

وقولُ أبي العتاهية:

مَـنْ ذَا الَّـذِي يَـخْفَى عَـلَيْكَ إِذَا نَـظَـرتَ إِلَــى خَـدِيـنِـهِ

وهذا كثير جدًّا، والمعنى في ذلك: أَلَّا يخالطَ الإنسانُ مَنْ يحمله على غيرِ ما يحمد مِنَ الأفعالِ والمذاهبِ، وأَمَّا مَنْ يُؤْمَنُ منه ذلك؛ فلا حرج في صحبته»[١].

وقد ضربَ النَّبيُّ ﷺ في هٰـذا الباب مثلًا بديعًا يوضِّح حالَ الأصحابِ من حيثُ التَّأثير في الخير أَوِ الشَّرِّ.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»، متَّفق عليه[٢].

وهذا المثلُ البديعُ يوضِّحُ أَنَّ الصَّاحبَ مؤثِّرٌ في صاحبه ولا بُدَّ، وأَنَّ المسلمَ إذا صحب الأخيار؛ فإِنَّهُ لا يسمع منهم إِلَّا خيرًا، ولا يدلُّونه إِلَّا لخير، ولا ينهونه إِلَّا عن شرٍّ وفساد.

إذا صحبتَ بَارًّا بوالديه أعانك على البِرِّ، وإذا صحبت وَصُولًا

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص: ١٥٩، ١٦٠).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، واللَّفظ له.

لرَحِمِه أعانك على الصِّلة، وإذا صحبت رجلًا يحبُّ معاونة النَّاس ومساعدة المحتاجين أعانك على ذلك، وإذا صحبتَ طالبَ علم رغَّبك في العلم وطلبه، وإذا صحبت صاحبَ زهدٍ وعبادة أعانك على الزُّهد والعبادة والورع.

والرَّفيقُ الصَّالحُ لا يكون منه إلَّا دعواتٌ صالحة في غيبك وشهادتك، وكفٌّ عن غيبتك، وعن لمزك وهمزك والإساءة إليك، وذَبٌّ عنك، إلى غير ذلك مِنَ الفضائلِ والخيرات الَّتِي يكتسبها المسلم بمصاحبة الأخيار.

أَمَّا الأشرار: فإنَّ صحبتهم داءٌ عُضال؛ فإنَّهم إمَّا أن يجرُّوا المرء إلى أفعالٍ محرَّمة، أو أنَّه لا يسمع منهم إلَّا شرًّا، ومآله في ملازمة صحبتهم إلى ندم، قال الله تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وهي مهما قويت وتوثقت؛ مآلها إلى التَّصرُّم ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرف:٦٧]؛ فما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَدْخَلُهُ وَمَمْشَاهُ وَإِلْفُهُ»، ثُمَّ قال أبو قِلابة، بعد أن روى هذا الأثر عن أبي الدَّرداء: «أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِينَهُ ... فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي»[١]

---

(١) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (١٢٧٧) ومن طريقه الخطابي في العزلة (ص ٥٩).

وقال الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا البيت: «لَمْ أَرَ بَيْتًا أَشْبَهَ بِالسُّنَّةِ مِنْهُ»(١).

وجاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ قالَ: «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يُخَادِنُ إِلَّا مَنْ يُعْجِبُهُ»(٢).

وعَنِ الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ: «كَانُوا لَا يَسْأَلُونَ عَنِ الرَّجُلِ بَعْدَ ثَلاثٍ: مَمْشَاهُ وَمَدْخَلِهِ وَإِلْفِهِ مِنَ النَّاسِ»(٣).

وقال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي فَسَادِ رَجُلٍ وَصَلَاحِهِ مِنْ صَاحِبٍ»(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يُصَاحِبُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَهُ وَشَكْلَهُ، فَصَاحِبُوا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَعَهُمْ أَوْ مِثْلَهُمْ»(٥).

وقال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْعُدَ مَعَ كُلِّ مَنْ شَاءَ...»(٦). والآثار في هذا كثيرةٌ.

هذا، وقد جاءت الشَّريعة بجملة عظيمة مِنَ الآداب المتعلِّقة بالمجلس، والجليس ينبغي أن يتحلَّى بها الجلساء لتزين مجالسهم وتطيب.

فمن هذه الآداب: السَّلام عند الدُّخول والخروج.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ**

---

(١) أخرجه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٣٧٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنْيَا في الإخوان (٣٨)، وابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٣٧٦)، واللَّفظ له، والطَّبرانيُّ في الكبير (٨٩١٩).

(٣) أخرجه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٤١٩).

(٤) أخرجه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٥٠٤).

(٥) أخرجه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٥١١).

(٦) أخرجه ابن بطَّة في الإبانة الكبرى (٥١٦).

إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ»، رواه أبو داود(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ بَدَأَ بِالسُّؤَالِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تُجِيبُوهُ**»، رواه الطَّبرانيُّ(٢).

ومن أدب المجلس: إذا دخل المرء أَلَّا يقيمَ أحدًا من مجلسه ليجلس فيه.

لكن يتوسَّع الجالسون للدَّاخل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: ١١].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ**»، متفق عليه(٣). بل يتفسَّحُوا ويتوسَّعُوا.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ أَحَدُنَا حَيْثُ انْتَهَى**»، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد(٤).

أي لا يتخطَّى رقاب الجالسين ليتقدَّم إلى صدر المجلس؛ بل يجلس حيث انتهى به المجلس، لِمَا في التَّخطِّي مِنَ الإيذاء للنَّاس، ولا يَحِلُّ للمؤمن أن يؤذي إخوانه.

عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ قَالَ: كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ بُسْرٍ: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٠٨) واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٢٧٠٦)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.
(٢) أخرجه الخرائطيُّ في المكارم (٨٨٠)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٤٢٩).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧).
(٤) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٤١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ**»، رواه أبو داود[١].

فقولُه: «**اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ**»: يدُلُّ على النَّهي عَنِ التَّخطِّي، وذلك في كُلِّ وقت وحين، ولكنَّه في وقت خطبة الجمعة يكون أشدَّ؛ لِمَا فيه مِنَ الأذى والإشغال عن سماع الخطبة.

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعِنْدَهُ الْقَوْمُ جُلُوسٌ، يَتَخطَّى إِلَيهِ، فَمَنَعُوهُ، فَقَالَ: «اتْرُكُوا الرَّجُلَ»، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد[٢].

قولُه «فَمَنَعُوهُ»: أي منعه النَّاس مِنَ التَّخطِّي، وهذا يفيد: أَنَّهُ مِنَ المستقرِّ عندهم أَنَّ التَّخطِّي أمر مستنكر، يتنافى مع آداب المجالس؛ فمنعوه من ذلك.

فَقَالَ: «اتْرُكُوا الرَّجُلَ»: لَعَلَّهُ دعاهم لتركه مراعاةً لمصلحة خاصَّة تتعلَّق بهذا الرَّجل، ثُمَّ روى له هذا الحديث: «**الْمُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» لأَنَّه يُعَدُّ قاعدةً جامعةً في هذا الباب.

وعَنِ الحسن قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ مِمَّا يُصَفِّي لَكَ وُدَّ أَخِيكَ ثَلَاثًا: تَبْدَأُهُ بِالسَّلَامِ إِذَا لَقِيتَهُ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَتُوَسِّعُ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، رواه ابن أبي الدُّنْيَا في مكارم الأخلاق[٣].

---

(١) أخرجه أبوداود (١١١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١١٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه ابن أبي الدُّنْيَا في مكارم الأخلاق (٣١٣).

ومن آداب المجلس: أن لا يُفرّق بين اثنين في المجلس.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا**»، رواه أبو داود[١].

أي: إذا جاء إلى مجلس فلا يفرِّق بين اثنين إِلَّا بإذنهما، وغالبًا جلوس شخصين إلى جنب بعضهما يدُلُّ على أَنَّ ثمةَ حاجةً بينهما، أو أمرًا اقتضى أن يتقاربا في المجلس، ففي جلوسه بينهما وتفريقِه بينهما إيذاءٌ لهما، وتعطيلٌ لمصلحتهما، فجاءت الشَّريعة بحفظ ذلك للجلساء.

وهذا يحقق صفاء النُّفُوس، وطيب القلوب، وأن لا يوجد بين الجلساء شيء يُدخل الإحن أَوِ التَّباغُض أَوِ التَّنافُر أَوِ التَّعادِي، وكما أَنَّ كُلَّ جالسيْن لا يرضيان أن يأتي مَنْ يُفَرِّقُ بينهما ويعطِّلُهُمَا عن مصلحتهما، فكذلك مَنْ قدِم على المجلس لا يرضى مثل ذلك لنفسه؛ فما الَّذِي يجعله إذن يفرِّق بين الاثنين ناظرًا لمصلحته هو غير مبالٍ بمصلحتهما!!.

هذا إذا كانا الجالسان متجاورين، أَمَّا إذا كان بينهما ما يكفي جلوس شخص فهذا لم يفرِّق بينهما؛ لأَنَّهُمَا قد تركا بينهما فرجة ومتَّسعًا لمَنْ أراد أَنْ يجلسَ.

ويتأكَّد هذا يوم الجمعة لِمَا فيه مِنَ الإيذاء والإشغال.

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى**»، رواه البخاريُّ[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٥)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٨٨٣).

التَّفرقة بين اثنين: أي: بالقعود بينهما، أو إقامة أحدهما والقعود مكانه، أو مجرَّد التَّخطِّي، وفي التَّخطِّي رفع للرِّجل على الرُّؤوس والأكتاف، وفي هذا إيذاء للمصلِّين، وأحيانًا لا يكون المكان أصلًا مُتَّسِعًا لجلوس شخص، فيُدخل نفسه فيه غيرَ مبالٍ بالمصلِّين، ولا بالأذى الَّذِي يلحقه بهم.

ومن أدب المجلس: أن لا يتناجى فيه اثنان دون الثَّالث.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**»، متَّفق عليه(١).

لأَنَّهُ يوقع في الحزن، وهو مخالف لِمَا تقضيه الصُّحبة مِنَ الألفة والبعد عَنِ التَّنافُر.

ومن آدابه: النُّصح للإخوان والجلساء، وسلامة الصَّدر مِنَ الغش والخديعة والمكر.

عَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»، رواه مسلم(٢).

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**»، رواه البخاريُّ(٣).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).
(٢) أخرجه مسلم (٥٥).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٧، ٥٢٤، ١٤٠١، ٢٧١٥)، ومسلم (٥٦).

ومنها: حسن التَّودُّد، والبشاشة، وطلاقة الوجه.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»، رواه مسلم(١).

ومنها: الحذر من أن يكون المجلس قائمًا على مخالفات شرعيَّة؛ كالغيبة والنَّميمة والسُّخرية وغير ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يدخلُ فيه حضورُ مجالسِ المعاصي والفسوقِ الَّتِي يستهانُ فيها بأوامرِ اللهِ ونواهيهِ، وتقتحم حدوده الَّتِي حدَّها لعباده، ومنتهى هذا النَّهي عَنِ القعود معهم: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾»(٢).

ومنها: اللِّين، وطيب النَّفس، والرِّفق بالجلساء.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ؛ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»، متفق عليه(٣).

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ**»، رواه أحمد(٤).

ومن آداب المجالس: التَّواضُع ومجانبة الكِبْر.

عَنْ عِيَاضِ الْمُجَاشِعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).
(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص: ٢١٠).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠٢٤)، ومسلم (٢٥٩٣)، واللَّفظ له.
(٤) أخرجه أحمد (٣٩٣٨)، والتِّرمذيُّ (٢٤٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، رواه مسلم[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»، رواه مسلم[٢].

ومن آداب المجالس: حسن الظَّنِّ بالإخوان، والبعد عَنِ التُّهم الكاذبة والظُّنُون الآثمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»، متَّفق عليه[٣].

والظَّنُّ الآثم: هو التُّهمة الَّتِي تقع في القلب بلا دليلٍ إثرَ كلمةٍ يسمعها المرء من أخيه أو فعلٍ يراه من أفعاله؛ فيبني عليه ظنونًا وأوهامًا، ولذا يقع كثيرٌ مِنَ النَّاس في ظنونٍ واهية وتُهَمٍ باطلة، يُبنى عليها عداواتٌ وقطيعةٌ وتناحرٌ وعداء.

ولهذا؛ فإِنَّ الظَّنَّ السَّيِّءَ بالأخ المسلم في قوله أو فعله يترتَّب عليه مِنَ الشَّرِّ والفسادِ ما لا يعلم مداه إِلَّا اللهُ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يحذر أشدَّ الحذر مِنَ الظَّنِّ السَّيِّءِ بأخيه، وهي التُّهمة والتَّخوُّن الَّذِي يقع في القلب، بل يلقيه الشَّيطان في القلب بلا مستندٍ ولا دليل.

فإذا بلغتك الكلمةُ من أخيك، وتواردت على ذهنك الظُّنُون

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥١٤٣، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٣)، واللَّفظ له.

والأوهامُ والتُّهَم، فأبعِدها عنك، وتلمَّس لأخيك المحامل الطَّيِّبة. قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا**»[(١)].

فاحرصْ على تلمُّس المحامل الطَّيِّبة لفعل أخيك أو قوله؛ لتسْلَمَ ويُسلَمَ منك، قال محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ شَيْءٌ، فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا، فَقُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا»[(٢)].

وأَمَّا إذا دخل المرء في الظُّنون الواهية تُهَمًا وتخوُّنًا وظنونًا فاسدةً؛ فإِنَّهُ يضرُّ بنفسه ضررًا عظيمًا، بل رُبَّمَا صارت حاله أسوء حالًا مِمَّنْ ناصبه العِداء.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا يَزَالُ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ يَتَظَنَّى حَتَّى يَصِيرَ أَعْظَمَ مِنَ السَّارِقِ، رواه البخاريُّ في الأدب المفرد[(٣)].

التَّظَنِّي: إعمالُ الظَّنِّ، أصلُها التَّظَنُّنُ أُبدلت النُّون الأخيرة ياءً، أي أَنَّهُ إذا سُرق منه متاع يبدأ يُعْمِل فكره في الظُّنُون «أعتقد أَنَّهُ فلان، بل إِنَّهُ فلان، نَعَمْ لقد رأيت فلانًا في ذلك المكان»، ثُمَّ يدخل في تُهَم وغِيبَة ووَقِيعة ونَمِيمة وآثامٍ عظيمةٍ، حَتَّى إِنَّ حاله لتصبح أعظمَ إثمًا مِنْ إِثْمِ السَّارق.

وقُلْ مثلَ ذلك في سائر الأخطاء والمخالفات. وعلى سبيل المثال: قد يصاب المرء بالعين فيتضرَّر إِمَّا في بدنه أو في بعض ممتلكاته، فيبدأ في هذه الظُّنون والتُّهَم: «إِنَّهُ فلان، بل هو فلان، إِنَّنِي أعرف من فلانٍ كذا»، ويخوض في أعراض إخوانه تُهَمًا باطلة ودعاوى زائفة لا تقوم

---

(١) أخرجه قوام السُّنَّة الأصبهانيُّ في التَّرغيب والتَّرهيب (١٦٢٠).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/ ١٤٩).
(٣) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

على دليل، يخوض في أعراضهم غيبةً ونميمةً واستطالةً وأذًى عظيمًا؛ فتكون حاله أشدَّ حالًا مِنَ العائن الَّذِي حسده أو أصابه بالعين.

أَيُّهَا المسلم؛ أَرِحْ نفْسَك في هذا الباب ولا ترهق قلبك، وعليك بحسن الظَّنِّ بإخوانك، وحمْل الأخطاء في الأقوال والأفعال على أحسن المحامل، كما تحبُّ أَنْ يُفْعَل معك لو كنت أنت صاحب ذلك القول، أو صاحب ذلك الفعل.

قال بكر بن عبدالله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِيَّاكَ مِنَ الْكَلَامِ مَا إِنْ أَصَبْتَ فِيهِ لَمْ تُؤْجَرْ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ فِيهِ أَثِمْتَ؛ وَهُوَ سُوءُ ظَنِّكَ بِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ»(١).

إن أصبت في سوء ظنِّك فيه وصار الأمر مطابقًا لم تؤجر على ذلك، فليس من وراء سوء الظَّنِّ فائدة، وإن لم تُصِب وكان الأمر مجرَّد تهمة بلا دليل فإنَّك تبوء بإثمٍ عظيم، ولاسيَّما إذا تبع هذا الظَّنَّ السَّيِّءَ ما تبِعه من أمور وأعمال.

وفي الغالب: أَنَّ الظَّنَّ يتبعه أمور كثيرة؛ منها التَّجسُّس، إذا ظنَّ فيه بدأ يتجسَّس عليه وعلى أفعاله، وإذا تجسَّس ترتَّب على ذلك وقيعةً وغيبةً ونحو ذلك، ولهذا لَمَّا نهى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنِ الظَّنِّ السَّيِّءِ أتبع ذلك بالنَّهي عَنِ التَّجسُّس، ثُمَّ أتبعه بالنَّهي عَنِ الغيبة، لأَنَّهَا أمورٌ وشرور يتوالدُ بعضها من بعض.

فقولُ نبيِّنا ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّهُ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**»(٢)؛ فيه تحذير من هذه الظُّنُونِ والأوهام الَّتِي أفسدت حياة النَّاس كثيرًا، ونخَرت في أُخُوَّتِهم وعلاقاتهم، وأوجدت بينهم مِنَ العداوات والبغضاء ما لا يعلمه إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) تهذيب التهذيب (١/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٣) واللفظ له.

عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

والمسلم مطلوب منه في مجالسه أَنْ يَتحرَّزَ مِنَ اللَّغط، وأَنْ يتنبَّه إلى أنَّ كلماتِه في مجالسه محسوبةٌ عليه ومعدودةٌ في عمله، وأَنَّ الواجبَ عليه أَنْ يتقيَ اللهَ تعالى.

لكِنَّ العبدَ مهما اجتهد في ذلك، فلا بُدَّ أَنْ يبدرَ منه التَّقصير في مجلسه، ولو لم يكن في ذلك إِلَّا أَنَّهُ فوَّت على نفسه في مجلسه هذا شيئًا مِنَ الخير -لمَّا اشتغل بالمباح عَنِ المستحبِّ-؛ لكفى به تقصيرًا، فكيف إذا كان كثيرٌ مِنَ المجالس لا تخلو مِنَ اللَّغط، بل حَتَّى أحيانًا مِنَ الآثام، فهذه الكلمات كفَّارة للعبد لِمَا كان في مجلسه ذلك.

وينبغي أَنْ يُعلمَ هنا أَنَّ ما يقع في مجالس النَّاس من خطأ وذنب بسبب آفات اللِّسان على قسمين:

الأوَّل: الكبائر مثل: الغِيبة والنَّميمة والسُّخرية واللَّعْنِ والشَّتْم والوقيعة في الأعراض، فلا يقول القائل: أَنَّ هذا الحديث يدلُّ على أَنَّ الإنسان يجلس في مجلسه ويغتاب من أراد، وينم ويهزأ ويسخر، ويقول الحرام والآثام، ثُمَّ يقول: أختم مجلسي بهذا التَّسبيح ويغفر ما كان.

فالكبائرُ لا بُدَّ فيها من توبةٍ، وإذا كانت آثارها متعدِّية، فلا بُدَّ من محو ذلك الأثر، فإذا كان مثلًا نَمَّ فأوقع عداوةً بين اثنين، أَوِ اغْتَاب فشحن الصُّدور على أحد المسلمين، فلا يكفي في ذلك أن يقول: آتي

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٤٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ.

بهذا الذِّكر في خاتمة المجلس ويكون كفَّارة لِمَا كان، فالكبائرُ لا بُدَّ فيها من توبة إلى الله تعالى من تلك الذُّنوب والكبائر.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّساء:٣١]، وقال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»(١)، ومعلومٌ أنَّ الصَّلواتِ الخمسِ أعظمُ من قولِ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»، بل جميع هذه الكلمات موجودةٌ في الصَّلاةِ: التَّسبيح، والتَّكبير، والتَّهليل، والاستغفار، ومع هذا قال ﷺ: «**مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**».

الثَّاني: صِغار الذُّنوب واللَّمم، مِمَّا لا يتعدَّى بأثره على الغير، فهذا يُكفِّره هذا الدُّعاء عند القيام مِنَ المجلس.

والحاصلُ: أنَّ العبدَ يجب عليه أَنْ يصونَ مجالسه مِنَ المعاصي والآثام، وأَنْ يحرصَ على ختم مجالسه بهذا الذِّكر المبارك العظيم المأثور عَنِ النَّبيِّ ﷺ.

ولا يختصُّ هذا الذِّكر بختم المجلس الَّذِي كثر فيه اللَّغط، بل يتناول كُلَّ مجلس، حَتَّى مجلس الذِّكر؛ لِمَا صحَّ من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ كَانَتْ كَالطَّابِعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ**»(٢). وبهذه الكفَّارة العظيمة المباركة نختم هذا الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (١٠١٨٥)، والطَّبرانيُّ في الكبير (١٥٨٦)، والحاكم في المستدرك (١٩٧٠)، واللَّفظ له. وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٨١).

(٢٤)

آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ

مَنْ أكرمَه اللهُ تعالى ومَنَّ عليه بسلوكِ طريقِ طلبِ العلم؛ فعليه أَنْ يُحَقِّقَ الآدابَ والأخلاقَ الَّتِي تلزم كُلَّ مَنْ سلكَ هذا السَّبيل المبارك، قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كَادَ الْأَدَبُ يَكُونُ ثُلُثَيْ الدين**»[١]، ولزومُ طالب العلم لأدب الطَّلب عنوان فلاحه وسعادته في دنياه وأخراه.

والعلم الشَّرعيُّ أفضلُ أمرٍ تُصرَف فيه الهمم، وتُمْضَى فيه الأوقات، والمشتغل به على خيرٍ عظيمٍ، وفضلٍ عميمٍ.

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»، رواه التِّرمذيُّ[٢].

(١) ذكره ابن الجوزيِّ في صفة الصَّفوة (٢/ ٣٣٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والتِّرمذيُّ (٢٩٨٢) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعن مُعَاوِيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، متَّفق عليه[(١)].

فلْيَحذرْ طالبُ العلم مِنَ الصَّوارف والصَّوادِّ الَّتِي لا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ عليه في حياته شيءٌ منها، فإنْ جاهدَ نفسه واستمرَّ في طلب العلم، وداوم على تحصيلِه صابرًا محتسبًا جادًّا مجتهدًا؛ فاز بأعظم ربحٍ وأكبر غنيمةٍ.

عن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»، رواه أحمد[(٢)].

وعليه أَنْ ينزِّه العلمَ عن كُلِّ ما لا يليق به وما لا يليق بطلَّابه؛ ولهذا ينبغي لطالب العلم أَنْ يحترمَ العلم، وأَنْ يحترمَ كتبَ العلم، وأَنْ يَحْترمَ حملةَ العلم.

عن عبادةَ بنِ الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»[(٣)].

وعليه أن يبذل جُهدَه في طلب العلم بعزيمةٍ قويَّةٍ، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[(٤)]، ويعينه على ذلك أَنْ يستذكر دائمًا قدْرَ العلمِ ومكانتَه وآثارَه وثمارَه على أهله في الدُّنْيَا والآخرة.

وعليه أن يكون متَخلِّقا بالنُّصحَ باذلًا له، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٨)، واللَّفظ له، وابن حِبَّان (٤٧٠٦)، وصحَّح إسناده الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٥)، والطَّبرانيُّ في مكارم الأخلاق (١٤٧).
(٤) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، والتِّرمذيُّ (٣٤٠٧)، والنَّسائيُّ (١٣٠٤).

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قُلْنَا: لِمَنْ؟. قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»، رواه مسلم[(١)].

والنُّصْحُ: هو إرادةُ الخير للغير، وأنْ تُحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنفسك، فكما أنَّ اللهَ أكرمَك بحظٍّ مِنَ العلم ونصيبٍ؛ فأوصلْ هذا الخيرَ الَّذِي أكرمَك اللهُ به إلى الآخرين؛ لينتفعوا به كما انتفعت، ولِيُفيدوا منه كما استفَدت، محتسبًا الأجر والثَّواب مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بذل العلم لطلَّابه، لا ترجو منهم شيئًا، وإِنَّمَا ترجو مِنَ اللهِ، وتحتسبُ ذلك ثوابًا وأجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتجعل ذلك من جملة قُرباتك وطاعاتك الَّتِي تتقرَّب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنَّصيحةُ إذا أُسْديت سِرًّا كانت أبلغَ في التَّأثير والفائدة، ذكر الحافظُ ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ السَّلف كانوا يكرهون الأمر بالمعروف والنَّهي عَنِ المنكر إن كان على وجه التَّشهير بالمخطِئ على رؤوس الملأ.

ثُمَّ قال: «ويُحِبُّون أَنْ يكونَ سِرًّا فيما بين الآمر والمأمور، فإِنَّ هذا من علاماتِ النُّصْح، فإنَّ النَّاصِحَ ليس له غرَضٌ في إشاعة عيوب مَنْ ينصح له، وإِنَّمَا غرضُه إزالةُ المفسدة الَّتِي وقع فيها؛ وأَمَّا الإشاعةُ وإظهارُ العُيوب فهو مِمَّا حرَّمه اللهُ ورسولُهُ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ .. ﴾ [النور:١٩] الآيتين، والأحاديث في فضل السِّرِّ كثيرةٌ جدًّا»[(٢)].

وبذل العلم والنَّصيحة للآخرين سبب لزيادة العلم ونمائه، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة، فمَنْ أَحَبَّ الخير لعباد الله وفَّقه الله للخير،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).
(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٤١١).

كما قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرَّحمن: ٦٠].

وعلى طالب العلم أَنْ يكونَ على قدرٍ عال مِنَ الاحترام لمعلِّميه، فعلى قدر هذا الاحترام تتحقَّق الفائدة ويعظُم الخير، ولهذا يخصِّص أهل العلم في كُتُب الآداب فصولًا في أدب طالب العلم مع شيخه، وحديثُ جبريل المشهور فيه جملةٌ من هذه الآداب.

وعليه أن يجعلَ نِيَّته خالصةً لوجه الله، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، متَّفق عليه(١).

فطلبُ العلمِ عبادةٌ، كما قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مَا عُبِدَ اللهُ بِمِثْلِ الْعِلْمِ**»(٢)، والعبادةُ لا تُقبل إلاَّ بالإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فعلى طالب العلم أَنْ يُصحِّح نِيَّته في كُلِّ وقت وحين بمجاهدة مستمرَّة للنَّفْس، يقول سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ لَأَنَّهَا تَنْقَلِبُ عَلَيَّ»(٣).

فإِنَّ الشَّيطانَ يأتي طالبَ العلمِ إذا جلس في مجالس العلم ويقول: اجتَهد حَتَّى يقال: عالمٌ! أو حَتَّى يكونَ لك شهرةٌ وصيتٌ! ليفسد عليه نِيَّته، ولهذا فالنِّيَّة تحتاج إلى معالجة.

والطَّالبُ يحتاج أَنْ يُصحِّح نيَّته دائمًا، وأَنْ يُبْعِدَ نفْسَه عَنِ الرِّياء والسُّمعة وحبِّ الظُّهور وحُبِّ الشُّهْرة، ويجعل طلبه للعلم من جملة

(١) أخرجه البخاريُّ (١) واللَّفظ له، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه البيهقيُّ في الشُّعَب (٤٣٧٣)، و ابن عبد البَرِّ في جامع بيان العلم وفضله (٢٤٦).
(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١/ ٣١٧).

أعمالِه الصَّالحة الَّتي يتقرَّب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْعِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ»(١). وقال مهنا: «قلتُ لأحمد: حدِّثنا ما أفضلُ الأعمال؟ قال: طلبُ العلم، قلت: لِمَنْ؟ قال: لِمَنْ صحَّتْ نيَّتُه. قلتُ: وأيُّ شَيْءٍ يُصَحِّح النِّيَّة؟ قال: ينوي؛ يتواضعُ فيه ويَنفي عنه الجهلَ»(٢).

والإخلاصُ: هو قصدُ وجهِ اللهِ -تَعَالَى- وحْدَه بالعملِ.

ومَنْ كان يطلبُ العلم لأجل أَنْ يقولَ النَّاس عنه عالم أو فقيه، أو يقال عنه كذا وكذا مِنَ الأوصاف والألقاب؛ فإنَّ صفقتَه خاسرةٌ يوم القيامة، وإِنْ حصَّل شيئًا من حطام الدُّنيا والشُّهْرة فيها.

قال الشيخ حافظ حكمي في ميميته في الوصايا والآداب العلمية:

والنية اجعل لوجه الله خالصة ... إن البناء بدون الأصل لم يقم

ومن يكن ليقول الناس يطلبه ... اخسر بصفقته في موقف الندم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ **«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ

---

(١) مسائل أحمد بن حنبل رواية ابن هانئ (١٩٣١).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٣٨٠، ٣٨١).

قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، رواه مسلم(١).

قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: «فيه دليلٌ على تغليظِ تحريمِ الرِّياء، وشدَّة عقوبته، والحَثُّ على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥].

وفيه أنَّ العمومات الواردة في فضل الجهاد إنَّما هي لمن أراد الله -تعالى- بذلك مخلصًا، وكذلك الثَّناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كُلُّه محمولٌ على مَنْ فعل ذلك لله تعالى مخلصًا»(٢) ا هـ.

ومَنْ يَبتَغِي بطلب العلم الدُّنيا، فليس له يوم القيامة نصيب من ثواب الله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يَعْنِي: رِيحَهَا، رواه أبو داود(٣).

وتأمَّلْ في هذا الأمر ثلاث آيات:

قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) شرح النَّوويِّ على مسلم (١٣/ ٥١).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]، وقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٨]، وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشُّورى:٢٠].

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن كُلُّها صُدِّرَت بقوله: ﴿مَن كَانَ﴾، وكُلُّها تبيِّن أَنَّ مَنْ يبتغي بالعلم الدُّنيا فليس له يومَ القيامةِ من حظٍّ ولا نصيب.

قال الشيخ حافظ في ميميته:

كفى بـ(من كان) في شورى وهود وفي الـ   إسراء موعظة للحاذق الفهم

ولْيَحذرْ طالبُ العلم من مُمارَاة السَّفِهاء أو مُباهاةَ العلماء. عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

أي أَنْ يطلبَه من أجل مُمَاراة السُّفهاء أو من أجل مباهاة العلماء، بأَنْ يتباهى بعلمه في مجالس أهل العلم، أو يبرز نفسَه ليُقال هو أعلم من فلان أو نحو ذلك، فإنَّ هذا مِمَّا يخرمُ النِّيَّة.

وليحذر من أن يجعل العلم غرضًا للخصومات. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ**» متَّفق عليه(٢).

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٥٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

والألدُّ: مأخوذٌ من لَديدَي الوادي وهما جانباه؛ لأنَّه كُلَّما احتجَّ عليه بحجَّة أخذ في جانب آخر، وقيل: مشتقٌّ مِن لَديدَيِ العنق وهما صَفحتاه؛ والخَصِم أي المولَع بالخصومة، والماهر بها.

فمَنْ كان بهذه الصِّفة: صاحبَ لَدَدٍ في الخصومة، يتفنَّن فيها، وهمُّه أَنْ يغلبَ خَصْمَه ويظهر نفسه؛ فهو أبغض الرِّجال إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

وليحذر طالبُ العلم مِنَ العُجْبِ بنفسه؛ فإِنَّ هذا مِنَ الأمور الَّتِي تُخِلُّ بالنِّيَّة.

والْعُجْبُ: رؤيةُ النَّفْس والتَّعالي على النَّاس، وهو خلقٌ ذميمٌ لا يليق بآحاد المسلمين؛ فكيف بطالب العلم الَّذِي أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعلم ومَنَّ عليه بالفهم والفقه.

وطالبُ العلمِ كُلَّما كان مستشعرًا مِنَّة الله عليه وتفضُّلَه عليه بالعلم، وأَنَّهُ لولا فضلُ الله عليه ورحمتُه ما حصَّل مِنَ العلم شيئًا؛ ذهب عنه العُجْبُ، وعُمِّرَ قلبه بالإخلاص.

ولهذا؛ فإنَّ دواءَ العُجْبِ كما في القرآن أن تقول: «مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]، بأن تذكر نعمة الله عليك، وأنَّ الأمورَ كُلَّها بمشيئته، وأَنَّهُ لا قوَّة لك إِلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّ الفضلَ بيد الله يؤتيه مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم، وأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعطي المانع الرَّافع الخافض القابض الباسِط، والأمر كُلُّه بتدبيره ومنِّه وفضله جَلَّ وَعَلَا.

ومن خطورةِ الْعُجْبِ الشَّديدةَ على المرء أَنَّهُ يجترف أعْمالَه الصَّالحة فلا يُبْقِي منها شيئًا.

قال الشيخ حافظ في ميميته:

والعجب فاحذره إن العجب مجترف   أعمال صاحبه في سيله العرم

أورد الحافظ المنذريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التَّرغيب والتَّرهيب» تحت باب «التَّرهيب مِنَ الدَّعوى في العلم والقرآن»، أحاديث؛ منها:

حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَظْهَرُ الإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي البَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَؤُنَ القُرْآنَ يَقُولُون: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟! مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟! مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟!**» ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «**هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قال: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**»[(١)].

قال المنذريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط»، والبزَّار[(٢)] بإسناد لا بأس به».

والعُجب عندما يُصاب به طالبُ العلم يجرُّه إلى الكِبْر، وإلى التَّعالي على النَّاس، والتَّرفُّع على عباد الله، والعلوِّ في الأرض، وقد جاء في الحديث عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، رواه مسلم[(٣)].

وعليه أنْ يلزمَ خشية الله في سِرِّه وعلنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

---

(١) أخرجه المنذريُّ في التَّرغيب والتَّرهيب (٢٢٧). وحسَّنه لغيره الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البزَّار (٢٨٣)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٦٢٤٢).
(٣) أخرجه مسلم (٩١).

[البيِّنة:٧-٨] فإِنَّهُم خيرُ البرية.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَصْلُ الْعِلْمِ خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى»(١).

وعلى طالب العلم أَنْ يتدرجَ في طلب العلم درجةً درجةً، بادئًا بالمهِّمات من أمور الدِّينِ شيئًا فشيئًا حَتَّى يحصلَ منه خيرًا كثيرًا، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ لطالب العلم، وهي مستفادةٌ من قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف:١٣٥]، وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزُّمر:١٨].

وفي هذا المعنى يقول الشَّاعر(٢):

مَا أَكْثَرَ الْعِلْمَ وَمَا أَوْسَعَهُ   مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَجْمَعَه
إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ لَهُ طَالِبًا   مُحَاوِلًا فَالْتَمِسْ أَنْفَعَه

قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ جُمْلَةً فَاتَهُ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ الْعِلْمِ حَدِيثٌ وَحَدِيثَانِ»(٣).

أي: بالتَّدرج شيئًا فشيئًا، وهذا المعنى مستفادٌ من قول النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»، متَّفق عليه(٤).

تَحفظُ في اليوم حديثًا واحدًا، وتستمرُّ على هذا، خيرٌ من أن تحفَظ في يوم واحد مائة حديث ثُمَّ تقف.

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٨٢).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص: ١٤٨)، من شعر ابن أغنس.
(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١/ ٢٣٢).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٨٦١، ٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣) واللَّفظ له، من حديث عائشة.

يقول الشَّاعر:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِنْ نُخَبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَط
يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَط

والواجبُ على طالب العلم أَنْ يقدِّم كلامَ الله وكلامَ رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأَنْ يعظمَ الوحي، وأَنْ يتَّهمَ الرَّأي في الدِّين.

عن سَهْل بْن حُنَيْفٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِى كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ.

فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: «**بَلَى**». قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «**بَلَى**». قَالَ فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُم اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**».

قَالَ: فَانْطَلَقَ عُمَرُ، فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُم اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؛ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا.

قَالَ: فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ». متَّفق عليه[1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥).

ولْيَجتهدْ طالبُ العلمِ دومًا في صيانة دينه مِنَ الضَّياع، وَلْيَعْلم أَنَّ كُلَّ مصيبة يُصاب بها في غير الدِّين يجبرُها الدِّين، بخلاف مصيبة المرء في الدِّين لا يجبرها شيءٌ إِلَّا إنْ مَنَّ الله عليه بالتَّوبة وهداه للأوبة.

والمصيبةُ في الدِّين أعظمُ المصائبِ، وفي الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

ومعنى قوله: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»؛ أي: لا تصبْنَا بما يُنْقِص ديننا ويذهبه؛ مِنِ اعْتِقَادٍ سَيِّءٍ أو تقصيرٍ في الطَّاعة أو فعلِ محرَّمٍ، وذلك لأَنَّ المصيبةَ في الدِّين أعظمُ المصائب وليس عنها عوضٌ، بخلاف المصيبة في الدُّنيا، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّقُوا اللهَ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ خَلَفٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِتَقْوَى اللهِ خَلَفٌ»(٢).

وعلى طالب العلم أن يُتبعَ العلمَ بالعمَل، لأَنَّهُ مقصودُ العلم، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»(٣).

وللخطيب البغداديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلَّف عظيمٌ في هذا الباب سمَّاه «اقتضاءُ العلمِ العملَ»، أورد فيه نصوصًا كثيرة مِنَ السُّنَّة، وأثارًا عَنِ السَّلف، جديرٌ بطالب العلم أن يقفَ عليه.

قال فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنِّي مُوصِيكَ -يَا طالبَ العلمِ- بِإِخْلاصِ النِّيَّة في طلَبِهِ، وإِجْهادِ النَّفْس على العَمَلِ بمُوجَبِهِ، فَإِنَّ العلمَ شجرةٌ، والعملَ ثَمَرةٌ، وليس يُعَدُّ عالمًا مَنْ لم يكُنْ بِعِلْمِه عَاملًا.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (٥/ ٣٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٩٧).
(٣) أخرجه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (٤٠).

فلَا تَأْنَسْ بالعملِ ما دمتَ مستوحشًا مِنَ العلم، ولَا تأنَسُ بالعلمِ مَا كُنْتَ مقصِّرًا في العَمَلِ، ولَكِنِ اجْمَعْ بينهما، وَإِنْ قَلَّ نصيبُك منهما.

ومَا شَيْءٌ أضعفُ من عالمٍ تَرَكَ النَّاسُ عِلْمَه لفَسَادِ طريقتِه، وجاهلٍ أخذ النَّاس بجهلِه لنظرهم إلى عبادتِه.

والقليلُ مِنْ هذا مع القليلِ من هذا أنجى في العاقبةِ، إذا تفضَّل اللهُ بالرَّحمةِ، وتَمَّم على عبْدِهِ النِّعمةَ، فأَمَّا المدافعةُ والإهمالُ، وحُبُّ الهُوَيْنَى والاسترسالُ، وإيثارُ الخفضِ والدَّعةِ، والميلُ مع الرَّاحَةِ والسَّعةِ، فَإِنَّ خواتيمَ هذه الخصالِ ذميمةٌ، وعُقْبَاها كريهةٌ وخيمةٌ.

والعلمُ يُراد للعملِ كما العملُ يُرَاد للنَّجاةِ، فإذا كان العملُ قاصرًا عَنِ العلمِ كان العلمُ كَلًّا على العالمِ، ونعوذُ بالله مِنْ عِلْمٍ عَادَ كَلًّا وأورث ذُلًّا، وصار في رقبةِ صاحبِهِ غلًّا.

وهل جامعُ كتبِ العلمِ إلَّا كجامعِ الفضَّة والذَّهب؟ وهل المنهوم بها إلَّا كالحريص الجشع عليهما؟ وهل المغرمُ بحبِّها إلَّا ككانزهما؟ وكما لا تنفع الأموالُ إلَّا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلَّا لمَنْ عمل بها، وراعى واجباتها فلْيَنْظرِ امْرُؤٌ لنفسه، ولْيَغْتنم وقتَه، فإنَّ الثَّواءَ قليلٌ، والرَّحيلَ قريبٌ، والطَّريقَ مخوفٌ، والاغترارَ غالبٌ، والخطرَ عظيمٌ، والنَّاقدَ بصيرٌ، والله -تعالى- بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]»[(١)] اهـ.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ**

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب (ص: ١٤- ١٦).

مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ وَتَخَشُّعِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَصَلَاتِهِ وَصِلَتِهِ وَزُهْدِهِ»، رواه الدَّارميُّ في سننه[(٢)].

وعن محمَّد بنِ سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ»[(٣)]. والهَدْيُ: السِّيرةُ والهَيْئةُ والسَّمت والأدب.

فهذه جملة مِنَ الآداب الَّتِي ينبغي أن يكون طالبُ العلم متخلِّقًا بها ترشد إلى ما سواها، وهي زينةُ الطَّالبِ وجمالُه وحِلْيَتُهُ وعُنْوَانُ سَعَادَتِهِ، وفلاحُهُ في دنياه وأخراه.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٤١٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أحمد في الزُّهد (١٤٦٣)، والدَّارميُّ في السُّنن (٣٩٧، ٣٩٨).
(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١/ ٩٦).

(٢٥)

آدَابُ الطَّعَامِ

لَقَدْ جَاءَتْ شريعتُنَا المباركةُ بآدابٍ عظيمةٍ متنوِّعةٍ تتعلَّقُ بالطَّعامِ، بها يكونُ الطَّعامُ أَهْنَأَ للعبد وأنقى وأطيبَ وأكملَ وأسلمَ، وهي من محاسنِ هذه الشَّريعة وكمالِهَا ووفائِهَا بجميعِ مصالحِ العبدِ، يقومُ المسلمُ بامتثالها تقربًا إلى الله سبحانه الَّذِي يرضى عن عبده بذلك، فيباركُ له في طعامه ويثيبه على رعايته لهذه الآداب جزيل الثَّواب.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]. وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ:١٥]. وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]. وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١].

وللطَّعام آدابٌ عديدة وردت بها الأحاديثُ الصِّحاح عن رسول الله ﷺ؛ منها ما هو واجبٌ ومنها ما هو مستحبٌّ، يجدر بالمسلم أن يعتني بها عناية عظيمة، ففيها البركةُ والعافيةُ وخيرُ الدُّنْيَا والآخرة.

يحرم على المسلم الأكلُ والشُّربُ في آنية الذَّهب والفضَّة:

عن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَشْرَبُوا فِي إِنَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَلْبَسُوا الدِّيبَاجَ وَالْحَرِيرَ، فَإِنَّهُ لَهُمْ فِي

الدُّنْيَا وَهُوَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متَّفق عليه(١).

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ؛ فَإِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ**»، رواه مسلم(٢).

وهذا التَّحريم لا يختصُّ بالأكل والشُّرْب، بل يعم سائر وجوه الانتفاع، فلا يَحِلُّ له أن يغتسل بها ولا يتوضَّأ بها ولا يدهن فيها، ولا يتكحَّل منها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّوَابُ أَنَّ العِلَّةَ -واللهُ أعلمُ- ما يُكْسِبُ استعمالُها القلبَ مِنَ الهيئةِ، والحالةِ المنافيةِ للعبوديَّةِ مُنَافاةً ظاهرةً، ولِهَذَا عَلَّلَ النَّبِيُّ ﷺ بأَنَّهَا للكفَّارِ في الدُّنْيَا، إذ ليس لهم نصيب مِنَ العبوديَّةِ الَّتِي ينالون بها في الآخرة نعيمها، فلا يصلُحُ اسْتِعْمَالُها لعبيد الله في الدُّنْيَا، وإِنَّمَا يستعمِلُها مَنْ خرج عن عبوديَّتِهِ، ورَضِيَ بالدُّنْيَا وعاجِلها مِنَ الآخرةِ»(٣).

ويحرم أَنْ يأكلَ ما حَرَّم الله على عباده أكلَه:

وقد فصَّل سبحانه لعباده ما حرَّم عليهم، وأحلَّ لهم الطَّيِّبات مِنَ الرِّزق.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النَّحل: ١١٤-١١٥].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٣٣)، ومسلم (٢٠٦٧)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦٥).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢).

ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة:٣].

ومن آداب الطَّعام التَّسمية في أوَّله:

بأن يقولَ عند بَدْءِ طعامِهِ وشرابِهِ: «بسم الله» لِيُحفَظَ ويُوقى، ولِيُبارَكَ له في طعامِهِ وشرابِهِ.

عن عمر بن أبي سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ، متَّفق عليه(١).

وفي التَّسمية على الطَّعام فوائدُ كثيرةٌ، منها: أَنَّهُ يُبارَك له في طعامه.

عن وَحشي بن حرب بن وحشي، عن أبيه، عن جدِّه: أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ؟ قَالَ: «**فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ؛ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»، رواه أبو داود(٢).

ومن فوائد التَّسمية على الطَّعام: طردُ الشَّيطان وإبعادُه، فلا يتمكَّن من مشاركة الإنسان في طعامه.

عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كُنَّا إذا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا؛ لَمْ نَضَعْ أَيْدِينا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذ بِيَدِهِ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٦٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا**»، رواه مسلم(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ؛ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ**»، رواه مسلم(٢).

وفي هذا: أنَّ التَّسميةَ طاردةٌ للشَّيطان، مانعةٌ له من دخول المَنزِل، ومِنَ المشاركةِ في الطَّعام والشَّراب، ويكفي المسلمَ أن يقول في هذا الموضع: «بسم الله»، أمَّا زيادة: «الرَّحمن الرَّحيم»؛ فلَم يثبت بها حديثٌ عَنِ النَبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ إنَّ المسلمَ إنْ نَسِيَ التَّسميةَ في أَوَّلِ طعامه يُشرَعُ له أن يقول في أثنائه إذا ذكر: «بسم الله أوَّله وآخره».

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ؛ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**»، رواه أبوداود(٣).

وقد أفاد هذا الحديثُ: أنَّ محلَّ التَّسمية عند الْبَدْءِ بالطَّعام، فإنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٨).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧) واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (١٨٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

نسيها المسلمُ في هذا الموضع أجزأه أن يأتي بالتَّسمية في أثنائه بهذه الصِّيغة المذكورة في الحديث.

وقد جاء في حديث في إسناده ضعفٌ: أنَّ الشَّيطان يستقيء ما في بطنه إذا أتى المسلمُ بهذه التَّسمية، وذلك فيما رواه أبو داود والنَّسائيُّ عن أميَّة بن مخْشيٍّ قال: كان رسولُ الله ﷺ جالسًا ورجلٌ يأكل، فلَم يُسمِّ حَتَّى لَم يبقَ من طعامه إِلَّا لُقْمَةً، فلَمَّا رفعها إلى فيه قال: بِسْمِ اللهِ أوَّلَهُ وآخِرَهُ، فضحك النَّبِيُّ، ثُمَّ قال: «**مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ**»[(١)].

لَكِنَّ الحديثَ ضعيفٌ، ضعَّفه الحافظ ابن حجر وغيرُه، وأَمَّا التَّسمية في أثناء الطَّعام في حَقِّ مَنْ نَسِيَ بقول: «بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» فهي ثابتةٌ كما في الحديث المتقدِّم.

ومن أدب الطَّعام: أَنْ يَحمدَ الله عَزَّوَجَلَّ إذا فرغ من طعامه وشربه:

فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يرضى عن عبده إذا فعل ذلك. عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»، رواه مسلم[(٢)].

وقد جاء في السُّنَّة صيَغٌ عديدة للحمد بعد الطَّعام، فإِنْ تمكَّن المسلمُ من حفظها والإتيان بها هذا مرَّة وهذا مرَّة، فهو أكملُ في حَقِّه وأبْلَغُ في متابعته لنَبِيِّه، وإنْ لَم يتمكَّن من ذلك فلا يَدَع أن يقول عقِب طعامه: «الحمد لله»، فهي كلمةٌ عظيمةٌ مباركةٌ حبيبةٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ورد في السُّنَّة صِيَغ عديدة للحمد بعد الطَّعام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، رواه أبو داود(١).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**»، رواه البخاريُّ(٢).

عن عبد الرحمن بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه حدَّثه رجلٌ خدمَ رسولَ اللهِ ﷺ ثمان سنين، أنَّهُ كان سمع رسولَ اللهِ ﷺ إذا قُرِّبَ إليه الطَّعامُ يقول: «**بِسْمِ اللهِ**»، وإذا فرغ قال: «**اللهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ**»، رواه أحمد(٣).

ويُستحبُّ للمسلم إذا تناول طعامَ الإفطار من صيامه أن يقول: «ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ»؛ لِمَا رواه أبو داود عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَفْطَرَ قَالَ: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ العُرُوقُ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»(٤).

ومن أدب الطَّعام: الدُّعاء لأهل الطَّعام:

وقد جاءت السُّنَّة بأنواع مِنَ الأدعية يُدعى بها لأهل الطَّعام، فيُستحبُّ للمسلم أن يحفظَ ما تيسَّر له من ذلك، وأن يقوله لِمَنْ ضيَّفه أو قدَّم له طعامًا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٤٥٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٦٥٩٥)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٦٨٧١).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

عن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الجَهْدِ، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ...»، فَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ، وفيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي**»، رواه مسلم(١).

وعن عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا وَوَطْبَةً -أي حيسًا، وهو مكوَّنٌ مِنَ التَّمْرِ والأَقِط والسَّمْنِ-، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ، فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ وَيَجْمَعُ السَّبَابَةَ وَالوُسْطَى، ثُمَّ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ: ادْعُ اللهَ لَنَا. فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ**»، رواه مسلم(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلَائِكَةُ**»، رواه أبو داود(٣).

وكم هو جميلٌ بالمسلم أَنْ يراعي في الطَّعام آدابه وأذكاره؛ ليكون ذلك أبرَكَ له في طعامه وأهنأ وأمرأ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا جَمَعَ الطَّعَامُ أَرْبَعًا فَقَدْ كَمُلَ: إِذَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي أَوَّلِهِ، وَحُمِدَ اللهُ فِي آخِرِهِ، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ الأَيْدِي، وَكَانَ مِنْ حِلٍّ»(٤).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَللتَّسميةِ في أوَّل الطَّعامِ والشَّرابِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد (٤/ ٢١٣).

وحَمْدِ اللهِ في آخِرِهِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ في نَفْعِهِ واستمرَائِهِ ودَفْعِ مضرَّتِهِ»[(١)].

ومن آداب الطَّعام الأكل باليد اليمنى:

للحديث المتقدِّم، وعن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ «**كُلْ بِيَمِينِكَ**». قَالَ لَا أَسْتَطِيعُ قَالَ «**لَا اسْتَطَعْتَ**». مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ، رواه مسلم[(٢)].

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِالشِّمَالِ**»، رواه مسلم[(٣)].

وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»، رواه مسلم[(٤)].

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا جُعِلَتِ الشِّمال للاستنجاءِ ومباشرةِ الأنجاسِ، واليمنى لتناوُلِ الغذاءِ؛ لم يصلُح استعمالُ أحدهما في شُغْلِ الأخرى؛ لأَنَّهُ حَطٌّ لرتبة ذي الرُّتْبة ورفعٌ للمحطوط، فمَنْ خالفَ مَا اقتضته الحكمةُ وافقَ الشَّيطانَ»[(٥)].

ومن آدابه الدُّنُوُّ مِنَ الطَّعام:

عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ طَعَامٌ، فَقَالَ: «**ادْنُهْ يَا بُنَيَّ، فَسَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢١٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠١٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٢٠).
(٥) كشف المشكل من حديث الصَّحيحين (٢/ ٥٩٥).

رواه النَّسائيُّ[(١)].

ومن آدابه أن يأكل مِمَّا يليه:

للحديث المتقدِّم. وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، أُتِيَ بِقَصْعَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُوا مِنْ جَوَانِبِهَا، وَدَعُوا ذُرْوَتَهَا، يُبَارَكْ فِيهَا**»، رواه ابن ماجه[(٢)].

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَأْسِ الثَّرِيدِ، فَقَالَ: «**كُلُوا بِسْمِ اللهِ مِنْ حَوَالَيْهَا، وَاعْفُوا رَأْسَهَا، فَإِنَّ الْبَرَكَةَ، تَأْتِيهَا مِنْ فَوْقِهَا**»، رواه ابن ماجه[(٣)].

ومن آداب الطَّعام الاجتماع عليه، وعدم الأكل متفرِّقين.

للحديث المتقدِّم: «**فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُفْتَرِقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»، رواه أحمد[(٤)].

ومن هذه البركةِ الَّتي تكون بالاجتماع: أَنَّ طعامَ الواحدِ يكفي الاثنين، وطعامَ الاثنين يكفي الأربعة وهكذا. عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ**»، رواه مسلم[(٥)].

ومن آداب الطَّعام: أن ينتظرَ حَتَّى تخِفَّ حرارَتُه ودخَانُه.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا ثَرَدَتْ، غَطَّتْهُ شَيْئًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، والنَّسائيُّ في الكبرى (٦٧٢٢)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٧٣)، وابن ماجه (٣٢٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٢٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٠٧٨)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٥٩).

حَتَّى يَذْهَبَ فَوْرُهُ، ثُمَّ تَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْبَرَكَةِ**»، رواه أحمد(١).

ومن آدابه: عدمُ النَّفخ في الطَّعام:

وقد يكون لذلك أضرارٌ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ النَّفْخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، رواه أحمد(٢).

ومن آدابه: أنَّ اللُّقمةَ إذا سقطت لا يتركها:

بل يأخذها، ويميط عنها الأذى ويأكلها، وأَنْ يَلْعَقَ يده قبلَ غسلِها.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ**»، رواه مسلم(٣).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِلَعْقِ الأَصَابِعِ وَالصَّحْفَةِ، وَقَالَ: «**إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهِ الْبَرَكَةُ**»، رواه مسلم(٤).

ومن أدب الطَّعام: ألَّا يأكلَ المرء منبطحًا على بطنه، ولا متكئًا.

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ مَطْعَمَيْنِ؛ عَنِ الْجُلُوسِ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ، وَأَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَهُوَ مُنْبَطِحٌ عَلَى بَطْنِهِ**»، رواه أبو داود(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٥٨)، وابن حِبَّان (٥٢٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨١٧) واللَّفظ له، وأبو داود (٣٧٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٧٧٤)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٣٣٧٠)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وفي رواية: «**عَلَى وَجْهِهِ**» فيكره ذلك، قيل لأَنَّهَا هيئةٌ تضرُّ بالمعدة وأمعاء الجنب، وتمنع من حسن الاستمراء لعدم بقاء المعدة على وضعها الطَّبيعيِّ.

وعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ: «**لَا آكُلُ وَأَنَا مُتَّكِئٌ**»، رواه البخاريُّ[١].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختلف في علَّة الكراهة، وأقوى ما ورد في ذلك: ما أخرجه بن أبي شيبة من طريق إبراهيم النَّخَعيِّ قال: كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكاءة مخافة أن تعظم بطونهم»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختلف في صفة الاتكاء؛ فقيل: أن يتمكَّن في الجلوس للأكل على أي صفة كان، وقيل: أن يميل على أحد شقَّيه، وقيل: أن يعتمد على يده اليسرى مِنَ الأرض.

قال الخطَّابيُّ: تحسب العامة أنَّ المتكئ هو الأكل على أحد شقَّيه، وليس كذلك، بل هو المعتمد على الوطاء الَّذِي تحته. قال: ومعنى الحديث إِنِّي لا أقعد متكئًا على الوطاء عند الأكل، فعل مَنْ يستكثر مِنَ الطَّعام، فإِنِّي لا آكل إِلَّا البلغة مِنَ الزَّادِ فلذلك أقعد مستوفزًا»[٣].

ومن أدب الطَّعام: أن لا يتأفَّف إذا لم يعجبه شيءٌ مِنَ الطَّعام، إن اشتهاه أكل وإِلَّا ترك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَابَ طَعَامًا قَطُّ، كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَشْتَهِهِ سَكَتَ**»، متَّفق عليه[٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٩٩).
(٢) فتح الباري (٩/ ٥٤٢).
(٣) فتح الباري (٩/ ٥٤١).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْتَ مَيْمُونَةَ، فَأُتِيَ بِضَبٍّ مَحْنُوذٍ، فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَقَالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ: أَخْبِرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ. فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ، فَقُلْتُ: أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**». قَالَ خَالِدٌ: فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ، متَّفق عليه(١).

ومن أدب الطَّعام: غسل اليدين من بقايا الطَّعام، خصوصًا إذا أراد أَنْ ينامَ.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ بَاتَ وَفِي يَدِهِ رِيحُ غَمَرٍ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»، رواه التِّرمذيُّ(٢).

ومن أدب الطَّعام: أَنْ يقصرَ من صوت الجشاء حَتَّى لا يؤذي جلساءه.

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَكَلْتُ لَحْمًا كَثِيرًا وَثَرِيدًا، ثُمَّ جِئْتُ فَقَعَدْتُ حِيَالَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَتَجَشَّأُ، فَقَالَ: «**أَقْصِرْ مِنْ جُشَائِكَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُهُمْ جُوعًا فِي الْآخِرَةِ**»، رواه الحاكم(٣).

ومن أدب الطَّعام: أَنْ يأكلَ باعتدالٍ، ولا يكثر مِنَ الطَّعام والشِّبع.

عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»،

(١) أخرجه البخاريُّ (١٦٨١٣)، ومسلم (١٩٤٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٥٢)، والتِّرمذيُّ (١٨٦٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٦٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع الصَّغير (٢٠٥٩).

رواه التِّرمذيُّ[(١)].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الحديثُ أصلٌ جامعٌ لأصولِ الطِّبِّ كُلِّها، وقد روي: أَنَّ ابن أبي مَاسوَيه الطَّبيب لَمَّا قرأ هذا الحديثَ في كتاب أبي خيثمة، قال: «لَوِ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، سَلِمُوا مِنَ الأَمْرَاضِ وَالأَسْقَامِ، وَلَتَعَطَّلَتِ المَارستَانَاتُ وَدَكَاكِينُ الصَّيَادِلَةِ».

وإِنَّمَا قال هذا؛ لأَنَّ أصلَ كُلِّ داءٍ التُّخَم، كما قال بعضهم: أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرَدَة، وروي مرفوعًا ولا يصِحُّ رفعُهُ.

والبردة هِي التُّخَمة، وثِقل الطَّعام على المَعِدة، سمِّيت بذلك لأَنَّهَا تُبْرِد المعدةَ فلا تَستمرِئ الطَّعام.

وقال الحارث بن كَلَدَةَ طبيب العرب: الحِميَةُ رأسُ الدَّواءِ، والبِطْنَةُ رأسُ الدَّاءِ، ورفعه بعضهم ولا يصِحُّ -أيضًا-.

وقال الحارث -أيضًا-: الَّذِي قَتَلَ البَرِيَةَ، وأهلك السِّباع في البَرِّيَّة، إدخالُ الطَّعام على الطَّعام قبل الانهضام.

وقال غيرُه: لو قيل لأهل القبور: ما كان سبب آجالكم؟ قالوا: التُّخَم.

فهذا بعض منافع تقليل الغذاء، وترك التَّملِّي مِنَ الطَّعَام بالنِّسبة إلى صلاح البدن وصحَّتِهِ»[(٢)]. اهـ

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٦٨).

(٢٦)

أَدَبُ قَضَاءِ الْحَاجَةِ وَأَدَبُ اللِّبَاسِ

الحديثُ سيكونُ عن أدبين من آدابِ الإسلامِ العظيمةِ، وهما: أَدَبُ قَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَأَدَبُ اللِّبَاسِ.

أَمَّا أَدَبُ قَضَاءِ الْحَاجَةِ:

فقد جاءت السُّنَّة النَّبَوِيَّة ببيانِ الآداب الَّتِي ينبغي أَنْ يكونَ عليها المسلمُ عند دخولِه الخلاءَ، وحال قضائه للحاجة وعند خروجه منه، وهي آدابٌ عديدة تدُلُّ على كمالِ هذه الشَّريعة المباركةِ وتَمَامِهَا.

ومَا مِنْ ريبٍ أنَّ المسلمَ يفرحُ غايةَ الفرح بتلك الآداب؛ لِمَا فيها مِنْ كَمَالِ الإحسانِ في طهارتِه ونظافتِه ونقائِه وتزكيتِه، بل إِنَّهَا مفخرةٌ للمسلمِ وأكْرِم بها من مفخرة.

عَنْ سَلمان الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل له: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ [أي: حَتَّى كيفية قضاء الحاجة] فَقَالَ: أَجَلْ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِط أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ، أَوْ عَظْمٍ»، رواه مسلم[(١)].

وفي لفظ آخر للحديث عند مسلم عن سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ لَنَا الْمُشْرِكُونَ إِنِّي أَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حَتَّى يُعَلِّمَكُمُ الْخِرَاءَةَ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢).

أَجَلْ إِنَّهُ نَهَانَا أَنْ يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِيَمِينِهِ، أَوْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالْعِظَامِ وَقَالَ: «**لَا يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِدُونِ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ**»(١).

فهؤلاء المشركون أرادوا عيبَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بما اشتمل عليه دينهم من تعاليم متعلِّقة بكيفية قضاء الحاجة، فقالوا على وجه السُّخريَّة: قد علَّمكم نبيُّكم كُلَّ شيءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ، فانبرى لهم سلمان الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُبطلًا انتقادَهم مبدِّدًا تهكُّمَهم، وقال بكُلِّ افتخارٍ واعتزازٍ: «أجل» أي: نعم، لقد علَّمنا هذا الأمرَ ونحن نفخر بذلك.

ثُمَّ أخذ يُعدِّدُ لهم شيئًا مِنَ الآداب الكريمةِ والتَّعاليمِ المباركةِ الَّتِي جاءت بها السُّنَّةُ في هذا الشَّأن، وهي بحَقٍّ هداياتٌ مباركةٌ لا يعرفها هؤلاء ونظراؤهم، وإِنَّمَا يعرفها مَنْ منحه اللهُ التَّوفيق وهداه لهذا الدِّينِ الحنيفِ، فالحمدُ للهِ على ما هدَانا، والشُّكْرُ له على ما أَوْلَانا.

وفيما يلي وقفةٌ في بيان شيء من هذه الآداب.

يُستحبُّ أوَّلًا للمسلم عند دخول الخلاء أَنْ يقولَ: بِسْمِ الله اللهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ.

عن أَنَسٍ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ قَالَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**»، متَّفق عليه(٢).

والخُبُث جمع خبيث، والخبائث جمع خبيثة، وقد جاء في بعض طرق الحديث ذِكرُ البسملة في أوَّلِهِ، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد روى العُمَرِيُّ هذا الحديثَ من طريق عبد العزيز بن المختار، عن عبد العزيز بن صُهيب بلفظ الأمر: «**إِذَا دَخلتُمُ الخَلَاءَ، فَقُولُوا: بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٤٢، ٦٣٢٢)، ومسلم (٣٧٥).

الخُبْثِ وَالخَبَائِثِ»، وإسنادُه على شرط مسلم»[(١)].

ويشهد لهذا ما رواه ابنُ ماجه وغيرُه عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**سِتْرُ مَا بَيْنَ الجِنِّ وَعَورَاتِ بَنِي آدم إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللهِ**»، وهو حديث صحيح بمجموع طرقه[(٢)].

ومِنَ الأدبِ إذا كان في سفرٍ وذهب لقضاء الحاجة أن ينطلقَ حَتَّى يَتَوَارى عن أصحابِهِ.

عَنِ المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **كَانَ إِذَا أَرَادَ الْبَرَازَ انْطَلَقَ حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ**» رواه أبو داود[(٣)].

ومِنَ السُّنَّةِ أَنْ لا يرفع ثوبَه حَتَّى يدنوَ مِنَ الأرضِ. عَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **كَانَ إِذَا أَرَادَ حَاجَةً لَا يَرْفَعُ ثَوْبَه حَتَّى يَدْنُوَ مِنَ الْأَرْضِ**» رواه أبو داود[(٤)].

ومِنَ السُّنَّة أَنْ يستَتِرَ عَنِ النَّاس. عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**كَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **لِحَاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ**» رواه مسلم[(٥)].

ومِنَ الأدبِ أَلَّا يبولَ في طريقِ النَّاس، بل هذا خلافُ الأدبِ ونقيضه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**»، قالوا: وما اللَّعَّانَانِ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ**

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه أبو داود (٢)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) أخرجه أبو داود (١٤)، والتِّرمذيُّ (١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٥) أخرجه مسلم (٣٤٢).

أَوْ ظِلِّهِمْ»، رواه مسلم[(١)].

عن معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةَ الطَّرِيقِ، وَالظِّلَّ**»، رواه أبو داود[(٢)].

ومِنْ آداب قضاء الحاجة: أَلَّا يستقبلَ المسلمُ القبلةَ بغائطٍ ولا بولٍ احترامًا لها، ولا يستَدْبِرْها، وأَلَّا يستنجي بيده اليمنى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ فَلَا يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا، وَلَا يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ**». وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، وَيَنْهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّمَّةِ، رواه أبو داود[(٣)].

والرَّوْثُ: رجيعُ ذي الحافر، والرِّمَّةُ: العظم البالي.

وتأمَّلْ ما في قوله: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُم بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ أُعَلِّمُكُم**» فهذا من تَمام رعايته وحسن نصحه، وكمال خلقه ﷺ، ورفقه بأمته، وحرصه على إفادتها والنُّصْحِ لها، فهو أنصحُ النَّاس للنَّاس، وهو أكملُ النَّاس نصحًا، وأكملهم بيانًا، وأفصحهم لسانًا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وهذا الكلام الَّذِي قالَه؛ فيه التَّبَسُّطُ معهم، وأَلَّا يتوقَّفُوا عن سؤاله عَمَّا يريدون معرفته، فكما أَنَّ الولدَ مِنَ السَّهلِ عليه أَنْ يسألَ أباه عَمَّا يَعِنُّ له ويعرض مِنَ الأمور؛ لكثرة الاتِّصال فيما بينهما، فكذلك هو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل مقامه أعظم وأجلُّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أبو داود (٨) واللَّفظ له، وحسَّنه الألبانيُّ. وأخرجه مسلم (٢٦٥) مختصرًا.

وهذا فيه بيان أَنَّ الأبناءَ عليهم أن يطيعوا الآباء فيما يأمرون به ويرشدون إليه في غير معصية اللهِ ورسولِه ﷺ، وأَنَّ على الآباء أن يُعَلِّمُوا أبناءهم ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدُّنْيا والآخرة؛ ففيه إشارة إلى التَّعليم مِنَ الآباء للأبناء، وإشارة إلى الطَّاعة مِنَ الأبناء للآباء.

وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خيرٌ مِنَ الوالدين، ويجب أن تكون محبَّتُه في قلب كُلِّ مسلمٍ أَحَبَّ مِنْ والديه وأولاده والنَّاس أجمعين، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١)؛ لأَنَّ النِّعمةَ الَّتِي ساقها اللهُ تعالى للمسلمين على يديه -وهي نعمة الإسلام- أعظم وأجلُّ نعمة، ولهذا وجب تقديم محبَّته حَتَّى تكون في القلوب والنُّفُوس أعظمَ من محبَّة الوالد والولد والنَّاس أجمعين.

ومِنَ الأدب إذا استجمر المسلمُ بعد قضائه الحاجة أَلَّا يستجمرَ بأَقَلَّ من ثلاث؛ لِمَا في ذلك من تمام الإنقاء، ولا بأسَ أن يستعملَ ما يقوم مقام الأحجار كالمناديل ونحوِها، وله أن يستنجي بالماءِ وهو أفضل.

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَجِيءُ أَنَا وَغُلَامٌ مَعَنَا إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ**». يعني: يستنجي به، متَّفق عليه(٢).

وعلى المسلم عند قضاء الحاجة أَنْ يحذرَ من رَشاش البول أن يُصيب بدنَه أو ثيابَه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي**

(١) أخرجه البخاريُّ (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٥٠) واللَّفظ له، ومسلم (٢٧١).

بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»، متَّفق عليه[١]. وفي رواية: «لَا يَسْتَنْزِهُ عَنِ الْبَوْلِ أَوْ مِنَ الْبَوْلِ»[٢] وفي رواية: «لاَ يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ»[٣]

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فروي ثلاث روايات «يستتر» بتائين مثنَّاتين، «ويستنزه» بالزَّاي والهاء، «ويستبرئ» بالباء الموحدة والهمزة وهذه الثَّالثة في البخاريِّ وغيره، وكُلُّها صحيحة، ومعناها: لا يتجنَّبه ويتحرَّز منه. والله أعلم»[٤].

ولا يجوز للمسلم أَنْ يتكلَّمَ وقت قضائه الحاجة، ولا يشتغل بشيء مِنَ الذِّكر والدُّعاء.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَنَّ رَجُلًا مَرَّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَبُولُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ» رواه مسلم[٥].

ففي الحديث دلالةٌ على أنَّ المسلمَ لا ينبغي له أَنْ يتكلَّم وقت قضاء الحاجة؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَم يَرُدَّ عليه بشيء، ولا ينبغي له كذلك أن يشتغلَ بشيء مِنَ الذِّكر والدُّعَاء، والسَّلَامُ ذِكرٌ ودُعَاءٌ، فإِنَّ النَّبِيِّ ﷺ لَم يَرُدَّ السَّلام على هذا المسلِّم.

ويُستحبُّ له إذا خرج مِنَ الخلاء أَنْ يقولَ: غُفْرَانَكَ.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الخَلَاءِ قَالَ:

(١) أخرجه البخاريُّ (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢).
(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٢٠٦٩). وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) شرح مسلم (٣/ ٢٠١).
(٥) أخرجه مسلم (٣٧٠).

«**غُفْرَانَكَ**»، رواه أحمد[(١)].

وقولُه: «غُفْرَانَكَ» في هذا المقام قيل في معناه: أي: «خَوْفًا مِنْ تقصيرِهِ في أَدَاء شُكْر هَذِهِ النِّعمة الجليلة أَنْ أَطْعَمَه ثُمَّ هَضَمَه ثُمَّ سَهَّل خُرُوجَه، فرأى شكره قاصرًا عن بلوغ حقِّ هذه النِّعمة، فتداركه بالاستغفار».

فهذه جملةٌ مِنَ الآداب العظيمة لقضاء الحاجة، ندب إليها الإسلامُ وحثَّت عليها الشَّريعة، وهي تدُلُّ على كمالِ هذا الدِّين وحسنِه وجماله.

وَأَمَّا أَدَبُ اللِّبَاسِ:

فإِنَّ من نعم اللهِ العظيمةِ على عباده نعمة اللِّبَاس بأنواعه المختلفة وأصنافه العديدة، يقول الله تعالى مذكِّرًا بهذه النِّعمة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النَّحل: ٨٠-٨٣].

فبيَّن جَلَّ وَعَلَا في هذه الآيات العظيمة نعمته على عباده بأن جعلَ لهم سرابيل، وهي القُمْصَان ونحوُها من ثياب القطن والكتَّان والصُّوف يتَّقون بها الحرَّ والبرد، ويتجمَّلون بها ويسترون بها عوراتهم.

فلا ريبَ أنَّ اللِّباس نِعمةٌ عظيمةٌ ومنَّةٌ كبيرةٌ يجب على عبد الله المؤمن أن يقومَ بشكرها، وأن يستعملَها في طاعة الله ورضوانه وما يقرِّبُ إليه، وأن يحذرَ أشدَّ الحذرِ من مخالفة أمر الله في اللِّبَاس في

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٢٠)، والتِّرمذيُّ (٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

صفته ونوعه وشروطه وضوابطه وآدابه الَّتِي جاءت بها الشَّريعة.

وليحذر المسلمُ في هذا الباب من كيد الشَّيطان ومكره وطرقه الخفيَّة لصدِّ الإنسان عَنِ الحَقِّ في هذا الباب وإيقاعه في أنواع مِنَ المخالفات، فقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ عدواةَ الشَّيطان للإنسان في هذا الأمر وغيره قديمة.

وذكر -سبحانه- في القرآن احتياله على الأبوين ووسوسته لهما؛ ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما، ودخل عليهما في هذا الأمر من طرق خفيَّة، وظهر لهما بصورة النَّاصح الأمين، وحلف لهما على ذلك، ودلَّاهما بغرور، أي أنزلهما عن رتبتهم العليَّة الَّتِي هي البعدُ عَنِ المعاصي والذُّنُوب إلى الوقوع فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٩-٢٣].

فتداركهما الله عَزَّوَجَلَّ برحمته ومنَّ عليهما بعفوه فغفر لهما ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، هذا وإبليس مستمرٌّ في طغيانه، غيرُ مقلع عن عصيانه، حريص أشدَّ الحرص على إغواء الذُّريَّة كما أغوى الأبوين.

ولهذا اتَّجه الخطاب في هذا السِّياق الكريم إلى الذُّريَّة للحذر من هذا المضُلِّ الفتَّان من أن يفتنهم بالوسوسة كما فعل مع الأبوين،

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

فذكَّرهم -سبحانه- بِمَا منَّ عليهم ويسَّر لهم مِنَ اللِّباس الباطن والظَّاهر، فاللِّباس الباطن هو تقوى الله، وهو يستمِرُّ مع العبد ولا يبلى ولا يبيد ما حافظ عليه العبد، وهو جمال للقلب والرُّوح، واللِّباس الظَّاهر هو الَّذِي يستر به المسلم عورتَه ويواري به سوأته، ويكون جمالًا له.

وإذا فقد الإنسان لباسه الظَّاهر أو نزعه بدت سوأتُه، وفي هذا دليل على أنَّ كشف العورة من عظائم الأمور، وأنَّهُ مستهجن في الطِّباع، ولذلك سُمِّيت سَوْأَةً؛ لأَنَّهُ يسوء صاحبَها انكشافُها.

وأمَّا اللِّباس الباطن وهو التَّقوى، فبتقدير عدمه، فإِنَّهَا تنكشف عورته الباطنة وينال الخزي والفضيحة، ويقع في أنواع الفساد والرَّذيلة، ويتعرَّى بذلك من كساء الحياء والخوف والمراقبة والسَّتر والعفَّة وغير ذلك، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ لأنَّه يترتَّب على صلاحه صلاح الظَّاهر، ويترتَّب على فساده فساد الظَّاهر.

ثُمَّ قال -سبحانه- بعد تذكيره بهذه النِّعمة موجِّهًا الخطاب للذُّرِّيَّة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]، فحذَّر -سبحانه- الذُّرِّيَّةَ من أن يفعل بهم الشَّيطان كما فعل بأبيهم بأن يزيِّن لهم المعاصي ويرغِّبهم في المحرَّمات ويوقعهم في الخطيئة، وأخبر -سبحانه- أَنَّ هذا العدُوَّ يراهم من حيث لا يرونه، قال قتادة: «والله إِنَّ عَدُوًّا يَرَاكَ من

حيث لَا تَرَاهُ لَشَدِيدُ الْمُؤْنَةِ؛ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ»(١).

وإذا كان هذا العدوُّ قد تمكَّن ببالغ كيده وشدَّة مكره وتوالي وسوسته أن يخرج الأبوين مِنَ الجنَّة؛ فلأن يتمكَّن من إيصال شيء من هذه المضارِّ وإلقاء شيء من هذه الوساوس إلى الذُّرِّيَّة من باب أولى، ولاسيَّما النِّساء لشِدَّةِ ضَعْفِهِنَّ وقِلَّة إدراك كثير مِنْهُنَّ.

وبهذه اللَّفتة القَوِيَّة حذَّر تعالى بني آدم منه بالاحتراز الدَّائم من كيده ووسوسته، وختم -سبحانه- الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أمَّا المؤمنون فليس له سلطان عليهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، ولهذا فبقدر ضعف الإيمان في الإنسان يكون نفوذُ الشَّيطان إليه.

ثُمَّ إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاطب بني آدم خطابًا آخر في هذا السِّياق له تعلَّق باللِّباس، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

فأخبر -سبحانه- أنَّه أخرج لعباده الزِّينة من أنواع اللِّباس على اختلاف أصنافه والطَّيِّبات مِنَ الرِّزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، وجميعُ هذه الأشياء الأصلُ فيها الإباحة والحِلُّ إِلَّا ما جاءت الشَّريعة بتحريمه من ذلك.

وليس لأحد أن يحرِّمَ شيئًا من ذلك إِلَّا بدليلٍ شرعيٍّ صريح، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، أي

---

(١) رواه عبد بن حميد وأبو الشيخ كما في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٣٥٥).

مَنْ هذا الَّذِي يُقْدِم على تحريم ما أنعم الله به على العباد؟ ومَنْ ذا الَّذِي يضيِّق عليهم ما وسَّعه الله؟.

ولهذا فالأصل في العادات مِنَ المآكل والمشارب والملابس والذَّهاب والمجيء والكلام وسائر التَّصرُّفات المعتادة؛ الحِلُّ، فلا يحرم منها إلَّا ما حرَّمه اللهُ ورسولُه، إمَّا بِنَصٍّ صريح أو يدخل في عموم أو قياس صحيح، وإلَّا فسائر العادات حلال، كما دَلَّ على ذلك النَّصُّ المتقدِّم، وكذلك قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وغيرهما مِنَ النُّصوص.

فالله جَلَّ وَعَلَا أمر عباده باللِّباس، ولم يُعيِّن نوعًا منه يجب التزامه، وإنَّمَا الأمر في ذلك عائد إلى عادات النَّاس وأعرافهم، لكِنْ جاءت الشَّريعة بجملة من الضَّوابط والشُّروط لا بُدَّ من مراعاتها في اللِّباس، وقد بسطها أهل العلم في مؤلَّفات عديدة.

ومن ذلك: أنَّهُ يحرم على المسلم أن يلبسَ مِنَ الثِّياب ما فيه تشبُّه بالكُفَّار، فقد ثبت عَنِ النَّبيِّ ﷺ النَّهيُ عَنِ التَّشبُّه بهم في أحاديث عديدة، ففي الحديث أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»، رواه أبو داود[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله ﷺ رأى عليه ثوبين معصفرين فقال: «**إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا**»، رواه مسلم[2].

كما يحرم على الرِّجال لُبْسُ الحريرِ.

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَلْبَسُوا**

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧٧).

الْحَرِيرَ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»، متَّفق عليه[(١)].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ»، متَّفق عليه[(٢)].

ورخَّص النَّبِيُّ ﷺ في لُبْسِهِ لمَنْ به حكَّة.

عن قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْبَأَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: رَخَّصَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فِي الْقُمُصِ الْحَرِيرِ فِي السَّفَرِ؛ مِنْ حِكَّةٍ كَانَتْ بِهِمَا، أَوْ وَجَعٍ كَانَ بِهِمَا، متَّفق عليه[(٣)].

وهل يجوز إلباسُه الصِّغار، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا لباس الحرير للصِّبيان الَّذين لم يبلغوا. ففيه قولان مشهوران للعلماء؛ لكنَّ أظهرهما أنَّهُ لا يجوز؛ فإنَّ ما حرِّمَ على الرِّجال فعله حرِّم عليه أن يمكِّن منه الصَّغير؛ بل عليه أن يأمرَه بالصَّلاة إذا بلغ سبع سنين ويضربَه عليها إذا بلغَ عشرًا، فكيف يَحِلُّ له أن يُلْبِسَه المحرماتِ؟!.

وقد رأى عمر بن الخطَّاب على صَبِيٍّ للزُّبير ثوبًا من حرير فمزَّقه، وقال: لا تُلْبِسُوهُم الحريرَ. وكذلك ابْنُ عُمرَ مزَّق ثوبَ حرير كان على ابْنِهِ»[(٤)].

ويحرم الإسبال في الثِّياب.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متَّفق عليه[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٥)، ومسلم (٢٠٦٩).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٩١٩)، ومسلم (٢٠٧٦) واللَّفظ له.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٤٣).
(٥) أخرجه البخاريُّ (٥٧٨٤)، ومسلم (٢٠٨٥).

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**». قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»، رواه مسلم(١).

والثَّوبُ الجميلُ الحسنُ ليس مِنَ الخُيَلَاءِ والكِبْرِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»، رواه مسلم(٢).

ويحرم كذلك لباس الشُّهْرة، وهو كُلُّ لُبْسَةٍ يكون بها مشتهرًا بين النَّاس، كالخروج من عادة أهل بلده وعشيرته، فينبغي أن يلبس مِمَّا يلبسون لئلَّا يُشار إليه بالأصابع، إلَّا إذا كانت ألبستهم مخالفة للشَّريعة فليس له موافقتهم.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، رواه أحمد(٣).

وعلى المرأة أن تحذرَ من لباس يفضي بها إلى سخط الله وعقابه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).
(٢) أخرجه مسلم (٩١).
(٣) أخرجه أحمد (٥٦٦٤)، وأبو داود (٤٠٢٩)، وحسَّنه الألبانيُّ.

كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»، رواه مسلم(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد فسِّر قولُه: «كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ» بأن تكتسي ما لا يسترها، فهي كاسية، وهي في الحقيقة عارية مثل مَنْ تكتسي الثَّوْب الرَّقيق الَّذِي يصف بشرتها؛ أَوِ الثَّوْب الضَّيِّق الَّذِي يبدي تقاطيع خلقها، مثل عجيزتها وساعدها ونحو ذلك. وإِنَّمَا كسوة المرأة ما يسترها، فلا يبدي جسمها ولا حجم أعضائها لكونه كثيفًا واسعًا»(٢).

ويحرم على الرِّجال التَّشبُّه بالنِّساء وعلى النِّساء التَّشبُّه بالرِّجال في اللِّباس وغيرِهِ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، رواه البخاريُّ(٣).

وكان أحبَّ الثِّياب إلى رسول الله ﷺ القميصُ.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقَمِيصُ، رواه أبو داود(٤).

والقميصُ: ثوب مخيط بكُمَّين غير مفرَّج، وسبب حبِّه ﷺ للقميص؛ لأَنَّهُ يستر الأعضاء أكثر مِنَ الإزار والرِّداء، ولأَنَّهُ أقلُّ مؤنةً وأخفُّ على البدن.

وكان ﷺ يحبُّ اللَّوْن الأبيض في الثِّياب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٨)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٤٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٨٨٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٠٢٥)، والتِّرمذيُّ (١٧٦٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

عَنِ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»، رواه التِّرمذيُّ[(١)].

ولا يجوز اللَّوْن الأحمر البحت؛ لِمَا في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ**، متَّفق عليه[(٢)]، أمَّا إذا كان ليس بالأحمر البحت (أي: فيه لون آخر)؛ فالصَّحيح جواز لبسه، لِمَا في الصَّحيحين عَنِ البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ**[(٣)].

ويسنُّ التَّيامُن في اللِّباس.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي نَعْلَيْهِ وَتَرَجُّلِهِ وَطُهُورِهِ**، متَّفق عليه[(٤)].

ويسنُّ لمَنْ لَبِسَ جديدًا أن يحمدَ اللهَ الَّذِي كساه إيَّاه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ إِمَّا قَمِيصًا أَوْ عِمَامَةً، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**»، رواه أبو داود[(٥)].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٨)، والتِّرمذيُّ (٩٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٨) واللَّفظ له، ومسلم (٢٠٦٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٨٤٨) واللَّفظ له، ومسلم (٢٣٣٧).
(٤) أخرجه البخاريُّ (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨) واللَّفظ له.
(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٢٠)، والتِّرمذيُّ (١٧٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قُوَّةٍ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، رواه أبو داود[١].

ويسنُّ أن يقالَ لمن لَبِسَ جديدًا: تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللهَ.

قَالَ أَبُو نَضْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا لَبِسَ أَحَدُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا؛ قِيلَ لَهُ تُبْلِى وَيُخْلِفُ اللهُ تَعَالَى، رواه أبو داود[٢].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢٧)

أَخْلَاقُ التَّاجِرِ الْمُسْلِمِ

إِنَّ مِنْ نِعمةِ اللهِ على عبادِهِ أَنْ هَيَّأَ لهم أنواعَ المكاسبِ الطَّيِّبة ووجوه الأرباح المباحة، وفتح لهم أبواب الرِّزق، وحَثَّهم على السَّعْي في طلبه وتحصيله من طرقه الَّتِي أباحها اللهُ، وحذَّرهم من تحصيله مِنَ الوجوه الَّتِي حَرَّم على عبادِهِ، القائمةِ على الظُّلْم والغِشِّ والاحتيال وغيرِ ذلك مِنَ المسالك، وتُعَدُّ التِّجارةُ محكًّا للأخلاق تظهر من خلالها معادنُ النَّاس، وتنكشف بها أخلاقُهم وتستبين طبائعُهم.

وقد جعلَ اللهُ أمْرَ الحلال بيِّنًا وأمْرَ الحرام بيِّنًا لا اشتباه فيه ولا التباس، والخللُ الَّذِي يقع في النَّاس في هذا الباب إنَّمَا هو من جهة الأخلاق.

عَنِ النُّعْمَان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسولَ ﷺ يقولَ: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»، متَّفق عليه(٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩)، واللَّفظ له.

وقد قسَّم النَّبِيُّ ﷺ الأشياءَ إلى ثلاثة أقسام:

- قِسْمٌ حِلٌّ بيِّنٌ: أي يَعْرِفُ حِلَّه كُلُّ مسلمٍ، ولا يشتبه أمره على أحد.

- والقسم الثَّاني: حرام بيِّنٌ لِكُلِّ أحد، لا يشتبه على مسلم حرمته.

- وقِسْمٌ ثالثٌ: مشتبهٌ على كثير مِنَ النَّاس، وهم مَنْ ليس عنده علمٌ ولا فقه ولا بصيرة في دين الله؛ بخلاف أهل العلم فإنَّها لا تلتبس عليهم، وبهذا يظهر مقام العلماء ومكانتهم الرَّفيعة، «**لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**» أي أنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يعلمونهنَّ، وهم العلماء الرَّاسخون والفقهاء المحقِّقُون الَّذين لا غنى للمسلمين عن نصحهم وبيانهم واستفتائهم، والاسترشاد بعلومهم وفقههم.

ولقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ الطَّريقة السَّديدة عند اشتباه الأمور والتباسها، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»؛ أي ابتعد عنها ولم يقاربها فإنَّهُ بذلك يستبرئُ لدينه أي فيما بينه وبين الله، ويستبرئُ لعرضه أي ما بينه وبين النَّاس.

أَمَّا إذا كان المرء يقارفُ الشُّبُهات ويستهين بها؛ فإنَّهُ ولا بُدَّ سينتقل يومًا إلى الحرام البيِّن، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ**».

عن وابصة بن معبدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقال: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟**» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنْ غَيْرِه، فَقَالَ: «**الْبِرُّ مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ**»، رواه أحمد(١).

عَنِ النَّواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ ﷺ: «**الْبِرُّ حُسْنُ**

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٩٩).

الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»، رواه مسلم(١).

وهذا يدُلُّ على أَنَّ اللهَ فطر عباده على معرفة الحَقِّ، والسُّكونِ إليه وقبوله، وركز في الطِّباع محبَّة ذلك، والنُّفور عن ضِدِّهِ.

فعلى العبد عندما يستريبُ في أمرٍ أهو مِنَ الحلال البيِّن أو مِنَ الحرام البيِّن؟ أَنْ يدعَه ويتورَّعَ عنه، كما في التِّرمذيِّ والنَّسائيِّ من حديث أبي محمَّد الحسن بن علي سبط رسولِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٢).

ففيه الرُّجوعُ في الأمورِ المشتبهةِ إلى حواز القلوب، فإِنَّ القلبَ يضطرب للحرام، ويسكن للحلال، والمسلم الورع يدع الصَّغيرة مخافة الكبيرة، والمحسن يدع مالا بأس به حذرًا مِمَّا به بأسٌ.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ**»، رواه أحمد(٣).

هذا حديث عظيم جدير بكُلِّ مشتغلٍ بالتِّجارة قلَّت أو كثُرَت أَنْ يتأمَّلَه وأَنْ يكونَ نُصْبَ عينه، بل ينبغي أن يُشاع بين التُّجار وفي المحلات التِّجاريَّة وبين الشَّركات؛ حَتَّى يُصَحِّحَ لمَنِ اشتغل بالتِّجارة مساره وطريقته في البيع والشَّراء والتَّعامُل، وذلك بأن تكونَ التِّجارةُ قائمةً على هذه الأسس الأربعة، لا يُساوم فيها مهما كان الرِّبح.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٨)، والنَّسائيُّ (٥٧١١)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٥٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٧١٨).

ففي الحديث معالجة حكيمة وعظيمة للفساد الَّـذِي يحصل لأخلاق النَّاس عند الإقبال على الدُّنْيَا وحطامها والتِّجارة واكتساب المال وطلب الأرباح؛ وأنَّهُ لا سلامة من ذلك إِلَّا بأن يحافظَ التَّاجر على هذه الأسس الأربعة المذكورة في الحديث، ويحرص على أن لا يخرم منها شيئًا، ويجعلها بمثابة الرَّكائز الَّتِي لا يقبل أن تضيع.

ولا يبالي إن فاتَه شيء مِنَ الدُّنْيَا ما دام محافظًا على هذه الرَّكائز، مهما عظمت المكاسب وكثرت الأرباح، فَإِنَّهَا لا تحطِّم شيئًا من هذه الأسس؛ مستحضرًا دومًا قول النَّبِيِّ ﷺ: «**فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا**»، فهو غيرُ مبال بما يفوته مِنَ الدُّنْيَا في سبيل محافظته وتمسُّكه بهذه الخلال الجليلة والخصال العظيمة المذكورة في الحديث.

والإنسان عندما يدخل مجال التِّجارة يُمْتَحن امتحانًا شديدًا في هذه الأمور الأربعة خاصَّة؛ فأحيانًا تعرض له أرباح مغرية لكنَّها تحتاج منه إلى أن يكذب أو أن يغشَّ ونحو ذلك، فيدخل في مساومة مع نفسه، هل يقبل على الرِّبح بمثل هذه المسالك؟ أم يقول كما دلَّ الحديث: لا عليَّ ما فاتني مِنَ الدُّنيا، ولْتبقَ لي هذه الأسس؟ حَتَّى لو كان في ظاهر الأمر سيخسر تلك الصَّفقة أَوِ التِّجارة أو يفوته شيء مِنَ الأرباح والمكاسب.

فقول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا**» يُعَدُّ ضمانًا للتَّاجر؛ أي فلا تأسَ على ما فات مِنَ الرِّبح وإن كبر ولا تأسف، فإِنَّكَ في خيرٍ وغنيمةٍ حَتَّى وإن فاتك هذا المال، ولك العوض المبارك مِنَ الله، ولهذا ينبغي على كُلِّ مَنْ يُقْدِمُ على تجارة أن يتنبَّه لهذه الأسس الأربعة العظيمة، وأن تكون ثابتة عنده:

الأوَّل: «حِفْظُ أَمَانَةٍ»؛ أي أن يكون أمينًا في تعاملاته؛ لا يغشُّ، ولا يخدع، ولا يمكر، أمينًا في حفظ حقوق النَّاس، وفي إعادة أموالهم،

فلا يُضَيِّع حقوقَ النَّاس بل يرعى للأمانة حَقَّها.

وقد يبتلى الإنسان عندما يدخل باب التِّجارة ويمتحن؛ هل يحافظ على الأمانة؟ أو يضيِّعها في سبيل أن يُحصِّل مالًا أو شيئًا من حطام الدُّنيا؟ فكثير مِنَ النَّاس يسقط في هذا الامتحان ويضيِّع الأمانة في سبيل أن يكسب مالًا أو عرضًا من عرض الدُّنيا ومتاعها الزَّائل.

ومِنَ النَّاس مَنْ يتعامل بالأمانة في حدودٍ ضيِّقةٍ وفي مصالحَ محدودةٍ، فهو يتعامل بالأمانة في حدود مَنْ يعاملُه بها جزاءً له من جنسِ عملهِ، فإذا وجد أمينًا عامَلَه بالأمانة، وإذا وجد خائِنًا عاملَه بالخيانَة، وليس هذا شأنُ المؤمن.

ففي «المسند» وغيرِه بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[(١)]، فالأمانة مطلوبة في كُلِّ وقتٍ وحين وفي جميع الأحوال، وهي ممدوحة في جميع أحوالها، والخيانةُ مذمومة وقبيحةٌ في جميع أحوالها، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»؛ نعم طالِبْهُ بحقِّك لكن لا تعامِلْه بالخيانة فإِنَّ الخيانةَ مذمومةٌ في كُلِّ وقت وحين.

الثَّاني: «صِدْقُ حَدِيثٍ»؛ أي: أَنَّهُ لا يكذب بل يحافظ على الصِّدْق، وعندما يُحدِّث النَّاس في بيعه وشرائه دائمًا يكون صادقًا، إذا قال لهم: «هذه البضاعة جديدة» فهو صادق في كلامه، وإذا قال: «هذا النَّوع أصيل» يكون صادقًا في كلامه، وإذا قال: «هذا مِنَ اليوم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والتِّرمذيُّ (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح. وأخرجه الطَّبرانيُّ في الكبير (٧٦٠)، والحاكم في المستدرك (٢٢٩٧)، وإسناده ضعيف، ولكن صحَّحه الألبانيُّ بشواهده كما في صحيح الجامع الصَّغير وزيادته (٢٤٠).

ليس مِنَ الأمس» يكون صادقًا في كلامه.

ويقول في نفسه: «ماذا يغنيني إذا كسبت من هذا ريالًا ومن ذاك ريالين أو عشرةً أو ألفًا أو أكثر، وضاع مِنِّي خُلُق الصِّدْق وأصبحتُ كذَّابًا؟!»، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**»(١)؛ مؤمنًا بأَنَّ الرِّزق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وليست الرِّيالات أَوِ الدَّراهم بالَّتِي تضيِّع خُلُق الصِدْق عنده، لأَنَّ الصِّدْقَ أصلٌ ثابتٌ وأساسٌ لا يساوم فيه ولا يضيِّعه، وهذا الخلق من أعظم أسباب البركة في الرِّزق.

عَنْ حَكِيم بْنِ حِزَام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا؛ فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»، متَّفق عليه(٢).

بخلاف حال مَنْ تَفسُد أخلاقياته مع ممارسة البيع والحرص على الدُّنيا والمكاسب، فيُبتَلى بصفقات معيَّنة يجد نفسه منساقًا إلى الكذب فيها، بل رُبَّمَا يحلف أيمانًا مغلَّظةً، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، وذكر منهم: «**الْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»(٣). فيبيع الصِّدْقَ ويصبح كذَّابًا من أجل اكتساب شيء مِنَ الدُّنيا ومتاعها الزَّائل.

الثَّالث: «حُسْنُ خَلِيقَةٍ» أي: يعامل النَّاس بالأخلاق الحسنة وبالآداب الكريمة، والمشتغل بالتِّجارة والبيع والشَّراء يشاهد من أصناف

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢١١٠)، ومسلم (١٥٣٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٠٦) من حديث أبي ذَرٍّ.

أخلاقيات النَّاس واختلاف طبائعهم بل سيِّئي المعاملة منهم شيئًا كثيرًا.

ودوام الاحتكاك بالنَّاس في البيع والشَّراء والمعاملات تؤثِّر على الأخلاق تأثيرًا سلبيًا إن لم يُحافظ على هذه الرَّكيزة المبيَّنة في هذا الحديث «حُسْنُ الخَلِيقَة»؛ فيصبح التَّاجر حينئذٍ في صراع مع نفسه للمحافظة على حُسن خلقه، لا أن يبيع أخلاقه في السُّوق باحتكاكه بسَيِّئي الأخلاق مِنَ النَّاس.

إذ إنَّ بعض النَّاس بسبب معايشته لأصنافٍ مِنَ النَّاس وحاجته للبيع والتِّجارة أصبح لعَّانًا طعَّانًا بذيئًا سيِّءَ الخُلُق، اكتسب هذا في تجارته وفي معاملته للنَّاس، فضيَّع هذه الخصلة بسبب اقتحامه التِّجارة ودخوله فيها دون محافظةٍ على هذه الرَّكيزة العظيمة.

والتَّاجر المسلم النَّاصح لنفسه لا يجعل التِّجارة واحتكاكه بالنَّاس سببًا لضياع الأخلاق، وماذا يربح الإنسان إذا حصَّل مالًا وفسدت أخلاقه؟! وماذا تغني عنه أمواله وماذا تنفعه إذا فسدت الأخلاق؟!

الرَّابع: قال: «عِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ»؛ أي: أن يتعفَّفَ في طعامه وذلك بالحرص على اكتساب الحلال والبُعد عَنِ الحرام والمتشابه، كما تقدَّم في الحديث: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ**»(١).

فهو حريص على عِفَّة مطعمه؛ أي: الطَّعام العفيف الَّذي ليس فيه

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بشير.

حرام وليس فيه شائبة حرام، فإذا كان البيع فيه رِبًا، أو غشٌّ، أو تدليسٌ، أو صورةٌ من صور البيوع المحرمة في الشَّريعة ابتعد عنه تمامًا؟ لأَنَّ مِنَ الأصول الثَّابتة عنده عِفَّة المطعم، لا يفرط فيها، فيقتصر على الأرباح الَّتِي لا ينخرم فيها هذا الأصل.

بخلاف بعض النَّاس مِمَّن يدخل التِّجارة وميدانَ اكتساب الرِّبح ولا يبالي في قضية عِفَّة المطعم، ولا يبالي بالمال الَّذِي اكتسبه هل هو من حلال أو من حرام؟ بل بعضهم قاعدته في هذا الباب: «الحلال ما حلَّ بيدك، والحرام ما حُرِمتَ منه»، فالَّذِي حلَّ بيده وصار في حيازته من أي طريق كان هو الحلال، والحرام ما لم تَطَله يده ولم ينله، فلا يبالي بحلال أو حرام.

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ لَحمٍ نَبتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**»[(١)]، وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**»[(٢)] أي: كيف يستجاب لمن كانت هذه حاله؟!

ولهذا قالَ بعضُ السَّلف: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ دَعْوَتَهُ، فَلْيُطِبْ طُعْمَتَهُ». فهذا باب حريٌّ بالتَّاجر المسلم أن يعنى به تفقُّهًا وعملًا، فلا يُدخل على نفسه مِنَ الطَّعام والشَّراب شيئًا إِلَّا بعد تفقُّهٍ، فإذا كان طيِّبًا طَعِمَهُ وشَرِبَه، وإذا كان حرامًا أو مشتبهًا تركه وابتعد عنه؛ لأَنَّ مِنَ الأصول الثَّابتة عنده: طيب المطعم، لا يُساوَم في هذا الأصل، بل هو عنده مِنَ الأمور الثَّابتة الرَّاسخة.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٦١٤)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلْيُحَافظِ التَّاجرُ المسلمُ على هذه الرَّكائز الأربعة، ولا يضيِّع منها شيئًا ولْيَحذرْ مِنَ الشَّيطان والنَّفْس الأمَّارة بالسُّوء، فهو ميدان تمحيصٍ للأخلاق، ولا يضرُّ المرءَ ما فاته مِنَ الدُّنْيَا ما دام محافظًا على هذه الرَّكائز، كما تقدَّم في وصيَّة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّهُ سيفوز بالعاقبة الحميدة في الدُّنْيَا والآخرة.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى**»، رواه البخاريُّ[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه الحَضُّ على السَّماحةِ في المعاملةِ، واستعمال معالي الأخلاق، وتركُ المشاحَّةِ، والحَضُّ على ترك التَّضييق على النَّاس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»[(٢)].

وهكذا كان نبيُّنا ﷺ في تعاملاته.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ قَدْ أَعْيَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسَيِّبَهُ، قَالَ: فَلَحِقَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَا لِي، وَضَرَبَهُ فَسَارَ سَيْرًا لَمْ يَسِرْ مِثْلَهُ. قَالَ: «**بِعْنِيهِ بِوُقِيَّةٍ**». قُلْتُ: لَا. ثُمَّ قَالَ: «**بِعْنِيهِ**». فَبِعْتُهُ بِوُقِيَّةٍ وَاسْتَثْنَيْتُ عَلَيْهِ حُمْلَانَهُ إِلَى أَهْلِي، فَلَمَّا بَلَغْتُ أَتَيْتُهُ بِالْجَمَلِ فَنَقَدَنِي ثَمَنَهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَأَرْسَلَ فِي أَثَرِي فَقَالَ: «**أَتُرَانِي مَاكَسْتُكَ لِآخُذَ جَمَلَكَ؛ خُذْ جَمَلَكَ وَدَرَاهِمَكَ فَهُوَ لَكَ**»، متَّفق عليه[(٣)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنْتُ عَلَى بَكْرٍ صَعْبٍ لِعُمَرَ، فَكَانَ يَغْلِبُنِي فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ الْقَوْمِ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «**بِعْنِيهِ**» قَالَ: هُوَ لَكَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٠٧٦).
(٢) فتح الباري (٤/ ٣٠٧).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥)، واللَّفظ له.

يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**بِعْنِيهِ**» فَبَاعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ**»، رواه البخاريُّ(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ بَعِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْطُوهُ**»، فَقَالُوا: مَا نَجِدُ إِلَّا سِنًّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَاكَ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْطُوهُ؛ فَإِنَّ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَحْسَنَهُمْ قَضَاءً**»، رواه البخاري(٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ**»، رواه البخاريُّ(٣).

ومِنَ الأخلاقِ الكريمةِ: إقالةُ النَّادم في بيعته:

وهذا يدُلُّ على كرمِ النَّفْس وسخائها. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ**»(٤).

وصورة إقالة البيع: إذا اشترى أحدٌ شيئًا من رجل، ثُمَّ ندم على اشترائه؛ إمَّا لزوالِ حاجته إليه، أو لانعدام الثَّمن أو نحو ذلك، فرَدَّ المبيع على البائع وقبل البائع ردَّهُ؛ أزال اللهُ مشقَّته وعثرته يومَ القيامة؛ لأَنَّهُ إحسان منه على المشتري، لأَنَّ البيعَ كان قد بُتَّ فلا يستطيع المشتري فسخه.

ومِنَ الأخلاقِ الكريمةِ: إنظار المعسر والحَطُّ عنه:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي

(١) أخرجه البخاريُّ (٢١١٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٣٩٢)، واللَّفظ له، ومسلم (١٦٠١).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٠٧٨)، واللَّفظ له، ومسلم (١٥٦٢).
(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصارِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسَرِ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ مَعَهُ ضِمَامَةٌ مِنْ صُحُفٍ، وَعَلَى أَبِي الْيَسَرِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا عَمِّ إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ سَفْعَةً مِنْ غَضَبٍ.

قَالَ: أَجَلْ، كَانَ لِي عَلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ الْحَرَامِيِّ مَالٌ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمْتُ، فَقُلْتُ: ثَمَّ هُوَ؟ قَالُوا: لَا. فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنٌ لَهُ جَفْرٌ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: سَمِعَ صَوْتَكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي. فَقُلْتُ: اخْرُجْ إِلَيَّ، فَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ أَنْتَ. فَخَرَجَ.

فَقُلْتُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنِ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَنَا وَاللهِ أُحَدِّثُكَ ثُمَّ لَا أَكْذِبُكَ، خَشِيتُ وَاللهِ أَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبَكَ، وَأَنْ أَعِدَكَ فَأُخْلِفَكَ، وَكُنْتَ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُنْتُ وَاللهِ مُعْسِرًا. قَالَ قُلْتُ: آللَّهِ؟ قَالَ: اللهِ. قُلْتُ: آللَّهِ؟ قَالَ: اللهِ. قُلْتُ: آللَّهِ؟ قَالَ: اللهِ. قَالَ: فَأَتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بِيَدِهِ، فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي، وَإِلَّا أَنْتَ فِي حِلٍّ.

فَأَشْهَدُ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ -وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ- وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذَا -وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ- رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ**»، رواه مسلم(١).

ويجب الحذر في هذا المقام من جميع التَّعاملات المحرَّمة؛ فإنَّ الوقوعَ فيها ضياع للأخلاق ووقوع في الإثم وممحقة للبركة؛ كالتَّطفيف في الكيل أَوِ الوزن أَوِ العدد، وقد حذَّر اللهُ تعالى من ذلك أشدَّ التَّحذير، وتوعَّد فاعلَه بالعذاب الشَّديد، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

وكالتَّعامل بالرِّبا، وبيع الغرر، وبيع العِينة، والتِّجارة بالمحرمات وكالغشِّ والخداع، أو أن يُخْفِي عيوبَ بضاعته، أو يُظهِرَ كذبًا محاسنَ ليست فيها، أو يكذب في جودتها وحسنها، أو غير ذلك من أنواع الغشِّ والحيل، وغير ذلك مِنَ التَّعاملات القائمة على الكذب، والخيانة، والتَّزوير، وأكل الحرام.

ويجب الحذر مِنَ النَّجَش والتَّحاسد، وسوم الرَّجل على سوم أخيه، ونحو ذلك مِمَّا يتنافى مع الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ** -قَالَ إِسْمَاعِيلُ فِي حَدِيثِهِ: **وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**- **التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثًا، بِحَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»، رواه أحمد(١).

وَلْنَخْتِم بقصَّةٍ عظيمةٍ لصدِّيقِ الأُمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٢٢).

أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ، رواه البخاريُّ[(١)].

فهذه قصَّة عظيمة تُرْوَى في هذا الباب العظيم؛ باب الزِّهد والورع والتَّعفُّف عَنِ الحرام والبعد عَنِ المتشابه والآثام، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي تُروى عنه هذه القصَّة هو الَّذي روى عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قال: «**كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ عَلَى سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**»، أخرجه الطَّبرانيُّ[(٢)].

وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جديرٌ بهذا المقام الرَّفيع والمنزلة العليَّة مِنَ الورع، تقيَّأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الطَّعام ليبقى جوفه نظيفًا نقيا، وليقوم جسده على طعامٍ حلالٍ لا شائبة فيه؛ ليعيش حياةً ملؤها الورع والنَّزاهة، وليبني جسده على ما أحلَّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى له.

وفيما أحلَّه اللهُ لعباده غنيةٌ عمَّا حرَّمه جَلَّ وَعَلَا، وقد قال بعضُ السَّلف -وهو محمَّد بن سيرين- فيما رواه الإمام أحمد في كتابه الزُّهد[(٣)]: «لَمْ أَعْلَم أَحَدًا اسْتَقَاءَ مِنْ طَعَام غَيْرَ أَبِي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذَكَر الخبر المتقدِّم». وجديرٌ بكُلِّ مؤمن أن يضع هذه القصَّة العظيمة نبراسًا له، لاسيَّما في زماننا هذا الَّذي قلَّ حظُّ كثير مِنَ النَّاس فيه مِنَ الوَرَعِ.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٨٤٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧١٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١)، والبيهقيُّ في الشُّعَب (٥٣٧٥). وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع الصَّغير وزيادته (٤٥١٩).

(٣) أخرجه أحمد في الزُّهد (٥٧٢).

(٢٨)
آدَابُ بُيُوتِ اللهِ

إِنَّ المساجدَ -بيوتَ اللهِ- أَحَبُّ بقاعِ الأرضِ إِلَيْهِ -سبحانه-؛ فيها أنسُ المؤمنين، وراحةُ قلوبهم، وطمأنينةُ نفوسهم، وقرَّةُ أعينهم، وفيها رفعةُ الدَّرجات، وعلوُّ المنازل، وغفرانُ الذُّنوب، وتكفيرُ السَّيِّئات والخطيئات، ونيلُ رضوان رَبِّ الأرض والسَّماوات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**»، رواه مسلم(٤).

وذلك أَنَّ المساجدَ تميَّزت بكثرةِ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وإقام الصَّلاة، وتلاوة القرآن، وعقد حِلَق العلم والفقه في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، إلى غير ذلك مِنَ الأمور العظيمة الكبيرة الحبيبة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بخلاف الأسواق؛ فإِنَّهُ يوجد فيها مِنَ اللَّغط والصَّخَب والتَّعاملات المحرَّمة والأعمال السَّيِّئة، إلى غير ذلك مِمَّا يكون في الأسواق.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ**». قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ**

---

(٤) أخرجه مسلم (٦٧١).

الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»، رواه مسلم[(١)].

والمساجدُ بيوتٌ أذِن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه، دعا جَلَّ وَعَلَا عباده إلى بنائها وتشييدها، ودعا جَلَّ وَعَلَا إلى عمارتها؛ بعبادته صلاةً، وذكرًا لله، وقراءةً للقرآن، وتعلُّمًا للعلم، ودعوةً إلى الهدى والخير.

ويكفي المساجد شرفًا أَنَّهَا بيوتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أضافها الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ إلى نفسه تشريفًا لها وتعليةً لقدرها، وبيانًا لعظيم مكانتها، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنّ:١٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ؛ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»، رواه مسلم[(٢)].

وللمساجد آداب خاصَّة لا بُدَّ من رعايتها والعناية بها، فإنَّ ذلك مِنَ التَّعظيم لبيوت الله الَّتِي هي أحبُّ بقاع الأرض إليه -سبحانه-.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النُّور:٣٦-٣٧]، وقولُه جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ هذا جماع ما يتعلَّق بالمساجد من أحكام وآداب، فرفعُها يتناول تشييدها وبناءها، وتنظيفها والعناية بها، وصيانتها من كُلِّ مؤذٍ، وذكر الله فيها يتناول الصَّلاة والقرآن والعلم وغير ذلك، فجَمَعت الآيةُ أحكامَ المساجد كُلَّها.

وتأمَّلْ -رعاك اللهُ- ذكرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرُّجولة في هذا السِّياق: ﴿فِي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٦).

بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾، فالرُّجُولة بأبهى صورها وأجمل حُللها أن يقف الرَّجُلُ مع الرِّجال في بيوتِ الله خمسَ مرَّات في اليوم واللَّيلة حيث ينادى بهِنَّ فيها.

وقد غاب هذا المعنى العظيم من معاني الرُّجُولة عند المفرطين في ارتياد المساجد، فتراهم رجالا بأجسامٍ قويَّة وأبدان صحيحة لكن لا يشهدون الصَّلاة في المساجد!! فأين هم عن هذا المعنى العظيم للرُّجُولة حيث أثنى الله على رُوَّاد المساجد بهذا الوصف: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؟

فهم يتاجرون ويكتسبون ويعملون على تحصيل مصالحهم، لكنَّ شيئًا من ذلك لا يشغلهم عَنِ المساجد ولا يبعدهم عن بيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بل قلوبهم معلَّقة بالمساجد، عرفوا لبيوت الله حَقَّها ومكانتها، ورعوا ما ينبغي أن يقوم به المسلم تجاهها، فعمروها حَقًّا وصِدْقًا طاعةً وعبوديَّةً لله.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التَّوبة:١٨]، وهذه الآية الكريمة فيها بيان العمارة الحقيقيَّة لبيوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأَنَّهَا تجمع تحقيق أمرين عظيمين: صلاحَ العقيدة، وحسنَ العمل.

أمَّا صلاحُ العقيدة؛ ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فإنَّ الأساسَ الَّذي تُبنى عليه العمارة الحقيقيَّة لبيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صحَّة المعتقد وسلامة الإيمان.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ آمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربًّا خالقًا رازقًا منعِمًا متفضِّلًا، وآمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وكماله

وجلاله وعظمته وكبريائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ هو المعبود بحَقٍّ ولا معبودَ بِحَقٍّ سواه.

فله يخضع وإليه يلتجئ، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يركع ويسجد، وإِيَّاه يدعو وإليه يتوسَّل، ومنه يطلب جميع حاجاته وكُلَّ رغباته، لا مفزعَ له ولا ملجأَ إِلَّا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يدعو إِلَّا الله، ولا يسأل إِلَّا الله، ولا يستغيث إِلَّا بالله، ولا يذبح إِلَّا لله، ولا يطلب المدد والعون إِلَّا مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فصحَّت عقيدتُه بالله وصحَّ إيمانُه به -سبحانه-.

وعندما يقع الخللُ في هذا الأصلِ العظيم تبطل الأعمال وتحبط ولو كثرت، لأَنَّ عمارة المساجد أساسها الَّذِي عليه تبنى صحَّة العقيدة وصحَّة الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ واليوم الآخر دارِ الجزاء والحساب.

وأوَّل ما يُسأل عنه العبد في اليوم الآخر يوم يلقى اللهَ عَزَّوَجَلَّ هذه الصَّلاة، فهما موقفان يقِفهما العبد بين يدي الله؛ إن صلح الأوَّل صلح الثَّاني وإن فسد الأوَّل خاب وخسر، الموقف الأوَّل في الدُّنْيَا هو هذه الصَّلاة والثَّاني في الدَّار الآخرة وهو موقف الحساب.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

أَمَّا حُسْنُ العمل، ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التَّوبة:١٨]؛ فهذا عمارة المساجد بالأعمال والطَّاعات والتَّقرُّب إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالعمل الصَّالح المقرِّب إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقيام العمل الصَّالح المقرِّب إلى اللهِ على الإخلاص للمعبود والمتابعة

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والتِّرمذيُّ (٤١٣)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

للرَّسُول الكريم، عليه صلوات الله وسلامه.

والمساجد قرَّة عيون أهل الإيمان، وسلوة نفوسهم، وبهجة صدورهم، ومهوى أفئدتهم، وأُنس خواطرهم وراحتُهم وسعادتهم؛ فيها المصلِّي وفيها الذَّاكر، وفيها التَّالي للقرآن، وفيها المنتظر للصَّلاة بعد الصَّلاة المرابط المحتسِب.

فهي أمكنة مباركة وبقعٌ فاضلة حبيبة إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينبغي على كُلِّ مَنْ أكرمه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن كان من أهل المساجد ومن أهل الصَّلاة في بيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومِمَّن يجيب نداء الله: أن يرعى لبيوت الله آدابها، وأن يعرف ما ينبغي أن يتحلَّى به تجاه هذه البقاع الفاضلة والأماكن الحبيبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والحديث عن آداب المساجد يتناول:

- **أوَّلًا:** استعداد مَنْ سيذهب إلى المسجد وهو في بيته؛ بم يستعدُّ؟ وكيف يستعدُّ؟ وكيف يتهيَّأ؟.

- **ويتناول:** ما ينبغي أن يكون عليه من أدبٍ في طريقه إلى بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **ويتناول:** ما يكون عليه من أدب عند دخول بيوت الله، وما يكون عليه من أدب داخل بيوت الله، وكذلك في خروجه من بيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالشَّريعةُ جاءت بآدابٍ عظيمة جليلة؛ تحقيقُ العبد لها وقيامه بها عُنْوانُ فلاحه ودليل صلاحه وأمارة قيامه بما أُمِرَ به، ولهذا حَرِيٌّ بالمؤمن -الَّذِي هو من أهل المساجد- أَنْ يُعنى بآداب المساجد.

يشرع للمسلم وهو يتهيَّأُ في بيته ليخرج إلى الصَّلاة جملة مِنَ الآداب يجدر به أن يُعنى بها:

أساسها وأعظمها -بل أساس كُلِّ أَمْرٍ- أن يصلحَ نيَّته، وأن يخلِصَ مقصده، وأن ينوي بعمله وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

ولا يزال المرء إلى أن يموت يُزاحَم على نيَّته، وتأتيه الأمور الَّتِي تُخِلُّ بنيَّته وتفسد عليه مقصده، فالنِّيَّة تحتاج إلى معالجة مستمرَّة، قال سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي»(١).

فيحرص أن يكونَ خروجُه من بيته إلى المساجد قائمًا على الإخلاص وقصدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعمل، وقد تقدَّم قولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنّ:١٨]، فينوي بخروجه طاعةَ الله، والتَّقرُّبَ إليه، وطلبَ رضاه، والفوزَ برحمته، فيكون مخلصًا في عمله لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وليس كُلُّ مَنْ أتى المساجد يكون مخلصًا في إتيانه إليها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَتَى الْمَسْجِدَ لِشَيْءٍ فَهُوَ حَظُّهُ**»، رواه أبو داود(٢). أي فهو نصيبه. قد يكون إتيانه مراءاة أو سمعة أو يبتغي حظًّا مِنَ الدُّنْيَا، فمَنْ أتى المسجد لشيء فهو حَظُّه، أي: مَنْ أتى المسجدَ مرائيًا لا ينال أجور المخلصين وثواب الصَّادقين، حَتَّى وإن وقف إلى جنبهم في الصَّفِّ.

ولهذا يتفاوت المصلُّون -مع اشتراكهم في صورة العمل- تفاوتًا عظيمًا في صلاتهم؛ بحسب ما قام في قلوبهم من إخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يقبل العمل إِلَّا إذا كان خالصًا لوجهه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ**

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (٦٩٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وَشِرْكَهُ»، رواه مسلم[١].

ثُمَّ على مَنْ أراد الخروج إلى المسجد أن يعني بنظافة بدنه:

وألَّا يكون فيه روائح تؤذي المصلِّين، وتؤذي أيضًا ملائكة الله في بيوت الله. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّوم** -وَقَالَ مَرَّةً: **مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ**- **فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»، رواه مسلم[٢].

وهكذا مَنْ كان مبتلًى بالتَّدخين عليه أن يرعى لبيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حرمتها، وأن يعرف لها حَقَّها ومكانتها، فلا يؤذي المصلِّين بتلك الرَّائحة، إن تمكن من تركه كُلِّيًّا فهو خيرٌ له، وإن لم يستطع وغلبته نفْسُه فلا أقَلَّ من أن يُعنى بنظافة نفْسِه، وبُعده عن دخول بيوت الله بتلك الرَّائحة، فهي رائحة يتأذَّى منها المصلُّون، وتتأذَّى منها الملائكة «**فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**».

ومِنَ الاستعداد للصَّلاة في البيت: أن يحرص على أن يتطهَّر في بيته:

وهذا جاء فيه أحاديث، وبعض النَّاس يتهاون في هذا الأمر، ورُبَّمَا أجَّل الطَّهارة إلى أن يصل إلى دورات المياه الَّتي تكون إلى جوار المساجد، فالأوْلى بالمسلم أن يتطهَّرَ في بيته ليخرج من بيته إلى المساجد طاهرًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ؛ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»، رواه مسلم[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٨٥٤) مختصرًا، ومسلم (٥٦٤) واللَّفظ له.
(٣) أخرجه مسلم (٦٦٦).

كذلك مِنَ الآداب: أن يحرصَ المسلم على سماع المؤذِّن، وأن يقول مثلما يقول:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ؛ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»، رواه مسلم(١).

وسماع الأذان والتَّرداد مع المؤذن يكسو العبد طمأنينة في نفسه، وإقبالًا على الصَّلاة وانصرافًا عن شواغل الدُّنيا وملهياتها، بخلاف مَنْ لا يستمع للأذان ويمضي متشاغلًا بأحاديثه ومشاغله، فمثل هذا قد يؤثر عليه حَتَّى في حضوره للصَّلاة أَوِ التَّأخُّر عنها.

كذلك مِنَ الآداب أن يحرص على التَّبكير والتَّهجير؛ فإذا سمع الأذان أجاب داعي الله ولبَّى النِّداء، فيترك أعماله وأشغاله، إن كان في سوق الدُّنْيَا فليتركه لأَنَّ سوقَ الآخرة أقبل، فيتوقَّف عن جميع أعماله وأشغاله وأموره، ويتوضَّأ ويذهب إلى المسجد، بل مِنَ الأفضلِ أن لا يؤذِّن إلَّا وهو على طهارة حرصًا على العبادة ومبادرةً إليها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»، متَّفق عليه(٢).

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

ثُمَّ إذا خرج من بيته متجهًا إلى المسجد أتي بذكر الخروج مِنَ المنزل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**». قَالَ: «**يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟**»، رواه أبو داود(١).

وهذا يُشرع أن يقال في كُلِّ مرَّة يخرج فيها المسلم من بيته لمصلحة دينيَّة أو دنيويَّة، فيخرج مستعينًا بالله؛ لأَنَّ هذه الكلمات كُلَّها كلماتُ استعانةٍ.

وإذا أضيف إليها ما جاء في حديث أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو في سنن أبي داود: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(٢)؛ فهذا أكمل، فيكون محفوظًا بحفظ الله مُعانًا مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتنحَّى عنه الشَّيطانُ.

و«**الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ**»(٣) كما صحَّ بذلك الحديث، ومن ذلك طريقه إلى المسجد، فيجدر بالمسلم إذا خرج من بيته أن يأتي بهذا الذِّكر؛ ليتنحَّى عنه الشَّيطان فيكون في سلامة من وساوسه.

ثُمَّ في طريقه للمسجد يحرص على السَّكينة والوقار، فهو ليس في أَيِّ طريق، وإِنَّمَا في طريقٍ لبيت من بيوت الله لإقامة فريضة من أعظم فرائض الله فيستشعر ذلك، فيمضي إلى بيت الله راشدًا بسكينة ووقار.

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا**

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٣١٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ؛ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ؛ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»، رواه البخاريُّ[(١)].

ويعين على ذلك: أن يذكر: أن مَنْ يعمِد إلى المسجد للصَّلاة فهو في صلاة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ؛ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**»، رواه مسلم[(٢)].

فيقبِل على بيت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذه الصِّفة، وهذا أعون على الخشوع في الصَّلاة وحُسن الإقبال فيها على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بخلاف من يأتي مسرعًا أو عَدْوًا؛ فإِنَّهُ لا يتمكَّن مَنْ أَنْ يؤدِّي صلاته بخشوع وطمأنينة.

ومِنَ الأدب في الطَّريق إلى المسجد: أَلَّا يشبِّك بين أصابعه؛ لأنَّهُ في صلاة.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى الْمَسْجِدِ؛ فَلَا يُشَبِّكَنَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٣)].

وهذا من تمام السَّكينة، والبعد عَمَّا يشغل الإنسان، فتكون أعضاؤه ساكنة؛ لا يعبث بأصابعه ولا يلهو بها.

والمبتلى بالتدخين إذا دخن في طريقه إلى المسجد يقال له: أتدخن وأنت في صلاة؟! فإن من عمد إلى الصلاة فهو في صلاة، ناهيك عن الأذى العظيم للمصلين والملائكة.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٩٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٦٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦٢)، والتِّرمذيُّ (٣٨٦) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ

ثُمَّ إذا وصل إلى باب المسجد؛ يدخل بيت الله جَلَّ وَعَلَا معظمًا لبيته ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجّ:٣٢]، مستشعرًا عظمة المكان ليدخل المسجد دخولًا يليق بشرف الموضع الَّذي دخله.

وعند دخوله المسجد يقدّم رجله اليمنى اتّباعًا لهدي نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مِنَ السُّنَّةِ إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُمْنَى، وَإِذَا خَرَجْتَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُسْرَى، رواه الحاكم(١).

ثُمَّ يأتي بذكر الدُّخول، فيقول عند دخول المسجد: «بِسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحمَتِكَ»(٢)، وهذا ثبت في أحاديث، ويضاف إليه التَّعوُّذ مِنَ الشَّيطان.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيم، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيم، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم**». قَالَ: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»، رواه أبو داود(٣).

وعند الخروج مِنَ المسجد يقول: «بِسْمِ اللهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»(٤).

ثُمَّ يبادر إذا دخل المسجد لأداء تحيَّة المسجد.

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٧١٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه مسلم (٧١٣).

أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ؛ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»، متفق عليه(١).

ثُمَّ يحرص على التَّقدُّمِ إلى الصُّفوف الأُوَل، كما تقدَّم في الحديث: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا**»(٢).

وينبغي أَنْ يحرصَ على أداء الصَّلاة وفق هَدْيِ النَّبيِّ الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ القائل: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(٣)، وتُتَمَّ الصُّفوفُ الأَوَّل فالأوَّل، وتُسَدَّ الفُرج، ولا تترك فرجات للشَّيطان، وأن يلين المسلم بأيدي إخوانه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِى إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ**»، رواه أبو داود(٤).

وبعد انقضاء الصَّلاة يعتني بالأذكار المأثورة عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أدبار الصَّلوات المكتوبة، فإِنَّ فيها زيادةَ الثَّواب وجبْرَ النَّقص الَّذي يكون في صلاته.

وحرص المرء على البقاء في المسجد منتظرًا للصَّلاة ثوابه عند الله عظيم. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ، لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٣١)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه أبو داود (٦٦٦)، وصححه الألبانيُّ.

إِلَّا الصَّلَاةُ»، متَّفق عليه[١].

ولهذا يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ رَأَى أَنَّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ لَيْسَ فِي صَلَاةٍ إِلَّا مَنْ كَانَ قَائِمًا يُصَلِّي، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْقَهْ»[٢].

ويجب أَنْ تصانَ المساجد عَنِ الأقذارِ والأوساخ وإن كان شيئًا يسيرًا.

عن محمَّد بنِ العبَّاس الْفِرَبْرِيِّ، قالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْبُخَارِيِّ بِفِرَبْر فِي الْمَسْجِدِ، فَدَفَعْتُ مِنْ لِحْيَتِهِ قَذَاةً مِثْلَ الذَّرَّةِ أَذْكُرُهَا، فَأَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهَا فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «أَلْقِهَا خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ»[٣].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ الْمَسْجِدَ يُصَانُ حَتَّى عَنِ الْقَذَاةِ، الَّتِي تَقَعُ فِي الْعَيْنِ»[٤]، فما الشَّأن إذًا في قطع المناديل، وقوارير الماء، ونوى التَّمر ونحوها، مِمَّا لا يبالي البعض بتركها في المساجد.

ومن رسالة المسجد العظيمة تعليم العلم وتعلُّمه، وفي ذلك ثواب عظيم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»، رواه مسلم[٥].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٩)، ومسلم (٦٤٩).
(٢) ذكره البغويُّ في شرح السُّنَّة (٢/ ٣٥٩).
(٣) ذكره الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٣٣١)، والذَّهبيُّ في سير أعلام النُّبلاء (١٢/ ٤٤٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٠٢).
(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢٩)

آدَابُ الرُّكُوبِ وَالسَّفَرِ

إِنَّ من محاسن الشَّريعة ما هدت إليه من آداب عظيمة تتعلَّق بركوب الدَّابَّة والسَّفر، وقد كان هَدْيُ النَّبِيِّ ﷺ في ذلك أكملَ الهدي وأتَمَّه، كيف لا وهو أكملُ النَّاس سيرة وأجملُهم وأزكاهم سريرة، وفيما يلي عرضٌ لشيء من هديه صلوات الله وسلامه عليه في ذلك.

عن عليِّ بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شَهِدْتُ عَلِيًّا وَأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: الحَمْدُ للهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزُّخرف:١٣]، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثُمَّ ضَحِكَ.

فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؛ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**»، رواه أبو داود(١).

وكان من هديه ﷺ إذا ركب دابَّته مسافرًا أن يسأل الله أن يكتب له البرَّ

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والتِّرمذيُّ (٣٤٤٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

والتَّقوى في سفره، وأن يُيَسِّر له العمل الصَّالح الَّذِي يرضيه، وأن يهوِّن عليه السَّفر، وأن يعيذَه فيه مِنَ العواقب السَّيِّئة في نفسه أو ماله أو أهله.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرف:١٣-١٤]، **اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفرِنَا هَذَا البرَّ وَالتقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ، وَإِذَا رَجعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، رواه مسلم[(١)].

قولُه: «**اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفرِنَا هَذَا البرَّ وَالتقْوَى**» البِرُّ فعل الطَّاعات والتَّقوى ترك المعاصي والذُّنوب، هذا عند اجتماعهما في الذِّكر كما في هذا النَّصِّ، وأَمَّا إذا ذُكِر كُلُّ واحد منهما منفردًا فإِنَّهُ يتناول معنى الآخر.

وقولُه: «**اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنا سَفرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ**» أي: يسِّره لنا وقصِّر لنا مسافته.

وقولُه: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفرِ**» المراد بالصَّحبة المعيةُ الخاصَّة الَّتِي تقتضي الحفظ والعون والتَّأييد، ومَنْ كان اللهُ معه فمِمَّن يخاف.

وقولُه: «**وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» الخليفة مَنْ يَخْلف مَنِ استخلفه فيما استخلف فيه، والمعنى أَنِّي أعتمد عليك وحْدَك يا الله في حفظ أهلي.

وقولُه: «**اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفرِ**» أي: من مشقَّته وتعبه.

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٩٥)، ومسلم (١٣٤٢) واللَّفظ له.

وقولُه: «**وَكَآبَةِ المَنْظَرِ**» أي: سوء الحال والانكسار بسبب الحزن والألم.

وقولُه: «**وَسُوءِ المُنْقَلَبِ**» أي: الانقلاب والقفول مِنَ السَّفر بما يُحزن ويسوء، سواء في نفسه أو في ماله وأهله.

وقولُه: «**وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**» مِنَ السُّنَّة أَنْ يُقال هذا عند القفول، وأن يُقال كذلك عند الإشراف على بلده والقرب منه؛ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى المَدِينَةِ قَالَ: «**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى دَخَلَ المَدِينَةَ**»، متَّفق عليه(١).

وقولُه: «**آيِبُونَ**» أي: نحن آيبون، من آب إذا رجع، والمراد راجعون بالسَّلامة والخير.

وقولُه: «**تَائِبُونَ**» أي: إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من ذنوبنا وتفريطنا.

وقولُه: «**لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**» أي: لنعمه العظيمة وعطاياه الجسيمة وتسهيله وتيسيره.

وإذا دخل على أهله قال: توبًا توبًا، لِرَبِّنَا أوبًا، لا يغادر علينا حَوبًا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى سَفَرٍ قَالَ: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الضُّبْنَةِ فِي السَّفَرِ، وَالْكَآبَةِ فِي الْمُنْقَلَبِ، اللهُمَّ اطْوِ لَنَا الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ**» وَإِذَا أَرَادَ الرُّجُوعَ قَالَ: «**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، وَإِذَا دَخَلَ أَهْلَهُ قَالَ: «**تَوْبًا تَوْبًا، لِرَبِّنَا أَوْبًا، لَا يُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْبًا**»، رواه أحمد(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠٨٥)، ومسلم (١٣٤٥) واللَّفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١١)، وابن حِبَّان (٢٧١٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ومِنَ السُّنَّة التَّكبيرُ عند صعود الأشراف والأماكن المرتفعة، والتَّسبيح عند نزول الأودية والأمكنة المنخفضة.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**كُنَّا إِذا صَعَدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وفي التَّكبير في الصُّعود شغلٌ للقلب واللِّسان بتعظيم الرَّبِّ، وإعلان كبريائه وعظمته، وفيه طردٌ للكِبْرِ والعُجْب والغرور. وفي التَّسبيح في الهبوط تَنْزيهٌ لله عَزَّوَجَلَّ عَنِ النَّقائص والعيوب، وعن كُلِّ ما يُنافي ويُضادُّ كماله و جلاله.

وكان من هديه ﷺ: الدُّعاء لِمَن أراد السَّفر بالحفظ وحسن العاقبة وتيسير الأمر، مع الوصيَّة بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إذا أَرَادَ سَفَرًا: ادْنُ مِنِّي أُوَدِّعُكَ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوَدِّعُنَا، فَيَقُولُ: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٢)]. أي: أسأل اللهَ أن يحفظها عليك.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**»، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ: «**اللهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٣)].

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٩٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٠)، والتِّرمذيُّ (٣٤٤٣) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٩٨)، والتِّرمذيُّ (٣٤٤٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي، قَالَ: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى**». قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: «**وَغَفَرَ ذَنْبَكَ**». قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. قَالَ: «**وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»، رواه التِّرمذيُّ(١).

وكان يوصي مَنْ أرادَ السَّفر أن يدعو لِمَن يُخلِّف بأن يكون في وداع الله وحفظه.

عن موسى بن وردان قال: أتيتُ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُودِّعه لسفر أردته، فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألَا أعلِّمُك يا ابْنَ أَخِي شَيْئًا عَلَّمَنِيه رَسُولُ اللهِ ﷺ أقوله عند الوداع؟ قال: قلت: بلَى، قال: قل: «أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ»، رواه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة(٢).

ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ودَّعني رَسُولُ اللهِ فقال، وذكره، أي: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يَحْفَظُ مَا اسْتُودِعَ(٣).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ**»، رواه أحمد(٤).

قال ابنُ عبد البَرِّ في كتاب بهجة المجالس: «إذا خرجَ أحدُكُم إلى سفرٍ فليودِّع إخوانَه، فإنَّ اللهَ جاعلٌ في دعائهم بركةً، قال: وقال الشَّعبيُّ: السُّنَّةُ إذا قَدِمَ رَجُلٌ من سفرٍ أَنْ يأتيه إخوانُه فيسلمون عليه، وإذا خرجَ إلى سَفَرٍ أن يأتيهم فيودعُهم ويغنمُ دعاءهم»(٥).

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٤٤٤)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن السُّنِّيِّ في عمل اليوم واللَّيلة (٥٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٢٨٢٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) أخرجه أحمد (٥٦٠٥).

(٥) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص: ٥٠).

ويستحب للمسافر إذا نزل منزلًا يدعو بدعاء المنزل؛ لِيَسْلَمَ ويُحْفَظَ بإذن الله.

عن خَوْلَةَ بِنْت حَكِيم السُّلَمِيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**»، رواه مسلم(١).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ وقَوْلٌ صَادقٌ، عَلِمْنَا صِدْقَه دَلِيلًا وتَجْرِبةً، فَإِنِّي مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا الخبرَ عَمِلْتُ عَلَيهِ فَلَمْ يضرَّنِي شَيءٌ إلى أَنْ تركتُه، فَلَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ بالمهدية لَيْلًا، فتفكَّرتُ في نَفْسِي فإِذَا بِي قَدْ نَسِيتُ أَنْ أَتَعوَّذَ بتلك الكَلِمَاتِ»(٢).

وكان من هديه ﷺ حثُّ المسافرِ إذا قَضَى حاجَتَه في سفره أَنْ يُعَجِّلَ بالرُّجوعِ إلى أهله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**»، رواه البخاريُّ(٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفِي الحديثِ كراهةُ التَّغرُّبِ عَنِ الأهلِ لغيرِ حاجَةٍ، واستحبابُ استعجالِ الرُّجُوعِ، ولا سيَّما مَنْ يخشى عليهم الضَّيعة بالغيبة، ولِمَا فِي الإقامةِ في الأهلِ مِنَ الرَّاحة المعينة على صَلَاحِ الدِّينِ والدُّنْيَا، ولِمَا في الإقامةِ مِنْ تَحْصِيلِ الْجَمَاعَاتِ وَالقُوَّةِ عَلَى العِبَادَةِ»(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).
(٢) المفهم (٧/ ٣٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧).
(٤) الفتح (٣/ ٦٢٣).

وتكره الوحدة في السَّفر:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**»، رواه البخاريُّ[(١)].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**»، رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه أَنَّهُ التَّفرُّد والذَّهاب وحْدَه في الأرضِ مِنْ فِعْلِ الشَّيطانِ، وهو شَيءٌ يَحْمِلُهُ عَلَيهِ الشَّيطانُ ويدعُوه إِلَيهِ، وكَذَلِكَ الاثْنَانِ، فإذا صَارُوا ثَلاثةً فهو رَكْبٌ -أي: جماعةٌ- وصَحْبٌ».

قال: «والمنفردُ في السَّفرِ إِنْ ماتَ لم يكن بحضرته مَنْ يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده مَنْ يُوصِي إليه في مالِه ويحمل تركته إلى أهله، ويورد خبره إليهم، ولا معه في سفره من يعينه على الحمولة، فإذا كَانُوا ثلاثةً تعاونوا وتناوبوا المهنة والحِرَاسَة، وصَلَّوْا الجماعةَ وأحرزوا الحَظَّ فيها»[(٣)].

ويستحب للمسافرين إذا كانوا جماعةً أن يؤمروا عليهم أحدهم لتنتظم أمورهم في الإقامة والارتحال والطَّعام ونحو ذلك.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**»، رواه أبو داود[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٩٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (١٦٧٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) معالم السُّنن (١/ ٢).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، واللَّفظ له، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح، وهو في مسلم (٦٧٢) بنحوه.

ويحرم على المرأة السَّفر بلا محرم

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»، متَّفق عليه(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»، متَّفق عليه(٢).

وعَنِ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ «انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»، متَّفق عليه(٣).

ومن هَدْيِ السَّلف في السَّفر التَّناهد.

قيل للإمام أحمد: أَيُّهُمَا أحبُّ إليك؛ يعتزل الرَّجُل في الطَّعام أو يرافق؟ قال: يرافق، هذا أرفق، يتعاونون، إذا كنت وَحْدَكَ لم يمكنك الطَّبْخ ولا غيرُه، ولا بأس بالنَّهْدِ قد تَنَاهَدَ الصَّالِحُونَ(٤).

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى النَّهْدِ أن يخرجَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الرِّفقة شيئًا مِنَ النَّفقةِ يدفعونه إلى رَجُلٍ ينفقُ عليهم منه ويأكلون جميعًا، وإِنْ أَكَلَ بعضُهم أكثرَ مِنْ بعضٍ فلا بَأْسَ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٠٨٦)، ومسلم (١٣٣٨)، واللَّفظ له.

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩)، واللَّفظ له.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

(٤) ذكره ابن قدامة في المغني (١٣/ ٣٧)، وابن مفلح في الآداب الشَّرعيَّة (٣/ ١٩٣).

(٥) الآداب الشَّرعيَّة (٣/ ١٩٣).

وكان من هديه ﷺ في السَّفر أَنَّهُ يُحِبُّ الخروجَ يومَ الخميسِ في أوَّل النَّهار.

عن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لقلما كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ إِذَا خرج في سفر، إِلَّا يَوْمَ الْخَمِيسِ، رواه البخاري[(١)].

وعَنْ صَخْرٍ الغَامِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**». قَالَ: وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً، أَوْ جَيْشًا، بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ. وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ، رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

وكان من هديه في السَّفر صلاةُ النَّافلة على راحلته وإن لم يكن على القبلةِ.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي السَّفَرِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ يُومِئُ إِيمَاءً صَلَاةَ اللَّيْلِ إِلَّا الْفَرَائِضَ، وَيُوتِرُ عَلَى رَاحِلَتِهِ**»، متفق عليه[(٣)].

وكان مِنْ هَدْيِه ﷺ إذا رأى قريةً يريد دخولها سأَلَ اللهَ خيرَها، وتعوَّذَ به مِنْ شَرِّهَا.

عن صُهَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَمَا أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَمَا أَقْلَلْنَ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ ومَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا**

---

(١) أخرجه البخاريِّ (٢٩٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦)، والتِّرمذيُّ (١٢١٢)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٠٠٠)، واللَّفظ له، ومسلم (٧٠٠).

وَشَرِّ مَا فِيهَا»، رواه النَّسائيُّ[(١)].

ويستحب الاجتماع عند النُّزول

عن أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنزِلًا -قَالَ عَمْرٌو: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْزِلًا- تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يُقَالُ لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ، رواه أبو داود[(٢)].

والمراد بحيث لا يُضَيِّقُ بعضُهم على بعضٍ.

ومن هديه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَلَّا يكونَ المبيت في السَّفر قريبًا مِنَ الطَّريق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «**إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ**»، رواه مسلم[(٣)].

والتَّعريس: النُّزول في اللَّيل للنَّوم والرَّاحة.

قال النَّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهَذَا أدبٌ مِنْ آدابِ السَّير والنُّزول، أرشد إليه ﷺ؛ لأَنَّ الحشراتِ ودوابَّ الأرضِ مِنْ ذواتِ السُّموم والسِّباع تمشي في اللَّيل على الطَّريق لسهولتها، ولأَنَّهَا تلتقط منها ما يسقط من مأكول ونحوه، وما تجد فيها من رِمَّة ونحوها، فإذا عرَّس الإنسانُ في

(١) أخرجه النَّسائيُّ في الكبرى (٨٧٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في تخريج الكلم الطَّيِّب (١٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٦).

الطَّريق رُبَّمَا مرَّ به منها ما يؤذيه، فينبغي أن يتباعد عَنِ الطَّريق»(١).

وينبغي للمسافر أن يحتاط للقيام لصَّلاة الفجر، ولا سيَّما إِنْ نَامَ متأخِّرًا ومجهدًا.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: «**مَنْ يَكْلَؤُنَا اللَّيْلَةَ لَا نَرْقُدُ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ؟**» فَقَالَ بِلَالٌ: أَنَا. فَاسْتَقْبَلَ مَطْلَعَ الشَّمْسِ، فَضُرِبَ عَلَى آذَانِهِمْ، فَمَا أَيْقَظَهُمْ إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ، فَقَامُوا فَأَدَّوْهَا، ثُمَّ تَوَضَّئُوا فَأَذَّنَ بِلَالٌ، فَصَلَّوْا الرَّكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّوْا الْفَجْرَ، رواه أحمد(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَارَ لَيْلَهُ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْكَرَى عَرَّسَ، وَقَالَ لِبِلَالٍ: «**اكْلأْ لَنَا اللَّيْلَ**». فَصَلَّى بِلَالٌ مَا قُدِّرَ لَهُ وَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَلَمَّا تَقَارَبَ الْفَجْرُ اسْتَنَدَ بِلَالٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ مُوَاجِهَ الْفَجْرِ؛ فَغَلَبَتْ بِلَالًا عَيْنَاهُ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ.

فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا بِلَالٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى ضَرَبَتْهُمُ الشَّمْسُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوَّلَهُمُ اسْتِيقَاظًا، فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ «**أَيْ بِلَالُ**». فَقَالَ بِلَالٌ: أَخَذَ بِنَفْسِى الَّذِى أَخَذَ -بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللهِ- بِنَفْسِكَ قَالَ «**اقْتَادُوا**».

فَاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شَيْئًا، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: «**مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾** [طه: ١٤]»،

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٤٦)، والنَّسائيُّ (٦٢٤)، وصحَّح إسناده الألبانيُّ.

رواه مسلم[١].

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ فَعَرَّسَ بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينِهِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ، رواه مسلم[٢].

وفي زماننا تيسَّرَتْ وسائلُ دقيقة للتَّنبيه فيجب على المسلم ضبطُ الوقت ليؤدِّي الصَّلاة في وقتها كما أمره اللهُ.

ويستحبُّ السَّير باللَّيل إذا سلم الطَّريق مِنَ الخطر.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ**»، رواه أبو داود[٣].

ودعوة المسافر مستجابة؛ فَلْيَحْرِصْ على الاستكثار مِنَ الدُّعاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ؛ دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ**»، رواه أبو داود[٤].

وكان من هدية ﷺ مراعاةُ الرِّفقة في السَّفر، ومعاونةُ من يحتاج المعونةَ منهم.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ؛ فَيُزْجِي الضَّعِيفَ، وَيُرْدِفُ وَيَدْعُو لَهُمْ، رواه أبو داود[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨٠).
(٢) أخرجه مسلم (٦٨٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٧١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والتِّرمذيُّ (١٩٠٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٥) أخرجه أبو داود (٢٦٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

ويُكْرَهُ قدوم المسافر على أهله ليلًا:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا؛ يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ، رواه مسلم(١).

وفي رواية: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَطَالَ الرَّجُلُ الْغَيْبَةَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ طُرُوقًا(٢).

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى هذِهِ الرِّواياتِ كُلِّهَا أَنَّهُ يُكْرَهُ لِمَنْ طَالَ سفرُه أن يقدُمَ على امرأتِه ليلًا بغتةً؛ فأَمَّا مَنْ كانَ سفرُه قريبًا تتوقَّع امرأتُه إِتْيَانَه لَيْلًا فلا بأسَ، كما قال في إحدى هذه الرِّواياتِ إذا أطالَ الرَّجُلُ الْغَيْبَةَ»(٣). ويزول هذا الإشكال في زماننا بالتَّواصُل عبر الهاتف، والعلم بموعد المجيء.

ويستحبُّ صلاةُ ركعتين في المسجد إذا وصل إلى بلده

عَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ضُحًى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ، رواه البخاريُّ(٤).

هذا، وإنَّ من نِعَمِ اللهِ على عباده في هذ الزَّمان ما هُيِّئَ لهم ويُسِّرَ من وسائل النَّقل الَّتي يركبونها، وينتقلون عليها من مكان إلى مكان، ويحملون عليها أمتعتهم وأثقالهم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ

(١) أخرجه البخاريُّ (١٨٠١)، ومسلم (٧١٥) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه مسلم (٧١٥).
(٣) شرح مسلم (١٣/ ٧١).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٠٨٨)، واللَّفظ له، ومسلم (٧١٦).

لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النَّحل:٥-٨].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزُّخرف:١٢-١٤].

وإذا كانَتِ النِّعمةُ على مَنْ قبلنا عظيمةً بأن يسَّرَ لهم مِنَ الفلك والأنعام ما يركبون، فإِنَّ النِّعمةَ علينا في هذا الباب أكبَرُ؛ حيثُ يسَّرَ لنا وسائل النَّقل الحديثة الحسنة في مركبها، المريحة في تحرُّكِها وتنقُّلِها، الجميلة في شكلها ومنظرها.

ويسَّرَ مع ذلك طرقها وذلَّل سبلها، وهيَّأ كُلَّ الوسائل المحقِّقة للرَّاحة فيها، ينتقل النَّاس عليها من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد بلا مشقَّة أو تعب.

وإذا كان من قبلنا يكابدون في أسفارهم وهج الصَّحراء وحرارة الجوِّ ولفح السُّموم والأعاصير، فإِنَّ النَّاس في هذا الزَّمان لا يشعرون بشيء من ذلك؛ لأَنَّهُم ينتقلون في عربات مغلقة وأجواء مكيَّفة ومقاعد مريحة وثيرة.

فلله ما أعظمها من نعمةٍ وأجلَّها مِنْ مِنَّةٍ تستوجبُ شُكْرَ المنعم بها والمتفضِّل بتيسيرها، فالحمد لله على ما أولانا، ونسأله سبحانه أن يوزعنا شُكْرَها، وأن يعيذَنا من كُفْرَانِهَا، وأن يوفقنا لاستعمالها فيما يرضيه.

وإِنَّ مِنَ الظَّواهر المؤسفة المتعلِّقة بوسائل النَّقل وبخاصَّة السَّيَّارات كثرة الحوادث المروِّعة، فأصبح المصابون بها ما بين كسير وجريح وميِّت، ليس بالأفراد فحَسْب ولكنْ بالأفراد تارةً وبالجماعات تارةً.

وقد جاء في رصد إحصائيٍّ لعدد المُتَوَفَّيْنَ والمُصَابِينَ في حوادث السَّيَّارات خلال السَّنوات العشر الماضية ذكر أعداد مخيفة وأرقام مفزعة ومآس محزنة.

ولاشكَّ أن وراء كثير من ذلك مخالفات وتجاوزات لم يجنِ أصحابها ومسببوها منها سوى مرارة تلك المآسي ونكد تلك الآلام؛ أرواح تهدر ونفوس تروَّع وأموال تضيَّع نتيجة تلك الممارسات الخاطئة والمخالفة لأنظمة المرور أَوِ الخروج عليها.

إِنَّ الوعي في هذا الباب الخطير مطلوبٌ من كُلِّ مَنْ يمتلك سيارة ينطلق فيها بين المسلمين ليراعي حقوقهم وليحفظ حرماتهم، ولئلا يعرض واحدًا منهم إلى شيء من تلك الأخطار، وفي الحديث يقول ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ**»، متَّفق عليه[(١)]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»، رواه مسلم[(٢)].

فهل راعى أولئك المتجاوزون هذه الأحاديث وأمثالها؛ ليطمئنَّ النَّاس في طرقاتهم، وليأمنوا في سيرهم، ولِتَقِلَّ تلك المآسي والأخطار بينهم؟!.

ومِمَّا ينبغي أن يعلمَ في هذا المقام: أَنَّ طاعةَ ولي الأمر بالتزام الأنظمة المروريَّة الَّتِي تخدم مصالح النَّاس وتنظم سيرهم أمرٌ واجبٌ يأثم المسلمُ بتركه، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النِّساء: ٥٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣٠)
قَوَاعِدُ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ

إِنَّ النَّفْسَ الَّتِي بين جَنْبَيْ الإنسانِ أمرُهَا عظيمٌ، وشأنُها كبيرٌ، فقد أقسم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بعددٍ مِن مخلوقاته الكِبَار الدَّالَّةِ على عظمَتِهِ -سبحانه- في سورة الشَّمس على النَّفْسِ المُفلِحة، وغيرِ المُفلِحة، فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمس: ١-١٠].

قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أي أَنَّ مَنْ سعى في تزكية نفْسِهِ، وإصلاحها، وسُمُوِّها بالاستكثار مِنَ الطَّاعات والخيرات، والابتعاد عَنِ المعاصي والسَّيِّئات تحقَّق فلاحُه.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: أي مَنْ حقَّرَ نفْسَهُ الكريمةَ بِفِعل الآثامِ، وقَمَعها وأهلكها بفعل الذُّنوب استحقَّ بذلك الخيبةَ والخُسران.

ولمَّا كانت تزكية النَّفس بهذه الأهمية وجبَ على كُلِّ مسلمٍ نَاصِحٍ لنفْسِهِ أَنْ يُعْنَى بها عنايةً فائقةً، وأَنْ يُجاهِدَ نفْسَهُ على تحقيقِ هذه الغاية الحميدة؛ لِيُفلِحَ في دُنياهُ وأُخراه، وينعَمَ بالسَّعادة الحقيقيَّة.

فإِنَّ للنَّفس على المسلمِ حقًّا، كما قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ

لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[(١)]، ويُخطِئُ مَنْ يَظُنُّ أنَّ حَقَّ النَّفْسِ يكونُ بالتَّشديد عليها وحِرْمانها مِن حُقُوقها الَّتِي فطرَ اللهُ النُّفُوسَ على الاحتياجِ إليها، كَمَا يُخطِئُ مَنْ يظُنُّ أنَّ حقَّ النَّفسِ يكونُ بالتَّفريطِ، وإهمالِ سِياسَتِها، وتركها منغمسةً في شهواتها.

وسأذكر فيما يلي قواعدَ مهمَّةً، تُعينُ المسلمَ على تزكيةِ نفْسِهِ بالأعمالِ الفاضلةِ والأخلاقِ الكاملةِ، وتطهيرها مِمَّا يُدنِّسُهَا ويشينُها من سَيِّءِ الأعمالِ وذميمِ الأخلاقِ[(٢)].

القَاعِدَةُ الأُولَى: أَنَّ التَّوحيدُ أَصْلُ ما تزكو به النُّفوس إذ هو الغاية الَّتِي مِنْ أجلِهَا خلقَنَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وأوجدَنا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وهو مِحْوَرُ دعوةِ الأنبياء والرُّسُلِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦].

وقد توعَّد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذين لا يُزكُّونَ أنفسَهم بالتَّوحيدِ والإيمان بالعذاب الشَّديد يومَ القيامةِ فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصِّلت:٦].

قال ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية السَّابقة: «هِيَ التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ الَّذِي بِهِ يَزْكُو القَلْبُ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ إِلَهِيَّةِ مَا سِوَى الْحَقِّ مِنَ القَلْبِ، وَإِثْبَاتَ إِلَهِيَّةِ الحَقِّ فِي القَلْبِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَهَذَا أَصْلُ مَا تَزْكُو بِهِ القُلُوبُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٦٩)، من حديث عائشة، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) وهي ملخَّصةٌ من رسالة لي مطبوعةٍ بعُنْوان «عَشْرُ قَوَاعِدَ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ».
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالَ أكثرُ المفسرينَ مِنَ السَّلفِ ومَنْ بعدَهم: هِيَ التَّوحيدُ؛ شَهادَةُ أَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، والإيمانُ الَّذِي به يَزْكُو القلبُ...وهو أصْلُ كُلِّ زَكاةٍ وَنَماءٍ...»(١).

وكما أنَّ التَّوحيدَ هو أَصْلُ ما تزكو به النُّفوسُ وتَطْهُرُ، فإنَّ الشِّركَ هو أشدُّ ما يُدَنِّسُ النُّفُوسَ ويَفْتِكُ بها، بل هو مُحبِطٌ لجميع الأعمالِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمر: ٦٥].

فمتى أخلص العبدُ الذُّلَّ لله والمحبَّة له خلصت أعماله وصحَّت، وزكت نفْسُه وطابت، ومَتَى أَدْخَلَ عليها ما يَشُوبُها مِنْ شوائِبِ الشِّرْكِ دَخَلَ على نفْسِهِ مِنَ الدَّنَسِ والتَّدسِية بحسب ذلك.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الدُّعاءَ مِفتاحُ زكاةِ النُّفُوس وهو من أفضل العبادات عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأَنَّ فيه إظهارًا للعَجزِ والافتِقارِ، والتَّذلُّلِ، والانكِسارِ، والاعترافِ بقُوَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وغناه وكمال تصرُّفه وتدبيره.

وله أثرٌ عظيمٌ في فتح أبواب الخير؛ كما قال شيخ الإسلام في وصيَّتهِ لأبي القاسم المغربيِّ: «الدُّعاءُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيرٍ»(٢).

فكُلُّ خيرٍ ترجوه لنفسك وتريده من خيرات الدُّنْيَا والآخرة، فاطلبه مِنَ اللهِ والْجَأْ إليه في نيله وتحصيله. وقد وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ دعاه والْتجَأَ إليه بالإجابة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

عن مُطرِّف بنِ الشِّخير قال: «تَذَكَّرْتُ مَا جِمَاعُ الخَيرِ، فَإِذَا الْخَيرُ كَثِيرٌ: الصَّومُ، وَالصَّلاَةُ، وَإِذَا هُوَ في يَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِذَا أَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٣).

مَا فِي يَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا أَنْ تَسْأَلَهُ فَيُعطِيَكَ، فإِذَا جِمَاعُ الْخَيْرِ الدُّعَاءُ»، أخرجه الإمام أحمد في «الزُّهد»(١).

وفي «باب التَّزكية» صحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال في دعائه: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»، أخرجه مسلم(٢).

وفي هذا الدُّعاء إشارةٌ وتنبيهٌ على أنَّ تزكية النُّفوس بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علَّام الغيوب، وأنَّ مفتاحَها الأعظمَ هو الدُّعاءُ والافتِقارُ إلى الله تعالى. ولهذا كان أكثر دعاء النَّبِيِّ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(٣).

فمتى اجتمع على العبد قلبُهُ، وصدقت ضَرُورَتُهُ وفَاقَتُهُ، وقَوِي رجَاؤُه، ولم يَتَعَجَّلِ الإجابة، وتحرَّى الأوقاتَ الفاضلةَ، فلا يكادُ يُرَدُّ دعاؤُهُ.

وأعظمُ ما يعينُك على الدُّعاءِ معرفَتُك أَنَّ زكاةَ نفسِك بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذِي يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، والأَمْرُ كُلُّه له، وتَحْتَ مشيئَتِهِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١].

يقول ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قولِه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾: «مَا اهْتَدَى أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ لِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ يَنْفَعُ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَتَّقِ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ يَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ»(٤)، أي: كُلُّ ذلك إِنَّمَا هو بمَحْضِ فَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد في الزُّهد (١٣٤٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه الطَّبريُّ في جامع البيان (١٧/ ٢٢٢).

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ مَنْبَعُ التَّزْكِيَةِ ومَعِينُهَا

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فأعظمُ ما تزكو به النَّفس القرآنُ الكريمُ، الَّذِي هو كِتَابُ التَّزكيةِ ومَنبعُها ومَعينُها ومَصدرها، فمَنْ أرادَ لنفْسِهِ التَّزْكِيَةَ فَلْيَطْلُبْهَا في كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ضَمِنَ اللهُ لِمَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «الْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الأَدْوَاءِ القَلْبِيَّةِ والْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(٢).

قال ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ»(٣).

فإذا أكرمَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عبدَهُ بتلاوة القرآن وتدبُّرِهِ ومجاهدة النَّفس على العمل به؛ نال مِنَ التَّزكية أوفرَ نصيب.

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: اتِّخَاذُ الأُسْوَةِ والقُدْوَةِ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٤٧٨١).
(٢) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢).
(٣) أخرجه الطَّبريُّ في جامع البيان (١/ ٧٤).

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ»(١).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالَ قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا نُحِبُّ رَبَّنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]»(٢).

اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ والتَّأسِّي به دليلٌ على صِدْق محبَّة اللهِ تعالى؛ لأَنَّ الاتِّباع والاقتداء بالنَّبِيِّ ﷺ والسَّير على منهاجه القويم هو عين التَّزكية، ولا يمكن الوصول إليها بغير ما جاء به الرَّسول ﷺ.

قال الإمام سفيان بن عُيَينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هُوَ المِيزَانُ الْأَكْبَرُ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الأَشْيَاءُ؛ عَلَى خُلُقِهِ، وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ البَاطِلُ»(٣).

ولهذا وجب على مَنْ أرادَ تزكية نفْسِه أَنْ يُجاهدَ نفسَه على الاتِّبَاع، والاقتداء، والتَّأسِّي بالرَّسول ﷺ، والحذر مِنَ المحدثات والبدع فإِنَّها كُلَّها ضلالةٌ.

القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ حقيقةَ التَّزكيةِ: تَخْلِيةُ النَّفْسِ أَوَّلًا؛ بتطهيرها عَنِ الرَّذائل والمعاصي والذُّنوب، ثُمَّ تَحْلِيَتِهَا بعدَ ذلك بفعلِ الطَّاعات والقربات، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم

(١) التَّفسير (٦/ ٣٩١).
(٢) أخرجه الطَّبريُّ في جامع البيان (٥/ ٣٢٥).
(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع (١/ ٧٩).

بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التَّوبة:١٠٣]، فقوله تعالى: ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ ﴾: فيه إشارةٌ إلى مقامِ التَّخلية عَنِ السَّيِّئات بتطهيرهم مِنَ الذُّنوب، وقوله تعالى ﴿ وَتُزَكِّيهِم ﴾: فيه إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائلِ والحسناتِ، وتقديم التَّطهيرِ على التَّزكية من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية.

فلا بُدَّ لِمَنْ أراد تزكيةَ نفسِهِ أَنْ يُقْلِعَ أوَّلًا عَنِ الذُّنوب والآثام الَّتِي تُفسِدُ القلبَ، وتحجِبُ عنه نورَ الهداية والإيمان.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَالتَّزْكِيَةُ وَإِنْ كَانَ أَصْلَهَا النَّمَاءُ وَالبَرَكَةُ وَزِيَادَةُ الخَيْرِ، فَإِنَّمَا تَحْصُلُ بِإِزَالَةِ الشَّرِّ؛ فَلِهَذَا صَارَ التَّزَكِّي يَجْمَعُ هَذَا وَهَذَا»[(١)].

وقال الإمام السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النِّساء:٤٩]: «أي: بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ **بالتَّخلِّي** عَنِ الأخلاقِ الرَّذيلةِ، **والتَّحلِّي** بالصِّفاتِ الجميلةِ»[(٢)].

القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: إغلاقُ المنافذِ الَّتِي تُخْرِجُ الإنسانَ عَنِ التَّزكيةِ وتُبْعده عَنِ الفضيلةِ وتوقعه في الرَّذيلة؛ فيحتاج العبدُ حاجةً ماسَّةً إلى إغلاقِ المنافذ الَّتِي تُدَنِّسُ نفسَهُ وتُدَسِّيها، وقد ضُرِبَ لنا في السُّنَّة مَثَلٌ يُبيِّن خطورة وُلوج العبد فيما يضيِّعُ عليه دينَهُ.

ففي الحديث قال ﷺ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا**

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).
(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص: ١٨٢).

مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»، أخرجه الإمام أحمد(١).

قال الحافظ ابن رجب الحنبليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَنْ كان في الدُّنْيَا قد خرج عَنِ الاستقامةِ على الصِّراط، ففتح أبواب المحارم الَّتِي في ستور الصِّراط يمنةً ويسرةً، ودخل إليها -سواءُ كانت المحارم مِنَ الشَّهوات أو مِنَ الشُّبُهات- أخذته الكلاليب الَّتِي على ذلك الصِّراط يمنةً ويسرةً، بحَسَبِ ما فَتَح في الدُّنْيَا من أبواب المحارم ودخل إليها»(٢).

فينبغي على العبد أن يكون عاقلًا كيِّسًا فيسألَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ الصَّبرَ والنَّجاةَ، وأن يقطعَ كُلَّ الطُّرُق المؤدِّية لضياع نفْسِه وهلاكِهَا؛ فدينُ العبدِ رأسُ ماله، وفي ضياعه خسارة الدُّنْيَا والآخرة.

القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ تَذَكُّرُ الموت، ولقاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ﴾ [الحشر:١٨].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»، يعني الموت. أخرجه ابن ماجه(٣).

والموتُ هو الفيصل بين هذه الدَّار ودار القرار، والفاصل بين وقت العمل والجزاء عليه، وهو الحَدُّ الفارقُ بين تقديم الزَّاد وملاقاة جزائه، فلا مجالَ بعْدَه للتَّوبة والاستِغفار مِنَ السَّيِّئات، ولا مجالَ بعْدَه للاستِكثار مِنَ

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤)، والتِّرمذيُّ (٢٨٥٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) التَّفسير (١/ ٩٠).
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣٠٧)، والنَّسائيُّ (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وقال الألبانيُّ: حسن صحيح.

الحسنات كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النِّساء:١٨].

ثمَّ هو مُدرِكٌ كُلَّ النَّاس لا محالةَ، وملاقيهم بلا ريبَ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّساء:٧٨].

ففي ذكرِ العبدِ للموت منفعةٌ عظيمةٌ؛ فبذلك تستيقظُ القلوبُ الغافلةُ، وتحيا القلوبُ الميتةُ، ويحسن إقبال العبد على الله، وتزول الغفلة والإعراض عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال سعيد بن جُبير: «لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ المَوْتِ قَلْبِي خَشِيتُ أَنْ يَفْسُدَ عَلَيَّ قَلْبِي»[(١)].

ولا يَزالُ العبدُ بخير ما كان ناظرًا لموقِفِه بين يدي اللهِ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ بعد مماته، ومصيره بعدَ الممات.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُٱللَّهُ: يقول إبراهيم التيميُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَثَّلتُ نَفْسِي فِي الجَنَّةِ؛ آكُلُ ثِمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأُعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَّلتُ نَفْسِي فِي النَّارِ؛ آكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأُعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَالَهَا؛ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: (أَيْ نَفْسِي! أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدِينَ؟)، قَالَتْ: (أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلَ صَالِحًا) قَالَ: قُلْتُ: (فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ فَاعْمَلِي)»[(٢)].

(١) أخرجه أحمد في الزُّهد (٢١٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٩).
(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في محاسبة النَّفس (١٠)، واللَّفظ له، وأخرجه أحمد في الزُّهد (٢١٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١١).

القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ تَخَيُّرُ الجلساءِ وانتقاءُ الرُّفَقَاءِ قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «فيها الأمرُ بصحبةِ الأخيارِ، ومجاهدةُ النَّفسِ على صحبتِهم، ومُخَالطَتِهم، وإنْ كانُوا فقراءَ؛ فإنَّ في صحبتهم مِنَ الفَوَائِدِ مَا لَا يُحْصَى»(١).

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(٢). أخرجه أبو داود.

قال أبو سليمان الخطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «قولُه: (**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**) معناه: لا تُخالل إلَّا مَنْ رَضيتَ دينَهُ وأمانته، فإنَّك إذا خاللته قادك إلى دينه ومَذهبه، ولا تُغرِّر بدينكِ، ولا تُخاطِر بنفسِكَ فتُخالل مَنْ ليس مرضيًّا في دينه ومذهبه».

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسُّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ منه رِيحًا خَبِيثَةً**»، متَّفق عليه(٤).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: «فيه تجنُّب

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص: ٤٧٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٣) العزلة (ص: ٤٦).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

خلطاء السُّوء ومجالسة الأشرار، وأهل البدع والمغتابين للنَّاس؛ لأَنَّ جميعَ هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحَضُّ على مجالسة أهل الخير وتلقي العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة»[(١)].

القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ الحَذَرُ مِنَ العُجْبِ وَالاِغْتِرَارِ بِالنَّفْسِ

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]، فنهى الله عَزَّوَجَلَّ عن مدحِ النَّفس بما يدلُّ على زكاتها وصلاحها؛ لأنَّ التَّقوى محلُّها القلب، واللهُ عَزَّوَجَلَّ هو أعلم بمَنْ حصلت منه التَّقوى، ولأَنَّ هذا المدحَ للنَّفس سببٌ لدخُول العُجْبِ عليها، وسببٌ للرِّياء الَّذِي هو مُحبِطٌ للأعمال.

والمؤمن مهما اجتهد في فعل الصَّالحات واجتناب المحرمات فإِنَّهُ لا يزال مقصِّرًا، وظالمًا لنفسِهِ، وإذا كان أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ -صدِّيق هذه الأُمَّة، وخير النَّاس بعد الأنبياء- لمَّا سأل النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُعلِّمَه دعاءً يدعو الله به في صلاته علمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَنْ يقولَ: «**اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»، متَّفق عليه[(٢)]، فكيف الشَّأن بمَنْ هو دونه؟!

وعندما سألت أُمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت: أهم الَّذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ**»، أخرجه التِّرمذيُّ[(٣)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ١٠٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٣١٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.

القَاعِدَةُ العَاشِرَةُ معرفةُ حقيقةِ هَذِهِ النَّفْسِ، ومعرفةُ صفاتِها، ليسهُل الاعتِناء بها، ورعايتها، ومداواتها مِنَ الآفات الَّتِي تطرأ عليها.

وقد وصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّفس في كتابه الكريم بثلاث صفات مشهورةٍ معلومة، وهذه الصِّفات راجِعةٌ إلى أحوال النُّفُوس، **وهي:**

* **النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ:** وهي الَّتِي اطمأنَّت بالإيمان وذكر الله تعالى وعبادته وحُسن الإقبال، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد:٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

* **النُّفْسُ اللَّوَّامَةُ:** وهي الَّتِي تلومُ صاحبَها على فعله الخطأ، أو تقصيره في الواجب، أو تفريطه في الطَّاعة، كما قال تعالى في سورة القِيامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢].

* **النَّفسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ:** وهي الَّتِي تحُثُّ صاحبَها على فعل المحرمات، وارتكاب الآثام، وتقُودُهُ إلى مواطن المنكرات، ومواضِعِ الرَّذيلة، وتدفَعُهُ إلى فعلِ القبائح والرَّذائل، كما جاء في سورة يوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٥٣].

فهذه الأوصاف الثَّلاثة للنَّفس هي في الحقيقة أحوالٌ متعلِّقةٌ بالنَّفس، ولذلك فإنَّ هذه الأحوالَ تتقلَّبُ وتتغيَّر، بحَسَب الوارِدات الَّتِي تَرِدُ على النَّفس، فقد تجتمعُ هذه الصِّفات عند الإنسان في يومٍ واحد بحسَب حال النَّفْس.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمنُ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ؛ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُم فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبةٍ»(١).

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد (٣٠٧)، وعنه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٥٢٠٩).

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة الرسالة التبوكية: «فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله وقال تعالى فيه (وإنك لعلى خلق عظيم) قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كان خلقه القرآن، وهذا لايتم إلا بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكون العود طيبًا؛ فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علمًا وإرادة وعملًا، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوى فإن هذه الأمور تنافي الكمال فإن لم تقو النفس على قهرها وإلَّا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى وتمت لهم العناية.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين».

الفهرس